342

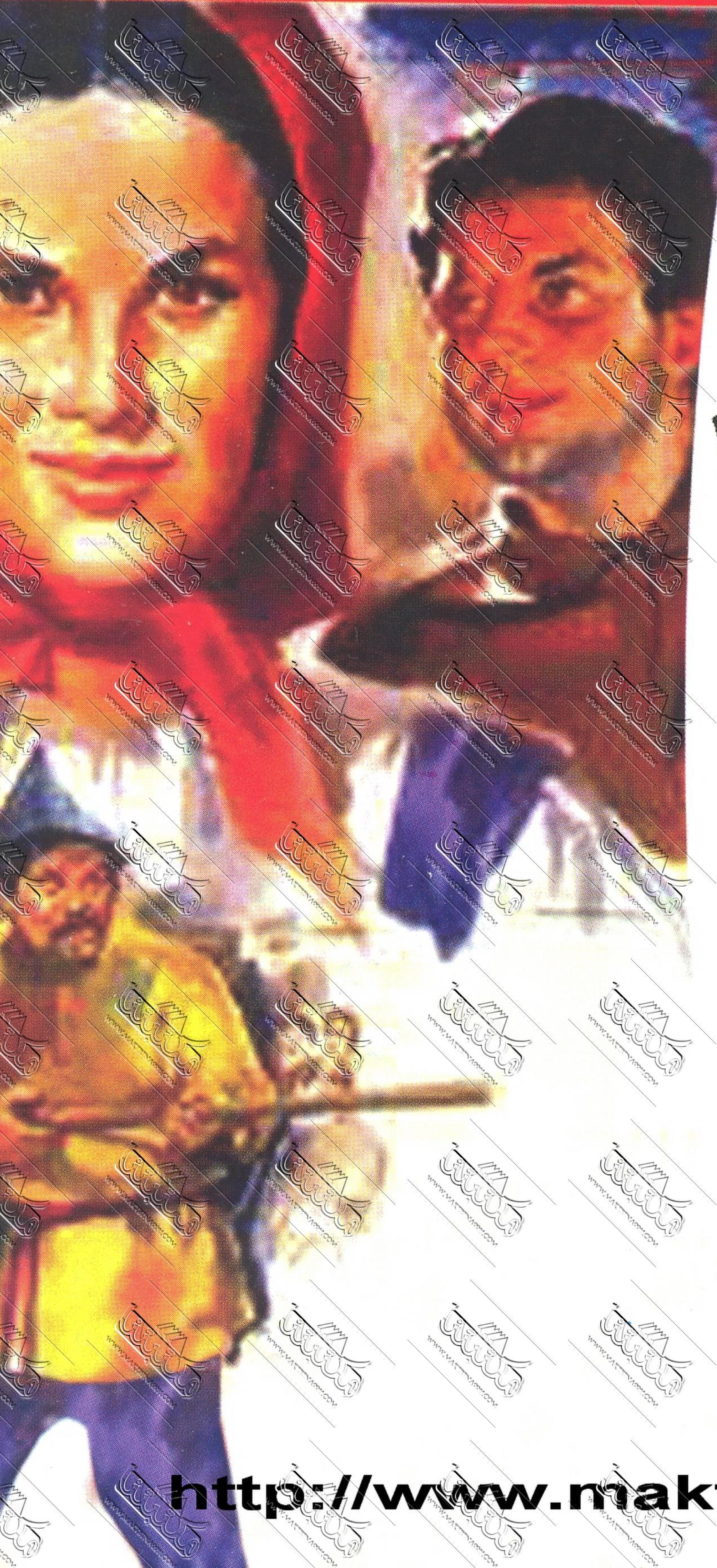
إلى عبيرى

العذراء الريفية

A.M.

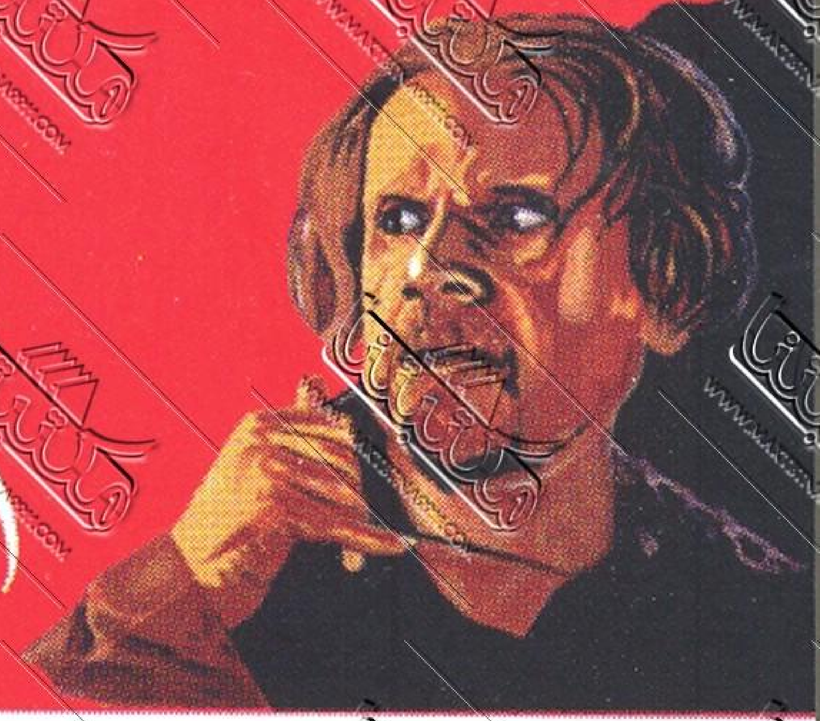
ليو تولستوي

دوبرفيتشا



دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

Mon.
11/3/2013



العذراء الريفيّة / پوليكوشكا

«**العذراء الريفية**» كما أُطلق عليها لها في حد ذاتها قصة، إذ إن القصص الأولى لتولستوي - في تلك الحقبة التي بدأ فيها استقراره في أملاك أسرته كانت مستمدة من تجارب حياته الخاصة دون أن تتعلق برسالة معيّنة. فلمّا أقدم على كتابة هذه الرواية كان قد بدأ يهتم برسالته في الأدب الروسي، لذا جعل لها نطاقاً خاصاً خارج نطاق تجاربه الشخصية.

أمّا «**بوليكوشكا التائب**» كما أسماها تولستوي فهي صورة لحياة ربما شهدتها أجيال قبلنا في بعض البلاد العربية، ولكنها بالنسبة إلى جيلنا صورة جديدة، طريفة، تحرّك أقسى القلوب الإنسانية صلابة، وتعلي من قدر الكرامة والعزّة البشرية التي كانت كامنة تحت مظاهر الذل والاستكانة.

هي رواية تبيّن كيف أن الرقيق بشر يستط يتوب بعد ضلال، وأن يستقيم بعد تخبط، فلمّا أبت الظروف إلا أن تظهر بطل الرواية بمظهر يفقده ثقة سيدته، وإيمان زوجته به، وتقدير زملائه له، قضى على حياته.

ISBN: 978-9953-542-47-8



دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع

ليو تولستوي

العذراء الريفيَّة
ويوليكوشكا التائب

اعداد وتقديم وتحليل
الدكتور رحاب عكاوي

دار الحرف العربي

ليو تولستوي

١٨٢٨ ـ ١٩١٠

في التاسع من شهر أيلول/ سبتمبر سنة ١٨٢٨ وُلِدَ الكونت ليف نيكولايڤيتش جراف تولستوي، الذي عُرِفَ فيما بعد باسم «ليو تولستوي»، في روسيا القيصرية، وكانت ولادته في مقاطعة «ياسنايا پوليانا» التي يملكها أهله، وهي تقع على مسافة ١٦٠كلم جنوبي موسكو. لم يتمكن ليو من التمتّع برعاية والديه كثيراً، إذ سرعان ما توفيا وهو لمّا يزل طفلاً؛ فتولّت عمّاته رعايته وتنشئته، كما قامت بالإشراف على دراسته الأولية مجموعة مختارة من المدرِّسين.


ليو تولستوي

التحق الفتى ليو تولستوي، عندما بلغ السادسة عشرة من عمره، بـ«جامعة كازان»؛ بيد أنّه ما لبث أن ترك هذه الجامعة بعد أن أحس بخيبة أمل من سقم المناهج التعليمية الرسمية المتبعة فيها، وعاد سنة ١٨٤٧ إلى مقاطعة «ياسنايا پوليانا» ليدير أملاكه، وليتابع تحصيله العلمي على نفسه.

سافر ليو، وهو في الثالثة والعشرين من عمره، إلى بلاد القوقاز، حيث كان شقيقه نيقولاي يعمل في السلك العسكري، والتحق في السنة التالية لوصوله بالجندية؛ فمارس أعمالاً عسكرية؛ واستطاع مع ذلك أن يخصص كثيراً من أوقات فراغه للكتابة؛ كما استطاع أن يفرغ في هذه الحقبة من حياته من أول أعماله الأدبية «Detstov» «الطفولة».

نُقلَ الجندي ليو، في سنة ١٨٥٤، إلى جبهة الدانوب، حيث شارك في حصار مدينة سيڤاستبول خلال حرب القرم؛ ولم يترك هذه التجربة تمر من غير أن يسجلها في كتاباته الأدبية عبر ما عُرِف باسم «حكايات سيڤاستپول». وكان أن ترك من ثمّ الجندية، مع انتهاء تلك الحرب في سنة ١٨٥٦، وانتقل للعيش في سانت بطرسبرج.

في خلال إقامته في سانت بطرسبرج أصبح تولستوي شخصية أدبية مرموقة؛ لكنه لم يتحمّل، على ما يبدو، طول الإقامة في تلك المدينة، إذ إنه ما لبث أن

رجع إلى مسقط رأسه «ياسنايا پوليانا»؛ وانصرف في المدة الواقعة بين ١٨٥٥ وسنة ١٨٦٣ إلى كتابة القصص القصيرة؛ كما بدأ في سنة ١٨٥٧ رحلة طويلة تنقّل فيها بين فرنسا، وسويسرا، وألمانيا.

والواقع أنّ تولستوي كان من المعجبين بآراء الأديب الفرنسي «جان جاك روسو» في الشأن الاجتماعي من خلال كتابه «العقد الاجتماعي»؛ ولعلَّ هذا ما دفع به إلى أن يركِّزَ، في كتابات هذه المرحلة، على الضّرر الذي يمكن أن يلحق بالإنسان الفطري إذا ما دنَّسته آفات الحياة المادية.

وما إن شارفت خمسينات القرن التاسع عشر على الأفول حتى راح تولستوي يبدي اهتماماً ملحوظاً بالوضع الثقافي والتعليمي الذي يعيشه الفلاحون في وطنه، فما إن عاد من رحلاته خارج روسيا، حتى قام بإنشاء مدرسة لأبناء الفلاحين في «ياسنايا پوليانا». وكان للنجاح الذي حققته الطرق التعليمية والتربوية التي اتبعها في هذه المدارس، وهي طرق استقاها من مبادئ التربية الحديثة في زمنه، الأثر العظيم في دفعه إلى الخوض في الدراسات التربوية التعليمية الحديثة.

ومن جديد سافر تولستوي إلى أوروپا سنة ١٨٦٠؛ فأمضى هناك سنة واحدة سعى في خلالها إلى الوقوف على النظريات التربوية وتطبيقاتها. ويمّم، لهذا الغرض، شطر ألمانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وبلجيكا. ولم يلبث أن أصدر مجلة تعليمية حاول أن يطوِّر، من خلال ما ينشره فيها، بعض النظريات التربوية التي حازت اهتمامه، ثم عاد وجمع ما كتبه في هذا الصدد ونشره في سلسلة من الكتيبات.

في سنة ١٨٦٢ تزوَّج ليو تولستوي بواحدة من فتيات أُسر الطبقة الوسطى في روسيا تُدعى صوفيا أندريڤناپيرس؛ ويبدو أن الحياة الزوجية الهانئة، التي نَعِمَ بها في هذه المرحلة، أثمرت نتاجاً وذريّة، فعلى الصعيد العائلي أنجبت منه زوجته ثلاثة عشر ابناً وابنة، وفي المجال المهني لقي نجاحاً بارزاً في إدارة أملاكه، إضافة إلى إنجازه أهم اثنتين من روائع رواياته وأشهرهما على الإطلاق: (Voyna i mir) «الحرب والسلم» و(Anna Karenina) «آنّا كارنينا».

ولم تفتر همّته، فما إن أنهى تولستوي رائعته «آنا كارنينا»، حتى وجد نفسه مدفوعاً إلى التساؤل عن معنى الحياة، وأدّى به التساؤل، في هذا الموضوع العويص، إلى أزمة روحية شديدة الوعورة وصعبة المسالك، وتجلَّت هذه الأزمة التي كان يعانيها تولستوي بوضوح سنة ١٨٧٩، عبر منحيين: أولهما عندما حاول الانتحار، غير أنه لم يفلح في محاولته؛ وثانيهما عبر عجزه عن


تولستوي وزوجته

الوصول إلى فهم معنى للحياة، من خلال ما كان يُقْبِل عليه من امتحان نفسي منهجي لما كان يقرأه من كتابات للفلاسفة واللاهوتيين والعلماء حول هذا الموضوع. وأخيراً استطاع تولستوي أن يجد ضالته عند الفلاحين البسطاء، الذين طالما تعاطف معهم، فقد جعله هؤلاء يدرك أن هدف الحياة يكمن في سعي الإنسان إلى خدمة الله وليس إلى خدمة نفسه.

عند هذا الإدراك رفض تولستوي كل سلطة للملكية الخاصة، لأن هذه السلطات جميعا لا يمكن أن تقوم، بنظره، إلاّ على مبدإ القوة والإكراه في سبيل تنفيذ ما تدعو إليه. وتمشّياً مع هذا المبدإ، رغب في حرمان نفسه من أملاكه الشخصية، وسعى إلى وهبها إلى الآخرين؛ بيد أن الضغوطات الكبيرة التي مورست عليه، من قبل أفراد عائلته، اضطرته إلى التخلي عن هذه الأملاك إلى تلك العائلة؛ حتى بات لا يملك من حطام الدنيا شيئاً.

في سن الثامنة والستين كتب تولستوي رواية طويلة حملت عنوان «البعث» (Voskresenìyé)؛ وهي أعظم جهد أدبي بذله بعد تحوله إلى المسلكية الحياتية التي دفعته إليها أزمته الروحية، غير أن هذه الرواية لم ترق إلى المستوى الرائع الذي كان قد حقّقه في روايتيه «الحرب والسلم» و«آنا كارنينا».

في شيخوخته حاول ليو تولستوي أن يُطبّق على حياته الشخصية ما كان يذهب إليه من آراء نظرية؛ فسعى في هذا السبيل إلى قهر رغباته الجسدية، وامتنع عن التدخين ومعاقرة الخمرة، كما تحوّل إلى إنسان نباتي لا يقرب طعم اللحوم، وغالباً ما كان يرتدي الملابس البسيطة كالتي يرتديها الفلاحون. ونتيجة لإيمانه بأنه لا يجوز للإنسان أن يعتمد على الآخرين في تأمين قوت يومه. طالما هو قادر على هذا الأمر؛ فإنه سعى إلى تحقيق ما اعتبره نوعاً من الاكتفاء الذاتي في أمور عيشه، إذ كان يُنظِّفُ غرفته بنفسه، كما كان يزرع الأرض لجني ما يلزمه من نباتها، بل إنه كان يصنع نعليه بيديه.

وذاع خبر ما كان يمارسه تولستوي ويعانيه من أعمال في هذا المجال، ولاقت هذه الممارسات التي كان يقوم بها إعجاباً كبيراً من النّاس؛ فبات مقر إقامته في «ياسنايا پوليانا» محجّة للزائرين، وقبلة للمريدين، ومنارة للمسترشدين. ولقد دفع هذا الأمر كثيراً من الناس إلى الإقامة بالقرب من دارته للنهل من تعاليمه، والتمثُّل بأسلوب عيشه؛ ولكنَّ هذا الأمر لم يَرُق لذويه وأفراد عائلته، خصوصاً وأن بعض هؤلاء الوافدين كانوا يعمدون إلى التدخُّل في بعض الأمور الشخصية للعائلة، ما دفع زوجته وابنه البكر إلى إبداء انزعاجهما من هذا الحال، بل إن مشاجرات كثيرة كانت تحصل بينهما وبين تولستوي.

واتّفق أن المشاجرات والخلافات قد تفاقمت بين تولستوي وبين بعض أفراد عائلته، كما بدا أن الرجل تاق إلى عزلة يبتعد فيها عن ضوضاء المعجبين والمناصرين والمريدين، فقرر أن يغادر مقر إقامته إلى حيث يمكن له أن يجد الهدوء والسكينة، وليكون أكثر قرباً من الله الذي يسعى إلى خدمته.

وفي صباح يوم غادر ليو تولستوي دارته في «ياسنايا پوليانا» خلسة برفقة إحدى بناته وطبيبه الخاص، وكان الوقت فصل شتاء وأمطار عاصفة وثلوج متساقطة؛ فلم يقو جسده الواهن على تحمل رداءة الأحوال الجوية، ولم يعتّم أن لفظ أنفاسه الأخيرة في غرفة مراقب خطوط السكة الحديد في آستابوڤو في مقاطعة رايزان في روسيا، في العشرين من تشرين الثاني/ نوڤمبر سنة ١٩١٠، وكان قد بلغ الثانية والثمانين من عمره في ذلك اليوم.

مؤلفاته:

في مسقط رأسه، ومن المذكِّرات التي كان يدوّنها في يومياته، انطلقت أعمال تولستوي، وفيها كشف عن تركيب وتفاعلات الحياة الداخلية للإنسان ومساره في البحث عن كنه الحياة.

باكورة مؤلفاته كانت قصة «الأمس» التي ألّفها سنة ١٨٥١، وقد تضمّنت تفصيلاً دقيقاً لمشاعره والآثار التي تنتج عنها. ثم تلا ذلك صدور كتاب «الطفولة»، وهو الجزء الأول من سيرته الذاتية، أظهر فيه براعة في التعبير عن أدق تفاعلات الوجدان وخداع المظهر بعيداً عن الجوهر. ثم تلاه الجزء الثاني من سيرته «المراهقة»، وقصة «القوقاز» التي تحكي حياة الرجال الذين ينشؤون على الفطرة ويمجّدون البطل «أولنين» الذي كان يتمتّع بقوة العقل وضعف الجسم. وبعد ذلك كتب «قصص من سيڤاستيول» وهي حكايات تصوِّر بشاعة الحرب وأهوالها، وقد شارك تولستوي نفسه في الدفاع عن المدينة يوم التحق

بجيش القرم. وفي سنة ١٨٥٦ نشر قصة «ضابطان من الفرسان»، ثم أصدر الجزء الثالث من سيرته «الشباب» وقصة «لوسيرن» و«ثلاث ميتات» وبعدها «خولستومر»، وهي صورة ساخرة فريدة لحياة أبناء الطبقات الراقية في روسيا. وأصدر من ثمَّ مجلة تربوية دعا فيها إلى نظام تربوي خاص لتعليم الشعب ١٨٦٢. وأصدر بعد ذلك روايته الملحمية «الحرب والسلم» التي صوَّر فيها الشعب الروسي وهو يهبّ مجتمعاً لتحطيم صورة الرجل العظيم نابليون ويهزمه. وألف كتاب «ألف باء» في أربعة أجزاء لتعليم الفلاحين. وفي سنة ١٨٧٨ أصدر رواية «آنا كارنينا» التي بناها على حادثة وقعت في الحقيقة، وهي انتحار شابة في مقتبل العمر خانها التوفيق في الحب فقذفت بنفسها تحت عجلات قطار السكة الحديد. وفي سنة ١٨٧٩ نشر كتاب «اعترافاتي» يصوِّر فيه مسيرة حياته ومعاناته النفسية والدينية والأخلاقية. وبعدها توالت مجموعة من القصص والكتابات الدينية صوّر فيها المسيحية كما كان يراها «الأب سرجيوس ـ البطاقة المزوّرة ـ حاجي مراد ـ نقد اللاهوت العقائدي ـ الكنيسة والدولة ـ ما إيماني ـ مختصر الإنجيل ـ ماذا يجب أن نصنع؟...» وأصدر بعد ذلك روايته العظيمة «البعث». ثم نشر في أواخر عمره «وفاة إيڤان إيلييتش» و«الرب والإنسان» و«مذكرات مجنون» و«أنشودة كوريتزر» و«الشيطان».

كما ترك مجموعة من المسرحيات ترجع إلى المرحلة التي سبقت تحوُّله الديني، منها: «سلطان الظلام» و«ثمار التنور» و«الجثّة الحيّة».

العذراء الريفية وپوليكوشكا التائب(*)

من الممكن جدّاً حصر سيرة الأديب ومتابعة أحداث سنيّ عمره يوماً بعد يوم وساعة تلو ساعة، ولكن من الصعب جدّاً حصر نتاجات أديب عملاق كأديبنا تولستوي. ولا يقصد هنا بالحصر مجرّد التعداد، بل تحديد ما يتضمنه كل نتاج من أفكار وأهداف قصد إليها الأديب.

لقد وضعت عشرات بل مئات الكتب، ليس بالروسية فحسب، بل بمختلف لغات العالم، عن كل نتاج من نتاجات تولستوي. فقد برز هذا الأديب العالمي على مسرح الأدب الروسي سنة ١٨٥٢ عندما قدمه تورغينيف إلى أسرة تحرير مجلة «المعاصر» التي نشرت له أول أعماله وهي قصة «الطفولة» في عددها

(*) جاء عنوان الرواية الثانية في الإنكليزية «Two Hussers» وHusser تعني الهُوصار: جندي في وحدة من الوحدات العسكرية الأوروبية المنظمة على طريقة سلاح الفرسان الهنغاري الخفيف في القرن الخامس عشر.

التاسع لتلك السنة، ثم أعقبتها قصة «الصبا» سنة ١٨٥٤، وأكمل ثلاثيته بقصة «الشباب» سنة ١٨٥٥، وهذه الثلاثية عموماً تعكس جوانب من المراحل الثلاث المذكورة في حياة ليو تولستوي.

بعد نشر ثلاثيته صار تولستوي يحتل مكانة مرموقة في الأدب الروسي، وأخذت الصحف ودور النشر ترحب بما يكتبه فنشر قصص «الهروب»، «تحطيب الغابة»، «ضابطان من الفرسان»، «پوليكوشكا»، «قصص من سيڤاستپول»، «القوزاق» وغيرها، حيث صور الواقع الحياتي الذي يعيشه الإنسان الروسي في تلك الفترة وخصوصاً الفلاح، كما صوّر جوانب متعددة من جوانب المجتمع الروسي القيصري، وتناول في بعضها أيضاً أحداثاً من صميم حياته مزجها بالخيال، وفي بعض منها تناول مشروعات أفكار لقصص طويلة، تناول في اثنتين منها حياة الرقيق في روسيا.

في تلك الحقبة من العهد القيصري كانت هناك طبقة مستعبدة ترسف في مزيد من الذل والهوان، تلك هي طبقة الرقيق، رقيق الأرض، الذي كان يعيش على أراضي الأُسر الإقطاعية، فهي تستنزف دمه وقواه وحيويته في سبيل زيادة ثرواتها، ورقيق البيت من أبناء الجواري والعبيد، الذين لا سبيل لهم في الحياة في مجتمع يسوده الظلم والفوضى إلاّ البقاء في أسار الأسياد.

پوليكوشكا أو «للعبيد ضمير» كما أسماها تولستوي كانت أقوى هاتين القصتين. وهي صورة لحياة ربما شهدتها أجيال قبلنا في بعض البلاد العربية، ولكنها بالنسبة إلى جيلنا صورة جديدة، طريفة، تحرك أقسى القلوب الإنسانية صلابة، وتعلي من قدر الكرامة والعزة البشرية التي كانت كامنة تحت مظاهر الذل والاستكانة.

أمّا القصة الثانية «ضابطان من الفرسان» أو «العذراء الريفية» كما أطلق عليها فلها في حد ذاتها قصة. إذ إن القصص الأولى لتولستوي ـ في تلك الحقبة التي بدأ فيها استقراره في أملاك أسرته ـ كانت مستمدة من تجاربه وحياته الخاصة دون أن تتعلق برسالة معينة(*).

*

(*) أُلحِقت بالقصتين قصة ثالثة لتولستوي تحت عنوان «في العالم الآخر».

پوليكوشكا التائب

1

سيدة بوكروڤسك

الأمر لكِ! أنتِ صاحبة الكلمة، يا سيدتي، كل ما في الأمر أنَّه سيكون من دواعي الأسف أن يقع الخيار على آل «دوتلوف».. كلهم صالحون، ولا مناص من أن يذهب أحدهم، ما لم نرسل واحداً من رقيق البيت، على الأقل!

وسكت وكيل الأعمال لحظة، ثم أضاف: «وهذا ما يلمح إليه كل إنسان.. ولكن الأمر رهن بمشيئتك يا سيدتي!». ووضع يده اليمنى على يسراه فوق صدره، ومال برأسه على كتفه الأيمن، وجذب شفتيه إلى الداخل، موشكاً أن يحدث صوتاً مسموعاً (رشف)، وصعّد بصره إلى أعلى، ولم يزد على ما قاله، بل بدا أنه قرّر أن يلزم الصمت طويلاً، وأن يصغي ـ دون ردّ ـ إلى كل لغو كان من المؤكد أن يصدر عن مولاته!

وكان وكيل الأعمال الحليق، الذي يلبس سترة طويلة، حيكت على نمط خاص يليق بوكيل الأعمال، والذي جاء، في تلك الليلة من ليالي الخريف، ليعرض أمراً على مالكة زمامه.. كان وكيل الأعمال هذا، عبداً من رقيق البيت، بحكم مولده!.. وكان عرض الأمر ـ من وجهة نظر السيدة ـ يعني الإنصات إلى حديث عن أمر يجري في ضيعتها، وإصدار تعليمات للمضيّ قدماً في العمل. أمّا من وجهة نظر «إيغور ميخائيلوڤيتش» ـ وهو رئيس الخدم ـ فإن عرض الأمر كان يتطلّب الوقوف معتدلاً، وأصابع قدميه مرفوعة إلى أعلى، في ركن مقابل للأريكة.. مع الإصغاء إلى كل ضروب الثرثرة المبتورة العبارات، والعمل بمختلف الطرق والوسائل على تهيئة ذهن السيدة

لكي تقول بسرعة ونفاد صبر: «حسن!.. لا بأس!». ولكل هذا كان «إيغور ميخائيلوفيتش» قد رسم خطته!.. وكان الأمر المعروض هو تعيين المجنَّدين. فقد كان على ضيعة بوكروفسك أن تقدِّم في عيد «بوكروف» ثلاثة أفراد ليجنَّدوا في صفوف الجيش. وبدا أنَّ القدر قد اختار بذاته اثنين منهما بحكم ظروف عائلية وأخلاقية واقتصادية. ولم يكن ثمة تردد أو نزاع في أمرهما، سواء من ناحية السيدة، أو الحكومة، أو الرأي العام. ولكن الذي كان مثار الجدل هو: مَن يكون الثالث؟

كان وكيل الأعمال توّاقاً إلى أن ينقذ أبناء آل دوتلوف ـ الذين كان في أسرتهم ثلاثة شبّان في سن التجنيد ـ وإلى إرسال «پوليكوشكا»، وهو رجل من رقيق البيت، متزوّج، سيئ السمعة، فوجئ ـ أكثر من مرة ـ وهو يسرق الأكياس، وسروج الخيل، والتِّبن.. ولكن السيدة ـ التي كثيراً ما كانت تعطف على أطفال پوليكوشكا في ثيابهم الرثّة، وتعمل على إصلاح أخلاقه بآيات من التوراة ـ أبت أن تفرِّط فيه.. غير أنها ـ في الوقت ذاته ـ لم تكن راغبة في الإضرار بآل دوتلوف، الذين لم تكن قد عرفتهم ولا رأتهم قط. ولكنها ـ لسبب ما ـ لم تبد قادرة على إدراك وجهة نظر وكيل أعمالها، كما أنه لم يقوَ على أن ينبئها صراحة بأنه لا بد لواحد من أبناء دوتلوف أن يذهب، إذا لم يذهب پوليكوشكا، فقد راحت تقول له في تأثر: «ولكني لا أريد سوءاً لآل دوتلوف!». وكان جديراً بوكيل الأعمال أن يقول: «ما دمت لا تريدين، فادفعي ثلاثمائة روبل لبديل!»(*).. ولكن مثل هذا القول كان سياسة خرقاء، ومن ثم ركن «إيغور ميخائيلوفيتش» إلى وقفة مريحة، حتى لقد استند ـ دون أن يفطن ـ إلى إطار الباب، بينماكان يحتفظ بمعالم الخضوع على وجهه، وهو يراقب خلجات

(*) كان من المسموح، في روسيا آنذاك، أن يدفع المجنَّد الميسور الحال مبلغاً لشخص آخر يؤدي الخدمة العسكرية بدلاً منه. فإذا كان المجنَّد من الرقيق، وشاء مالكوه أن يحتفظوا به، دفعوا عنه البدل.

شفتيّ السيدة، ويُعجب بحواشي قلنسوتها وظلالها الملقاة على الجدار، تحت إحدى الصور!

على أنه لم ير من الضروري أن ينتبه إلى معاني كلمات السيدة، إذ إنها كانت تتكلم طويلاً، وتقول كثيراً.. وتوتَّرت العضلات التي خلف أذنيه، بفعل رغبة واتته في التثاؤب، ولكنه تحايل فحوَّلها إلى سعال أطلقه وهو يرفع يده إلى فمه. ومنذ زمن غير بعيد، رأيت «اللورد پلمرستون»(*) يجلس وقد أرخى قبعته على وجهه، بينما كان أحد أعضاء المعارضة يصب الحمم على الوزارة. وما لبث اللورد أن نهض فجأة، فرد على المعارض ـ نقطة نقطة ـ في خطاب استغرق ثلاث ساعات. ولم أُدهش حين شهدت ذلك، لأنني شهِدت الشيء ذاته يجري بين «إيغور ميخائيلوڤيتش» ومولاته، آلاف المرات!.. على أنه لم يلبث أن أرخى ثقله على ساقه اليمنى بدلاً من اليسرى ـ ولعله خشي أن ينساق للنعاس، أو ظن أن السيدة كانت تتعمَّد إطالة الموقف ـ وشرع يمهِّد للحديث بمقدمة مليئة بالرياء، كما اعتاد أن يفعل دائماً: «الأمر رهن بمشيئتك يا سيدتي.. على أنَّ ثمة اجتماعاً أمام نافذة مكتبي الآن، ولا بد أن نقطع بقرار، فإنَّ الأوامر تقول إن المجنَّدين يجب أن يكونوا في المدينة قبل عيد «بوكروڤ»، وهناك إجماع بين الفلاحين على ترشيح أبناء دوتلوڤ، دون سواهم. أما «المير»(**) فإنَّه لا يشقى بمصالحك، إذ ما الذي يضيره إذا خربنا بيت آل دوتلوڤ؟.. إنني أعرف شدّة الضائقة التي ألمّت بهم، فإنهم ـ منذ توليت وكالة أعمالك ـ يعيشون في فاقة. واليوم وقد كبر ابن أخ الشيخ، وأوشك أن يكون عوناً، إذا بالأسرة تُمنى بنكبة ثانية!.. أما أنا، فكما عهدت، أمين

(*) هنري پلمرستون (١٧٨٤ ـ ١٨٦٥): سياسي إنكليزي تولى مراراً وزارة الخارجية ورئاسة الوزراء. اشتهر بسياسته العدائية ضد فرنسا.

(**) مير كلمة عربية الأصل «أمير» محرَّفة بالتركية والفارسية، وتستخدم بمعنى الأمير والآمر والرئيس والعمدة أو رئيس القوم.. ولعلها انتقلت إلى اللغة الروسية عبر القبائل المتاخمة لتركيا والدول الإسلامية.

على ثروتك كما لو أنها كانت ثروتي.. وهم ـ على أية حال ـ ليسوا أهلاً لي أو أقارب، ولست أجني من ورائهم شيئاً..!».

فقطعت عليه السيدة حديثه قائلة: «ما هذا يا إيغور؟.. وكأنني فكرت أنا يوماً في هذا!». على أنها ارتابت لفورها في أن يكون قد تقاضى من آل دوتلوف رشوة؛ فقد واصل حديثه قائلاً: «.. إنَّ دارهم هي خير دار في بوكروفسك من حيث العناية والتدبير. وهم فلاحون مجتهدون، أتقياء، وكبيرهم شيخ للكنيسة منذ ثلاثين عاماً.. فهو لا يشرب الخمر، ولا يشتم، وإنما هو يواظب على الذهاب إلى الكنيسة..». وكان وكيل الأعمال يعرف الوتر الذي يحسن أن يضرب عليه، فقال: «على أن أهم ما أريد أن أعرضه عليك، هو أنه لم يرزق غير ولدين، أما الآخرون فأبناء أخوة له، كفلهم برّاً بهم.. ومن ثم فينبغي أن يجري الاقتراع بين الأُسر ذات الرجلين. كم من أسرات تفكّكت بسبب قلة حكمتها، فانفصل عنها أبناؤها، وأصبحوا الآن آمنين. أمّا آل دوتلوف، فسيتعرّضون للعناء، لمجرد أنهم طيبون برَرَة!».

ولكنَّ السيدة لم تستطع أن تعي حديثه عند هذه النقطة، إذ إنها لم تفهم ماذا يعني بالأُسر ذات الرجلين، ولا بـ«البرّ». فاكتفت بأن تسمع صوته، وترقب الأزرار الملبَّسة بالقماش، في سترة وكيل الأعمال. كان الزرّ الأعلى ثابتاً في مكانه، ولعلّه لم يكن يستعمل كثيراً.. أما الأوسط فكان مدلًّى، وكان من الواجب أن يثبت في مكانه منذ زمن بعيد..

على أنه من المعروف أن ليس من الضروري ـ في المحادثات التي تدور حول الأعمال، بوجه خاص ـ أن تفهم ما يُقال، وإنما يكفي أن تتذكَّر ما تريد أنت أن تقول!.. وقد عملت السيدة بهذا، فقالت: «كيف يتعذّر عليك الفهم يا إيغور ميخائيلوفيتش؟.. ليست بي أقل رغبة في أن يصبح أحد أبناء دوتلوف مجنَّداً. كنت أظن أن امرأً يعرفني ـ كما تعرفني أنت ـ جدير بأن يشهد لي بالرغبة في أن أبذل ما في وسعي لمساعدة رقيق أسرتي، فأنا لا أبغي أن يصيبهم أي ضرّ، بل

إنني على استعداد لأن أضحي بكل ما أملك، لأتملَّص من هذه الضرورة المحزنة، فلا أرسل دوتلوف أو پوليكوشكا!».. ولست أدري، هل خطر لوكيل الأعمال أن لا حاجة في هذا الأمر إلى التضحية بكل شيء للتهرُّب من الضرورة المحزنة، وإنما كانت ثلاثمائة روبل كافية.. على أن من المحتمل أن هذه الفكرة خطرت على باله!

ـ لن أقول لك سوى هذا: لن أُفرِّط في پوليكوشكا، أيّاً يكن الأمر. فعندما اعترف لي من تلقاء نفسه ـ بعد حادث الساعة ـ وبكى، وعاهدني على الاستقامة، تحدثت إليه طويلاً، ورأيت أنه كان صادقاً في تأثره، وفي توبته!

وهنا قال إيغور ميخائيلوڤيتش لنفسه: «ها هي ذي تضلُّ ثانية!». وشرع يتأمل الشراب الذي كانت تحتسيه من كوب من أكواب الماء، ويسائل نفسه: «أهو عصير برتقال أو ليمون حامض؟.. أظنه لاذعاً بعض الشيء!».. بينما استطردت السيدة قائلة: «ولقد مضت سبعة أشهر، لم يحنث فيها بعهده مرة، بل كان ممتاز السلوك. إنَّ زوجته تقول لي إنه أصبح رجلاً آخر. فكيف تريدني على أن أُعاقبه بعد أن استقام؟.. ثم إنه من المجافاة للإنسانية أن تجنِّد رجلاً ذا خمسة أطفال، لا عائل لهم سواه.. لا، يحسن أن لا تزيد في اللجاج يا إيغور!». ورشفت من الشراب رشفة، فراقب إيغور ميخائيلوڤيتش حركة حلقها والسائل ينساب فيه، ثم أجاب باقتضاب وجفاء: «إذاً، فقد قرّ الرأي على دوتلوف؟».

وعقدت السيدة يديها، وقالت: «كيف لا تفهم؟.. أفأبغي بدوتلوف سوءاً؟ أتراني أضمر له ضغينة؟.. الله شاهد على أنني على استعداد لأن أفعل كل شيء من أجلهم..». ونظرت إلى صورة في ركن الحجرة، ثم تذكّرت أنها لم تكن أيقونة، فقالت لنفسها: «لا بأس.. ليس هذا محور الاهتمام!». ومن المستغرب، أن فكرة الروبلات الثلاثمائة لم تخطر لها في هذه المرة أيضاً!.. وعادت

تقول: «حسن، ما الذي أملك أن أفعله؟ وما درايتي بهذا الأمر؟.. من المستحيل أن أعرف. ومن ثم فأنا أعتمد عليك، وها قد عرفت رغباتي، فاعمل على إرضاء الجميع، وفقاً للقانون.. ما الذي يجب عمله؟.. إنهم ليسوا الوحيدين، بل إنَّ كل امرئ عرضة لأوقات عصيبة. كل ما هنالك أن ليس من سبيل إلى إرسال پوليكوشكا.. يجب أن تفهم أن من أبغض الأمور على نفسي أن أفعل شيئاً كهذا!».

وكانت الحماسة قد تملَّكتها. ومن المحتمل أنها كانت على استعداد لأن تستفيض في الحديث طويلاً، لولا أن دخلت إحدى خادماتها الغرفة، فتحوّلت تسألها: «ماذا هناك يا دنياشا؟» فأجابت الخادم: «لقد جاء فلاح ليسأل إيغور ميخائيلوڤيتش عمّا إذا كان للاجتماع أن يستمر في انتظاره!». وحدجت إيغور ميخائيلوڤيتش في غيظ، وهي تقول لنفسها: «يا لوكيل الأعمال هذا!.. لقد ضايق السيدة، ومن ثم فلن تسمح لي بإغماضة عين قبل الساعة الثانية صباحاً!».

وأجاب الرجل: «سمعاً وطاعة يا سيدتي!». ولم يعد إلى الحديث عن دوتلوڤ ثانية، وإنما تساءل: «مَن الذي يذهب إلى الموكَّل بالبستان، ليأتي بالنقود؟». فقالت السيدة: «ألم يعد پيتر بعد من المدينة؟». فأجاب: «لا يا سيدتي». وسألته: «ألا يستطيع نيكولاس أن يذهب؟». فقالت دنياشا: «إنَّ أبي مريض، يشكو ألم ظهره!». وتساءل وكيل الأعمال: «أأذهب أنا غداً يا سيدتي؟». ولكن السيدة قالت: «لا يا إيغور، فإنَّك مطلوب هنا». وفكّرت قليلاً، ثم أردفت: «كم هو المبلغ؟»

ـ أربعمائة واثنان وستون روبلاً..

فقالت السيدة، محملقة في وجه إيغور ميخائيلوڤيتش بإصرار: «أرسل پوليكوشكا!». ومطّ الرجل شفتيه في شبه ابتسامة، دون أن يكشف عن أسنانه.. ولم تتبدل أسارير وجهه، وقال: «سمعاً وطاعة يا سيدتي!». فقالت: «أرسله إليَّ هنا!». فقال وهو ينصرف إلى مكتب المحاسبة: «سمعاً وطاعة يا سيدتي!».

2

بوليكوشكا البيطريّ

لم يكن للعبد بوليكي ـ أو بوليكوشكا، كما كان يُنادى عادة، من قبيل الاحتقار ـ أي اعتبار لدى مدبِّر الدار، ولا رئيس الخدم، ولا وكيل الأعمال، ولا وصيفة السيدة. إذ إنه كان رجلاً عديم القيمة، سيّئ السمعة.. ولم يكن من أهل الضيعة أصلاً. فكان ركنه الذي يسكن فيه أسوأ الأركان، رغم أنه أُوتي سبعة أفراد في أسرته. وكان المالك السابق قد أمر ببناء هذه الأركان، على النحو التالي: في وسط مبنى من الآجُر المشويّ ـ مساحته حوالى ثلاث وعشرين قدماً مربَّعة ـ أُقيم فرن كبير من الآجر أيضاً، أُحيط بردهة. وكانت أركان المبنى الأربعة تنفصل عن هذه «اللدهة» ـ كما كان رقيق البيت ينطقونها ـ بحواجز خشبية، ومن ثم فلم يكن في الأركان فضاء فسيح، ولا سيما ركن بوليكي، الذي كان أقربها إلى الباب.. وكان سرير الزوجية بلحاف من قماش مزخرف، ووسادتين، ومهد يحتلّه طفل رضيع، ومنضدة يجري عليها الطهو والغسل، وتوضع عليها مختلف أنواع الأدوات المنزلية، كما كان بوليكي، الذي كان بيطرياً للخيل، يشتغل عليها، وأمتعة، وثياب، وبضع دجاجات، وعجل، وسبعة أفراد يؤلفون الأسرة.. كل هؤلاء كانوا يملأون فراغ الركن، وما كان بوسعهم أن يتحرَّكوا فيه، لولا ربع ركن الفرن الذي كان تابعاً لهم، والذي كان بوسع الناس أن يناموا عليه، وأن يضعوا عليه الأشياء، ولولا أنه كان لهم أن يخرجوا إلى درجات السلم.. وهو أمر لم يكن ممكناً، إذا ما اشتد البرد ـ في شهر تشرين الأول/ أكتوبر ـ ولم يكن الأفراد السبعة يمتلكون سوى معطف واحد من فراء الغنم،

يتشاطرونه فيما بينهم. على أنه كان بوسع الأطفال ـ من ناحية أخرى ـ أن يستدفئوا بالجري، كما كان في استطاعة الكبار أن يدفأوا بالعمل. وكان لهؤلاء وأولئك أن يصعدوا فوق الفرن، حيث كانت الحرارة ترتفع إلى مائة وعشرين درجة فهرنهيتيَّة. وقد يبدو أن الإقامة في مثل هذه الظروف كريهة، ولكنهم لم يكونوا يحفلون بهذا.. كان يكفيهم أن يستطيعوا أن يعيشوا!

كانت «أكولينا» ـ زوجة پوليكوشكا ـ تغسل ثياب زوجها وأولادها وتحوكها، وتغزل، وتنسج، وتبيِّض النسيج، وتطهو، وتخبز في الفرن المشترك، وتتشاجر وتثرثر مع جاراتها. وكانت المخصَّصات الغذائية الشهرية لا تكفي الأولاد وحدهم، بل تغذي البقرة أيضاً. وكان خشب الوقود يُعطى لهم دون مقابل، وكذلك علف الماشية، كما كان يصيبهم بعض التِّبن من الحظائر، أحياناً. وكانت لهم رقعة صغيرة من الأرض، يستنبتون فيها الخضر.. وقد أنجبت بقرتهم عجلاً، كما كان لديهم بعض الدواجن.. وكان «پوليكي» مستخدماً في الحظائر للعناية بجوادين فيها، كما كان يقوم بحجامة الخيل والماشية، وينظّف حوافرها، ويشرط قروحها، ويعالجها بعقاقير من ابتكاره. وكان يتقاضى أجره عن ذلك نقداً وعيناً. كذلك كان بعض شوفان صاحبة الضيعة يتسرّب إلى حوزته، وكان أحد فلاحي الضيعة يقدِّم له عشرين رطلاً من لحم الضأن ـ شهرياً ـ في مقابل كيلين من الشوفان. وكان من الممكن أن تكون الحياة محتملة، لو لم يكن ثمة اضطراب ومتاعب.. فقد كانت الأسرة في عناء كبير!

كان «پوليكي» قد عاش ـ في صباه ـ في مزرعة لتربية الخيل، في ضيعة أخرى. وكان السائس الذي قدّر لپوليكي أن يقع بين يديه أكبر لص في المنطقة، وقد انتهى أمره إلى أن نُفي إلى سيبيريا. وقد قضى پوليكي فترة التعلُّم والتدرُّب تحت إشراف هذا الرجل، ومن ثم اعتاد من صغره تلك السفاسف التي لم يستطع في كبره أن يتخلص منها،

رغم أنه كان من اليسير عليه أن ينصرف عنها!.. كان فتى صغيراً، ضعيفاً، يتيماً، لا أب له ولا أمّاً ولا أي ناصح أمين يوجّهه، ومن هنا جنح إلى الشراب، ولم يعد يحب أن يرى شيئاً حوله مهملاً دون أن يستحوذ عليه.. فما من شيء، سواء أكان عنان جواد، أو قطعة من عدة الركوب، أو قفلاً، أو مزلاجاً، أو شيئاً أهم من ذلك وأعظم قيمة، إلاّ ووجد له پوليكي نفعاً لديه!.. فقد كان ثمة أناس ـ في كل مكان ـ يودّون أن يحصلوا على هذا الشيء، وأن يدفعوا ثمنه شراباً أو نقوداً.. حسب الاتفاق! ومثل هذه الأرباح من أيسر الأمور، كما يقول الناس، فهي لا تحتاج إلى تعلّم أو مران، ولا إلى جهد، ولا إلى أي شيء.. والذي جرّب هذا مرة، لا يحفل بمصدر للكسب سواه. ولم يكن هناك سوى عيب واحد.. فمع أنك تحصل على الأشياء بسهولة، ودون ما كثير عناء أو نفقة، فتنعم بعيش رغد، إلاّ أنَّ الأمور قد تنقلب فجأة، نتيجة شر من شخص ما، فإذا الإخفاق يصيب حرفتك، والكساد يلحق بتجارتك، وإذا بك تُسأل ـ فوراً ـ أن تقدِّم حساباً عن كل شيء.. حتى إنك لتلعن اليوم الذي ولدت فيه!

وهذا ما جرى لپوليكي!.. كان قد تزوَّج، وأنعم الله عليه بحظ سعيد. إذ ظهر أن زوجته ـ ابنة الراعي ـ كانت موفورة الصحة، ذكية، ذات جَلَد على العمل، وقد أنجبت له طفلاً بعد آخر، أطفالاً وسماء لطافاً.. ومع أن پوليكي ظل دائباً على حرفته، دون أن يصادفه أي سوء، إلاّ أن الحظ تخلى عنه يوماً، فإذا بأمره يُفتضح.. وكانت الفضيحة كلها حول متاع تافه، إذ كان خبّأ بعض أعنة الخيل الجلدية، التي كانت ملكاً لأحد الفلاحين، ثم أمكن العثور عليها.. فضُرب پوليكي من أجلها، ورفع الأمر إلى مولاته ـ سيدة الضيعة ـ وفرضت عليه رقابة.. وضبط مرة ثانية، ومرة ثالثة، متلبِّساً. وبدأ القوم يلعنونه ويعيّرونه. وأنذره وكيل أعمالها بأن يزج به بين المجنَّدين. ووبخته سيدة الضيعة، وبكت زوجته وأصبحت كسيرة القلب. وهكذا ساءت الأمور كلها!

كان رجلاً ذا فطرة طيّبة، فهو لم يكن سيّئاً بطبيعته، وإنما كان ضعيفاً.. كان مغرماً بالخمر، وقد اعتاد الإقبال عليها، حتى لم يعد يقوى على هجرها.. وكانت زوجته تؤنّبه - بل وتضربه - أحياناً، إذا عاد إليها ثملاً، فكان يبكي ويقول: «ماذا أصنع وأنا رجل منكود؟.. فلأفقد عينيَّ إذا أنا لم أكف عن الخمر.. لن أعود إليها أبداً!».. وينقضي شهر، ثم يغادر البيت يوماً، فيسكر، ولا يُرى لمدة يومين. وإذ ذاك يقول جيرانه: «لا بدَّ له من أن يحصل على المال، لكي يشرب الخمر به!».. وكان يعمد إلى الطريقة المتيسّرة، ثم لا يلبث أن يُفتضح أمره!

وكان آخر مواقفه الحرجة ناشئاً عن ساعة مكتب الضيعة.. كانت من ساعات الحائط، قديمة، توقّفت عن الدوران منذ أمد طويل. وتصادف أن وجد پوليكي الباب مفتوحاً - من تلقاء ذاته - فدخل.. وأغوته الساعة!.. فأخذها، وتخلّص منها في المدينة. وشاء سوء حظّه أن كان صاحب الحانوت، الذي اشتراها منه، قريباً لإحدى جواري المنزل، فجاء يزورها في يوم عطلة، وحدَّثها عن الساعة.. وشرع القوم - ولا سيما وكيل الأعمال، الذي كان يكره پوليكي - يتحرَّون ويتقصّون، وكأن الأمر يعني كلاً منهم!.. وانكشف الأمر، ورُفع إلى السيدة، فأرسلت تستدعي پوليكي، فإذا به يرتمي على قدميها لتوّه، ويعترف بكل شيء - في لهجة مؤثرة - كما أوصته زوجته أن يفعل!.. وأحسن تنفيذ تعليمات وصيّة زوجته بحذافيرها، فأخذت السيدة تؤنّبه، ثم راحت تعظه.. ومضت تتكلّم، وتتكلّم، مذكرة إياه بالله، والاستقامة، والحياة الآخرة، والزوجة والأولاد، حتى أثرت في نفسه، وأدمعت عينيه.. ثم قالت له: «إنني أصفح عنك، على أن تعدني بأن لا تعود إليها ثانية!».

فقال پوليكي، وهو ينشج ببكاء مؤثر: «أبداً لن أعود إليها ما حييت.. أو فلأمت، ولتنفجر أمعائي!».

وعاد پوليكي إلى ركنه، فقضى يومه مستلقياً على الفرن، وهو يجهش ببكاء أشبه بخوار العجل.. ومنذ ذلك اليوم لم يؤخذ عليه أي مأخذ. بيد أن حياته لم تعد ممتعة، فقد ظل القوم ينظرون إليه نظرتهم إلى لص، حتّى إذا اقترب موعد التجنيد راح كل امرئ يومئ إليه!

*

ولقد كان پوليكي طبيباً بيطريّاً للجياد، كما أسلفنا.. أمّا كيف أصبح كذلك فجأة، فهذا ما لم يعلمه أحد، ولم يدره هو بوجه خاص!.. إذ كان واجبه الوحيد في مزرعة الخيل ـ حيث كان يعمل تحت إمرة رئيس حراس انتهى أمره إلى النفي ـ أن ينظف الحظائر من الأرواث، وأن ينظف الجياد أحياناً، وأن يحمل الماء.. فليس من المحتمل أن يكون قد تعلَّم المهنة هناك!.. ثم بات نسّاجاً، وعمل ـ بعد ذلك ـ في بستان كان يجتثُّ الأعشاب الطفيلية من دروبه، ثم قُضي عليه بتكسير الآجرّ عقاباً على ذنب اقترفه، ثم أصبح حمّالاً لدى تاجر كان يدفع لخليلته مبلغاً سنويّاً لتتركه في هذا العمل.. ومن ثم يتّضح لنا أنه لم يكن ممكناً أن يحظى بأي خبرة في أعمال البيطرة هناك أيضاً!.. ومع ذلك فإنَّ شهرته كبيطري رائع المهارة ـ بل خارقها ـ بدأت تذيع تدريجاً، وبطريقة ما، خلال إقامته ـ آخر مرة ـ في ضيعته، إذ حجم جواداً، مرة أو اثنتين، ثم أرقده أرضاً، وراح ينخسه في خاصرته، ثم أمر بإحكام وثاقه، وراح يجرح خصيتيه ـ والجواد يقاوم عبثاً ـ قائلاً إنَّ هذا يؤدي إلى استنزاف الدم المرتدّ من الحوافر!.. ثم أوضح لفلاح أنَّ من الضرورة ـ التي لا غنى عنها ـ فصد الدم من وريدي جواده زيادة في إراحته، وشرع يدق المِبضَع، المثلوم السن، بمطرقة خشبية.. وضمّد ـ بعد ذلك ـ جرحاً في أسفل بطن جواد صاحب فندق الضيعة بمِزقة اقتطعها من شال زوجته.. وأخيراً، راح يمارس علاج جميع أنواع القرح بنثر مسحوق الشبِّ عليها، ثم ترطيبها بمادة من زجاجة لديه.. وكان ـ أحياناً ـ يوصي بإعطاء الجواد جرعات من أي شيء يخطر في باله.. وكلّما ازداد

عدد الجياد التي يعذِّبها، ويفضي بها إلى الموت، كلما ازداد القوم إيماناً ببراعته وإقبالاً بجيادهم عليه!

وأشعر أنه ليس لنا ـ معشر المتعلِّمين ـ ما يسوغ الضحك من بوليكي، فإن الأساليب التي اتبعها لبثّ الثقة هي عين تلك التي كانت تؤثر في آبائنا، والتي لا تزال تؤثر فينا، والتي ستظل تؤثر في أبنائنا!.. فإن الفلاح الذي ينكب على رأس جواده الوحيد ـ الذي لا يمثِّل كل ثروته فحسب، وإنما هو فرد من أفراد أسرته، في الغالب ـ وهو يحملق في ثقة وخوف إلى وجه بوليكي العابس، وأساريره الدالة على خطورة شأنه، وكمّيه المحسورين عن ذراعيه النحيلتين، وقد راح يضغط موقع الداء من الجواد تماماً ـ وبين فكّيه خرقة مبللة بدواء، أو زجاجة مليئة بمسحوق الشبّ، ثم يُقدم في جرأة على شق اللحم الحي ـ وهو يقول لنفسه في السر: «لسوف يتغلّب الحيوان المعوجّ السيقان على جراحه ويبرأ منها!» ـ في حين يتظاهر بأنه يعرف أين الدم وأين القيح، وأيها رباط العضل وأيها العِرق!.. هذا الفلاح الذي يرقب كل هذا، لا يمكن أن يرتاب في أن بوليكي ما كان ليرفع يده كي يشق اللحم لو أنه لم يكن على دراية بما يفعل، ولا سيما أنه ـ أي الفلاح ـ لا يستطيع أن يقدم على شيء كهذا بنفسه!.. فإذا حُمَّ القضاء، وانتهى الأمر، فإنه لا ينحو باللائمة على نفسه، إذ هو أذن للبيطري بشق لحم جواده دون ما داع إلى شقّه!

ولست أدري رأيك في هذا، غير أنني جربت الأمر ذاته مع طبيب جعل ـ برجاء منّي ـ يعذب أولئك الذين أحبهم!.. أليس المبضع، وزجاجة الدواء النفّاذ، و«يترنَّح.. الاستسقاء.. فصد الدم.. المادة» وما إليها.. أليس لكل هذه الكلمات من الأثر ما لكلمات: «العصاب.. والروماتيزم.. والكائنات الحية»، وما إليها؟.. إنَّ الحكمة المأثورة: «يقدمون على الخطإ وهم يحلمون»، لا تنطبق على الشعراء قدر ما تنطبق على الأطباء والجرّاحين والبيطريين!

3

الاستدعاء

عندما اجتمع أهل الضيعة في العتمة الباردة ـ التي هيمنت ذلك المساء من أمسيات تشرين الأول/ أكتوبر ـ لاختيار المجنَّدين وإعلان أسمائهم، أمام مكتب إدارة الضيعة، كان پوليكي يجلس على حافة فراشه، منهمكاً في طحن دواء للخيل وضعه على المنضدة وراح يمرِّر عليه زجاجة.. أمّا جوهر هذا الدواء، فلم يكن پوليكي نفسه يعرفه!.. كان يتألف من المادة الأكّالة النفّاذة المتبخّرة، والكبريت الخام، وأملاح غلوبر، وبعض أنواع الأعشاب التي كان قد جمعها، إذ خُيِّل إليه فجأة أنها ذات نفع للخيل المصابة بالرياح المحتبَسة، ثم قدّر أنَّها لن تكون غير لازمة للاضطرابات الجسدية الأخرى!

كان أطفاله قد ناموا: اثنان فوق الفرن، واثنان على السرير، وواحد في المهد الذي جلست أكولينا إلى جواره تغزل.. وكانت بقية الشمعة ـ إحدى شموع مالكة الضيعة، لم تلق من الحفظ ما يبعدها عن يد پوليكي ـ تحترق في شمعدان خشبي على حافة النافذة، وأكولينا تنهض إليها ـ من حين إلى آخر ـ فتسوي ذُبالتها بأصابعها، حتى لا يضطر زوجها إلى أن يتوقّف عن عمله المهمّ. وكان بعض المتحرِّرين في الرأي يعتبرون پوليكي بيطرياً غير ذي قيمة، وإنساناً غير ذي شأن. ولكن سواهم ـ وهم الأغلبية الساحقة ـ كانوا يعتبرونه إنساناً غير ذي شأن، غير أنه أستاذ عظيم في فنه.. أما أكولينا فكانت تراه طبيب الخيل الأول، وخير الرجال بلا مراء، برغم أنها كثيراً ما

كانت تقرّعه، بل وتضربه!

ونثر پوليكي بعضاً من مادة خام على كفه، إذ إنه لم يكن يستخدم الموازين قط، وقد اعتاد أن يسخر من الألمان الذين يستخدمونها قائلاً: «ليس هذا من صنعة العقاقير في شيء!».. ووزن پوليكي المادة على راحة يده، فبدا له أن الكمية غير كافية، فأفرغ عشرة أمثالها من جديد، وقال محدِّثاً نفسه: «سأضع هذا القدر كله، ليكون أفضل تأثيراً!».. وأسرعت أكولينا تلتفت عند سماعها صوت زوجها ـ مولاها وسيّدها ـ مترقبة منه أمراً، حتى إذا رأت أن حديثه لم يكن يعنيها، هزّت كتفيها، وجال بخاطرها: «يا للمعرفة!.. تُرى من أين يستقيها؟!». ثم واصلت الغزل. وكان پوليكي قد وضع المادة على ورقة، فإذا الورقة تهوي على الأرض.. ولم يفت ذلك أكولينا، فصاحت: «آني، انتبهي!.. لقد أسقط أبوك شيئاً، فالتقطيه!».

وأبرزت آني ساقيها العاريتين، الصغيرتين، الناحلتين، من تحت المعطف الذي كانت تلتحف به، وانسابت تحت المنضدة كالهريرة الصغيرة، والتقطت الورقة، قائلة: «إليك يا أبتِ!». ثم اندفعت عائدة إلى السرير، وقد أثلج البرد قدميها الصغيرتين. وصاحت أختها الصغيرة بصوت رفيع ناعِس، ونطق ألثغ: «لا تدفعيني!». فتمتمت أكولينا: «لسوف أضربكما!».. وعاد الرأسان يختفيان تحت المعطف!

وقال پوليكي، بعد أن وضع المادة في الزجاجة، وأحكم سدادها: «لسوف يمنحني ثلاثة روبلات. ولسوف أبرئ جواده. ما أزهد الثمن!.. إنه جهد يفلق الدماغ!.. اذهبي يا أكولينا فاطلبي من «نيكيتا» قدراً من التبغ، وسأدفع له الثمن غداً».. وأخرج من جيب سرواله أنبوبة غليون من خشب الليمون ـ كانت مطليّة يوماً ـ وقد انتهت بفوهة من الشمع الأحمر، وشرع يثبتها في قِصعة الغليون.

تركت أكولينا مغزلها وخرجت، وهي تحرص على أن تتفادى كل ما كان في طريقها.. وإن لم تكن هذه بالمهمة الميسورة. وفتح پوليكي الصوان، فوضع فيه الدواء، ورفع إلى فمه زجاجة ڤودكا فإذا هي خالية، وإذ ذاك قطّب حاجبيه.. حتى إذا عادت زوجته، وقد أحضرت التبغ، جلس على حافة السرير، وحشا غليونه وأشعله، ثم أشرقت أساريره رضى واعتزازاً، شأن الرجل الذي أتمَّ عمل يومه.. وسواء أراح يفكِّر في غده ـ وكيف سيمسك بلسان الجواد ويصب دواءه، هذا المزيج القويّ، في حلقه ـ أم راح يتأمل كيف أنَّ أحداً لا يرفض للشخص النافع طلباً ـ «ألم تر بنفسك؟.. ألم يرسل له نيكيتا التبغ؟!» ـ فإن پوليكي شعر بهناءة.

*

فجأة، دُفع الباب ـ الذي كان معلَّقاً على محور واحد ـ ودخلت الركن خادم من.. «فوق»! ولم تكن الوصيفة الثانية، ولا الوصيفة الثالثة، وإنما الخادم الصغيرة التي كانت موكلة بنقل الرسائل. و«فوق» ـ كما يعرف كل إنسان ـ يعني منزل سيدة الضيعة، ولو كان مُقاماً على منخفض من الأرض!

وقد اعتادت أكسيوتكا ـ وهو اسم الخادم ـ أن تدخل في اندفاع، مارقة كأنها رصاصة، دون أن تثني ذراعيها اللتين كانتا تتحرَّكان في اتساق مع سرعتها، وتهتزّان كرقّاص الساعة، لا إلى جانبيها، وإنما أمامها!.. وكانت وجنتاها أشد احمراراً من ثوبها الوردي دائماً، كما كان لسانها يتحرك بسرعة ساقيها. وقد اندفعت إلى الركن، وأمسكت بحافة الفرن، لسبب ما، غير معروف!.. وشرعت تترنَّح إلى أمام وإلى خلف،، ثم أخذت تخاطب أكولينا ـ وهي مقطَّعة الأنفاس ـ دون أن تطلق أكثر من كلمتين أو ثلاثاً في كل مرة، على النحو التالي:

«إنَّ السيدة.. أصدرت أوامرها.. بأن يصعد إليها.. پوليكي فوراً.. أوامرها أن يصعد إليها!».

ثم أمسكت عن الكلام، والتقطت أنفاسها بعناء، وعادت تقول:

«لقد كان إيغور ميخائيلوڤيتش مع السيدة.. وقد تحدّثا عن المجنَّدين.. وذكرا پوليكي.. وقد أمرت أڤدوشيا نيكولايڤنا.. بأن يصعد في التو واللحظة.. هكذا أمرت أڤدوشيا نيكولايڤنا..»، وتنهَّدت مرة أخرى، ثم أتمت عبارتها: «بأن يصعد في هذه اللحظة..!».

وراحت أكسيوتكا تجيل بصرها - لنصف دقيقة - بين پوليكي، وأكولينا، والأطفال الذين كانوا قد أخرجوا رؤوسهم من تحت الأغطية.. ثم التقطت قشرة ثمرة من ثمار البندق - كانت على الفرن - ورمت بها آني الصغيرة. وما لبثت أن ردَّدت: «أن يصعد في هذه اللحظة!..». ثم اندفعت إلى الخارج كالإعصار، ورقّاصا الساعة - الممثّلان في ذراعيها - يتأرجحان كالعادة، بعرض الاتجاه الذي كانت تندفع فيه!

ونهضت أكولينا عن مغزلها مرة ثانية، فأحضرت لزوجها نعليه.. وكانا نعلين رثين من نعال الجنود تخلّلتهما الثقوب.. ثم أخذت سترة زوجها من فوق الفرن، فناولته إياها دون أن تنظر إليه، وقالت: «ألا تبدل قميصك يا پوليكي؟». فأجابها: «لا». ولم تكن أكولينا قد نظرت إلى وجهه مرة، وهو يرتدي حذاءه وسترته. وحسناً كانت تفعل بعدم النظر.. ولقد كان وجه پوليكي - في هذه المرة - شاحباً، وكان فكه الأسفل يختلج، وتبدت في عينيه نظرة دامعة، وادعة، عميقة الأسى.. نظرة لا يراها المرء إلاّ في أعين المساكين، والضعفاء، والمذنبين!

سرّح پوليكي شعره، ثم هم بالخروج، ولكن زوجته استوقفته، ودست في صدره رباط شريطه الذي كان مدلّى تحت سترته،

ووضعت له قلنسوته على رأسه.. ومن خلف الحاجز الخشبي، انبعث صوت زوجة النجّار: «ما هذا يا پوليكي؟.. هل أرسلت السيدة في طلبك؟».. كانت زوجة النجّار قد رفعت صوتها في ذلك الصباح بالذات، جراء شجار مع أكولينا من أجل وعاء الغسيل المصنوع من رماد الفرن، الذي قلبه أولاد پوليكي في ركن النجّار. ومن ثم فقد سُرّت ـ في بداية الأمر ـ إذ سمعت بأن پوليكي قد استُدعي أمام السيدة.. فغالباً ما يكون الاستدعاء لغير خير!

وكانت امرأة ماكرة، ديبلوماسية، ذات لسان لاذع، فما كان أحد ليعرف ـ خيراً منها ـ كيف يشطر امرأً بكلمة.. أو هكذا كانت تتصوّر، على الأقل!.. ثم إنَّها عادت تقول: «أتوقع أن ترسلك السيدة إلى المدينة لشراء حاجيات، فلا أعتقد مهمة كهذه تتطلب سوى مَن هو أهل للثقة، ولهذا فإن السيدة تستدعيك!.. فلعلك تبتاع لي ربع رطل من الشاي ـ من هناك ـ يا پوليكي!».

وكبحت أكولينا دموعها، وقد راحت شفتاها تختلجان معبِّرتين عن غضب. وأحست بأنها تتمنّى لو استطاعت أن تمسك «هذه السليطة اللسان، زوجة النجار، من شعرها الملبّد الجعد!». ولكنّها نسيت زوجة النجار ذات اللسان السليط، إذ نظرت إلى أطفالها وفكّرت في أنهم قد يصبحون دون أب ـ إذا جُنِّد أبوهم ـ كما تصبح هي زوجة جندي، لا تكاد تكون أحسن حالاً من الأرملة في شيء!.. وأخفت وجهها في راحتيها، وجلست على حافة السرير، وأسلمت رأسها إلى الوسائد. فقالت ابنتها اللثغاء، وهي تجذب المعطف ـ الذي كانت تلتحف به ـ من تحت مرفق أمها: «أماه، إنك تسحقينني!». فصاحت أكولينا: «ليتكم تموتون.. جميعاً! لقد أنجبتكم إلى الدنيا لغير ما شيء سوى الحزن!». وأجهشت ببكاء عالٍ، الأمر الذي سَرَّ زوجة النجار التي لم تكن قد نسيت بعد انقلاب وعاء الغسيل في ركنها، في هذا الصباح!

4

إلى المدينة!

مضت نصف ساعة.. وشرع الرضيع في المهد يبكي، فنهضت أكولينا وألقمته ثديها. كانت قد كفت عن البكاء، ولكنها أسلمت وجهها ـ الذي ظل محتفظاً بوسامته رغم نحوله ـ إلى يدها ، وثبّتت بصرها على الومضات الأخيرة للشمعة المحتضرة، وراحت تفكر فيما دفعها إلى الزواج، وتعجب من الأمر الذي يدعو إلى طلب جنود بهذه الكثرة، وتتدبّر كيف تستطيع أن تنتقم من زوجة النجار!

وسمعت وقع قدميّ زوجها، فجفّفت دموعها، ونهضت لتفسح له مكاناً يمر عبره. ودخل پوليكي كما لو كان غازياً مظفَّراً، فطوح بقلنسوته على السرير، وتنهَّد، وفك أزرار سترته.

ـ تُرى ما الذي كانت تريده منك؟

ـ همّم!.. بالطبع! إنَّ پوليكوشكا هو آخر من يخطر بالبال من الرجال.. ولكن، عندما تكون ثمة مهمة تحتاج إلى الأداء، فمَن الذي يرتجى لها؟.. پوليكوشكا، دون شك...

ـ وأية مهمة هي؟

لم يجد پوليكي داعياً إلى التعجيل بالردّ، فأشعل غليونه، وبصق، قبل أن يقول: «أن أذهب فأحضر نقوداً من أحد التجار».

وهتفت أكولينا مستفسرة: «تحضر نقوداً؟!».

فضحك پوليكي ـ بصوت خافت ـ وراح يهز رأسه، ثم قال:

ـ آه!.. أوليست السيدة بارعة في انتقاء الكلمات؟.. قالت: «لقد

كنتَ معتبراً غير أهل للثقة، ولكني أءتمنك أكثر مما أءتمن أي رجل آخر!».

وكان پوليكي يتكلم بصوت مرتفع حتى يسمعه الجيران. واستطرد قائلاً:

ـ قالت: «لقد وعدتني بأن تستقيم، فهاك الدليل الأول على أنني أصدِّقك.. اذهب إلى التاجر، فاستلم منه النقود التي هو مدين لي بها، وأحضرها إليَّ!». فقلت لها: «إننا جميعاً عبيدك يا مولاتي، ومن واجبنا أن نخدمك كما نخدم الله. ولهذا أشعر بأن بوسعي أن أفعل أي شيء لجلالتك، ولست أملك أن أرفض أداء أي عمل.. أيّاً تكن أوامرك أصدع بها، لأنني عبدك!».

وعاد يبتسم لزوجته من جديد، تلك الابتسامة المنطوية على ضعف، واستخذاء، وتلطّف، وشعور بالذنب. ثم استأنف الحديث قائلاً:

ـ قالت: «أحسنت.. إذاً، فسوف تؤدي المهمة بإخلاص؟».. ثم أردفت: «إنك لتعلم أن مصيرك يتوقّف على تأديتها!» فرحت أقول لها: «كيف أعجز عن أن أدرك أن بوسعي أن أنفِّذ أوامرك بحذافيرها؟.. إذا كانوا قد تقوَّلوا عليَّ، فإنَّ كل امرئ يستطيع أن ينسج الأقاويل عن سواه.. ولكني لم أدع يوماً أي فكرة توحي بأن سيادتك تصدّقين مثل هذه الأقاويل.. أو هكذا أعتقد، على الأقل..». وقصارى القول أنني رحت أستميلها في رفق، حتى لانت مولاتي تماماً.. فقالت: «لسوف أحسن الظن بك!».

ولاذ بالصمت دقيقة، ثم عادت الابتسامة ترتسم على شفتيه من جديد، واستأنف كلامه:

ـ إنني أعرف جيّد المعرفة كيف أتحدّث إلى أمثالها!.. وعندما كنت أنطلق لأعمل لحسابي الخاص ـ فيما مضى ـ كان يحدث أن

يقسو شخص من طبقتها عليَّ، ولكني لا أكاد أجتذبه، بكلمة أو اثنتين، حتى أروح أصقله إلى أن يصبح في نعومة الحرير!

ـ وهل المبلغ كبير؟

فأجاب پوليكي في غير اكتراث: «ألف وخمسمائة روبل». فهزّت زوجته رأسها، ثم عادت تسأله: «ومتى أُمرت بأن ترحل؟».

ـ لقد قالت: «في الغد.. خذ أي جواد يروق لك، واذهب إلى إدارة ضيعتي، ثم انطلق في رحلتك.. والله معك!».

فقالت أكولينا، وهي تنهض فترسم علامة الصليب على وجهها وصدرها: «المجد للرب!».. ثم أردفت في همس، حتى لا يُسمع صوتها خلال الحاجز الخشبي: «وليساعدك الله يا پوليكي».. وأمسكت بكم قميصه، وقالت، وهي سادرة في همسها: «أصغ إليَّ يا پوليكي!.. أستحلفك باسم المسيح أن تقبّل الصليب حين تشرع في رحلتك، وعاهده على أن لا تمس قطرة من الخمر شفتيك!».

فقال هازئاً: «أمر ممكن!.. أن أشرب وأنا أحمل كل هذه النقود!.. آه! ما أروع العزف الذي كان يوقّعه شخص ما على البيانو، هناك! رائع!..». وصمت لحظة، ثم ابتسم وقال: «أحسبها السيدة الصغيرة.. كنت أقف هكذا أمام السيدة الكبيرة، بجانب ذلك الذي لا أعلمه، وكانت السيدة الصغيرة تعزف خلف الباب. وظلت تدور وتدق، حتى نسّقت بين الأوتار فانسابت في تناسق بديع!.. آه، واعجبي!.. لكم أتمنى أن أعزف لحناً!.. إنني سرعان ما أحذق العزف، وإني بهذا لجدير! لكم أنا بارع في إجادة مثل هذا الأمر!.. أعطني قميصاً نظيفاً في الغد!».

وأويا إلى فراشهما سعيدين.

5

اجتماع الفلاحين

كان الاجتماع صاخباً، خارج إدارة الضيعة، في تلك الأثناء. فإن المسألة التي كانوا يعالجونها لم تكن سهلة. وكان جميع الفلاحين ـ تقريباً ـ حضوراً. وبينما كان وكيل الأعمال مع السيدة، ظلوا معتمرين قلنسواتهم، وازدادت أصواتهم صخباً وارتفاعاً. وكانت تتخلل اللغط العميق ـ في لحظات نادرة ـ أصوات متهدِّجة، وأصوات متحشرجة، وأصوات ضعيفة، تملأ الجو، وتبدو ـ إذ تنساب خلال نوافذ دار السيدة ـ كهدير البحر ينساب من بعيد، فيثير في السيدة توتراً عصبيّاً كذاك الذي تُحدثه عاصفة مُرعدة ثقيلة الوطأة.. توتراً هو مزيج من الخوف وعدم الارتياح. فقد كانت السيدة تشعر كما لو أن الأصوات كانت توشك أن تزداد ـ في أي لحظة ـ ارتفاعاً فوق ارتفاعها، وسرعة فوق سرعتها، ثم يحدث أمر ما!.. وراحت تقول في نفسها: «كأنما من الصعب أن يجري كل شيء في هدوء وسلام، دون نزاع وصياح، وفقاً لشريعة الحب الأخوي والتواضع المسيحي!».

كانت هناك أصوات عديدة تتكلّم في آن واحد، ولكن صوت «ثيودور ريسون»، النجّار، كان أكثرها ارتفاعاً. فقد كان في أسرته شابان مكتملا النمو، ومن ثمّ فقد أخذ يحمل على آل «دوتلوف». وانبرى الشيخ دوتلوف يدافع عن نفسه، فبرز من بين الحشد الذي كان يقف خلفه ـ في بادئ الأمر ـ وراح يتكلّم مرسلاً نثاراً من لعابه ومخاطه، وهو يبسط ذراعيه حيناً، ويمسك بلحيته الصغيرة حيناً آخر، ويطلق الكلمات بطريقة كان من العسير عليه ـ هو نفسه ـ أن

يفهم معها ما كان يقول. وكان ابناه وابن أخيه ـ وهم الثلاثة من الشبّان الوسماء ـ يقفون خلفه منكمشين، بينما كان الشيخ أشبه بالدجاجة التي تذود الصقر عن فراخها. وكان الصقر هو النجار ريسون.. بل إن ريسون لم يكن يهاجم وحده دوتلوف، وإنّما راح يهاجمه معه جميع الرجال الّذين أُوتي كل منهم في أسرته شابين مكتملي النمو.. والآباء الذين أُوتي كلّ منهم ابناً واحداً، وكل المجتمعين تقريباً!

كانت نقطة الخلاف أن شقيق دوتلوف كان قد جُنّد منذ ثلاثين سنة، ومن ثم فقد رغب دوتلوف في أن تُعفى أسرته من دورها ـ في التَّجنيد ـ بين الأُسر التي أُوتيت كل منها بين أفرادها ثلاثة شبان صالحين للجندية.. وأراد أن تحسب خدمة أخيه في الجيش لصالح أسرته، فتمنح بذلك الفرصة ذاتها التي تمنحها الأُسر التي لا يوجد بين أفرادها غير شابين، ويجري الاقتراع بين هذه الأُسر جميعاً ـ على قدم المساواة ـ ليُختار المجنَّد الثالث من بين شبانها. وكانت ثمة أربع أُسر أخرى ـ إلى جانب أسرة دوتلوف ـ تضم كل منها بين أفرادها ثلاثة شبان. ولكن إحداها كانت أسرة شيخ الضيعة، وقد أعفتها سيدة الضيعة، أمّا الأسرة الثانية فكان أحد أبنائها قد جُنِّد في العام المنصرم.. ومن كل من الأسرتين الباقيتين اختير مجنّد، في هذه المرة.. بل إنَّ أحد هذين المجنَّدين لم يحضر الاجتماع، ولكن زوجته وقفت محزونة خلف الآخرين جميعاً، يساورها أمل مبهم في أن عجلة الحظ قد تتّجه نحوها، بطريقة ما!.. أما «رومان» ذو الشعر الأحمر، والد المجنَّد الآخر، فقد وقف بسترته المهلهلة ـ وإن لم يكن فقيراً ـ ونكس رأسه في صمت، وهو يستند إلى جدار المبنى، لا يكاد يتحرك إلاّ ليرمق باهتمام أي شخص كان يرفع صوته ـ من حين إلى حين ـ ثم يعود إلى تنكيس رأسه من جديد، وكأنما كان كل كيانه

ينضح بالتعاسة!.. وأما الشيخ سمعان دوتلوف، فقد كان رجلاً يستطيع أي إنسان ـ عرف عنه شيئاً ـ أن يأتمنه على مئات وآلاف الروبلات، وهو مطمئن البال. كان رزيناً، تقيّاً، يمكن الركون إليه.. وكان شيخ الكنيسة كذلك. وهذا ما جعل الضجيج الذي أحاط به ـ في هذه المناسبة ـ يبدو أكثر ثارة للدهشة والعجب!

وعلى النقيض منه، كان ريسون النجار، وهو رجل مديد القامة أسمر، فقد كان سكّيراً عربيداً، بارعاً جدّاً في محاجّة العمال والتجار والفلاحين والسادة، ومجادلتهم في الاجتماعات وفي الأسواق. وقد بدا في الاجتماع معتدّاً بنفسه، لاذع السخرية، وراح ـ من علياء طوله ـ يسحق شيخ الكنيسة المتداعي بكل ما لصوته الرنان من قوة، وبكل ما أُوتي من موهبة الخطابة، حتى لقد أهاج شيخ الكنيسة وأخرجه عن وقاره العميق المعهود.

وإلى جانب هؤلاء جميعاً، كان «جيراسكا كوبيلوف» حاضراً، وكان أحد المتكلِّمين باسم جيل الشباب، إذ لم يكن قد تجاوز مرحلة الصبا. وكان مستدير الوجه، مربع الرأس، جعد شعر اللحية، ربعة القوام. وقد حذا حذو ريسون، وانحاز إليه في الجدال. وكان قد اكتسب مكانة وقدراً في اجتماعات الضيعة، إذ امتاز بخطبه القاطعة الباترة.. ثم، كان هناك، «ثيودور ميلنيكني»، وكان هو الآخر شابّاً، طويلاً، نحيلاً، أصفر الوجه، ملتف الكتفين، خفيف اللحية، أحوص ضيق العينين، دائم الحزن والاكتئاب، لا يرى سوى الجانب المظلم من كل شيء.. وكثيراً ما أثار الارتباك في الاجتماعات بما كان يوجهه من أسئلة وملاحظات مفاجئة، محرجة!

وقد انحاز كل من هذين الخطيبين المفوّهين ـ كوبيلوف وميلنيكني ـ إلى النجار ريسون. وكان هناك ـ فضلاً عنهما ـ اثنان من المهذارين الثرثارين، راحا ينضمّان ـ بين حين إلى حين ـ إلى الثلاثة..

وكان أحدهما يدعى «خرابكوف»، وقد أُوتي وجهاً من أكثر الوجوه بشّاً وهشّاً، ولحية بُنيّة مسترسلة، وقد راح يردّد: «آه، يا صديقي الأعز!». أما الآخر، فهو «زيدكوف»، وكان شاباً قميئاً في الجسم، ذا وجه كوجه الطائر، وقد ظل يردّد في كل فرصة: «هكذا الأمر فعلاً يا أخوتي!»، موجِّهاً الحديث إلى كل شخص، ومتكلِّماً في لباقة دافقة، دون أن يلزم جوهر الموضوع إطلاقاً!.. وكان هذان الاثنان قد انحازا ـ في بادئ الأمر ـ إلى أحد الجانبين، ثم عادا فناصرا الفريق الآخر، ولكن أحداً لم يكن ينصت إليهما. وقد كان هناك غيرهما، ممّن على شاكلتهما، ولكن هذين الاثنين، اللّذين ظلا يتنقّلان خلال الحشد، ويرفعان عقيرتيهما بالصياح فوق جميع الأصوات ـ فيثيران الجزع في نفس سيدة القرية ـ كانا أقل الجميع ظفراً بإصغاء الجمع. وإذ انتشيا بالضجيج والصياح، أسلما نفسيهما للذة إطلاق صوتيهما بالجعجعة.

وكان بين أعضاء الاجتماع كثيرون غيرهم، من ذوي الشخصيات الرصينة، المحترمة، وقد وقفوا غير مبالين، أو مستائين. كما كان هناك نسوة وقفن خلف الرجال، وفي أيديهن عصيّ.. على أنني سأتحدث عنهن في مرة أخرى، إن شاء الله. وعلى كل حال، فإن القسم الأكبر من الحشد كان من الفلاحين الذين وقفوا كما لو أنهم كانوا في كنيسة، يتهامسون ـ كل من خلف ظهر الآخر ـ بأحاديث عن شؤونهم المحلّية، أو عن موعد اقتطاع الحطب من الغابة.. أو كانوا ينتظرون ـ في صمت ـ انتهاء الجدال.

كذلك كان هناك فلاحون أثرياء، ما كان لهذا الاجتماع أن يزيد من رفاهيتهم أو ينقص. من هؤلاء كان شيخ القرية «أرميل» ذو الوجه العريض اللامع، الذي كان الفلاحون يطلقون عليه اسم «المكرش» لأنه كان غنيّاً.. ومنهم كذلك كان «ستاروستين» الذي كان وجهه ينم

عن رضًى ذاتي بسلطته ونفوذه، وكأنه يقول: «لكم أن تتكلموا ما شاء لكم الكلام، ولكن أحداً لن يمسّني!.. إنَّ لي أربعة أبناء، ولكن ما من واحد منهم سيضطر إلى الذهاب!»). وكان هذان الاثنان الموسران يتعرّضان - بين حين وآخر - لهجوم من بعض ذوي التفكير المستقل، مثل كوبيلوف أو ريسون، ولكنهما كانا يجيبان في هدوء وحزم،وباطمئنان، إلى مناعتهما.

وإذا كان «دوتلوف» قد شابه الدجاجة التي تذود الصقر عن فراخها، فإنَّ فتيانه لم يكونوا يشبهون الأفراخ في شيء كثير. فهم لم يحوموا حوله ويشقشقوا، وإنما وقفوا خلفه صامتين.. كان ابنه الأكبر «أغنات» قد بلغ الثلاثين من عمره فعلاً، كما أن الثاني «ڤاسيلي» كان رجلاً متزوّجاً. أمّا الثالث - ابن أخيه «إيليشا» - فكان قد تزوّج من عهد قريب.. وكان شابّاً أشقر الشعر، متورّد الوجه، في سترة أنيقة من جلد الغنم، إذ كان من حوذيي عربات البريد.. وقد وقف ينظر إلى الجمع، ويحك - في بعض الأحيان - رأسه، تحت قبعته، وكأنَّ الأمر كله لم يكن يعنيه في شيء، بالرغم من أن الصقور كانت تحوم لكي تنقض عليه هو بالذات!

*

قال أحد الحضور، معرِّضاً بما قاله الشيخ دوتلوف عن تجنيد أخيه: «إذا كان الأمر على ما تقول، فإن جدّي كان جنديّاً، ومن ثم فلي أن أرفض أن أكون بين المقترعين - أنا الآخر - على الأساس ذاته!.. ليس هناك قانون يقر هذا يا صديقي. ففي موسم التجنيد الفائت، أُخذ «ميخيتشيف» بالرغم من أن عمه لم يكن قد عاد من الخدمة بعد!»).

وكان دوتلوف يقول، في الوقت ذاته: «لا أبوك، ولا عمك، قد خدم القيصر يوماً. ولماذا نذهب بعيداً، وأنت نفسك لم تخدم سيدة

الضيعة، ولا الحكومة، وإنما كنت تقضي كل وقتك في الحانة؟!.. لقد انفصل عنك أبناؤك إذ بدا من المستحيل عليهم أن يقيموا معك، ولهذا فأنت تتحمّس لترشيح أبناء الآخرين للتجنيد!.. أما أنا فقد انضويت في خدمة الشرطة عشر سنوات، وخدمت كشيخ للكنيسة. ولقد احترق كل ما كنت أملك مرتين، فلم يمد لي أحد يد العون. فهل يُقضى عليَّ اليوم بالخراب، لأنَّ الأمور تسير في داري بسلام وتقوى؟.. أعيدوا إليَّ شقيقي إذاً! فقد مات في أثناء الخدمة العسكرية، على وجه التأكيد.. احكموا بأمانة، وفقاً لقانون الرب، أيها القوم المسيحيون، ولا تنصتوا إلى هذيان سكّير!».

في الوقت ذاته، كان جيراسكا يقول لدوتلوف: «أفتتخذ من أخيك ذريعة؟.. ولكن أهل القرية لم يرسلوه إلى الجيش، وإنما أرسله سيد الضيعة، بسبب أساليبه الشريرة، ومن ثم فهو ليس بالعذر الذي يعفيك!».

ولم يكن جيراسكا قد أتمَّ حديثه، عندما تقدَّم ثيودور ميلنيكني - الأصفر الوجه - وشرع يقول وهو بادي الاكتئاب: «أجل، هكذا ينبغي القول.. إنَّ السادة يرسلون إلى الجيش بمن يروق لهم، ومن ثم فعلى القوم أن ينفضوا أيديهم. لقد أجمع القوم على فتاك، فإذا لم يرق ذلك لك، فاذهب وسل السيدة، فلعلها تأمرني - أنا الرجل الذي يعول أسرة - بأن أترك أولادي وأذهب!..». ثم أضاف بمرارة: «هاك قانوناً يرضيك!»، ولوّح بيده، ثم عاد إلى مكانه الأول. وإذ ذاك، انتبه رومان ذو الشعر الأحمر - الذي كان ابنه أحد المجندين اللذين تم اختيارهما - فرفع رأسه وغمغم: «هو كذلك!.. هو كذلك!»، وجلس على عتبة الباب في استياء وحزن.

على أنَّ هؤلاء لم يكونوا كل من راحوا يتكلّمون معاً، في وقت واحد، فإلى جانب أولئك الذين كانوا يتحدّثون عن شؤونهم الخاصة

ـ في المؤخرة ـ لم ينس المهذاران أن يؤدّيا دوريهما. فقال زيدكوف ـ الضئيل الجسم ـ يناصر دوتلوف: «وهكذا ينبغي أيها القوم الأوفياء!.. يجب أن يحكم المرء بضمير مسيحي.. أعني أننا يجب أن نحكم كمسيحيين، أيها الأخوة!».. وكان خرابكوف البشوش يقول مردِّداً كلمات جيراسكا كوبيلوف، وهو يجذب سترة دوتلوف المصنوعة من جلد الغنم: «يجب على المرء أن يحكم وفقاً لضميره يا صديقي العزيز.. لقد كانت تلك إرادة السيد، وليس قرار أهل الضيعة الذي أرسل أخاك إلى الجيش!».. وقال آخرون: «هذا صحيح! هكذا حصل!».

وصاح ريسون بدوتلوف: «أيُّ سكير يهرف بما لا يعرف هناك؟.. هل قدمت لي أي شراب؟.. أم تُرى ابنك ـ الذي ينتشلونه من على قارعة الطريق وهو ثمل ـ يجرؤ على لومي على الشراب؟.. يجب أن نتخذ قرارنا أيّها الأصدقاء! إذا أردتم أن تعفوا آل دوتلوف فاختاروا مجنَّداً.. لا من بين الأُسر ذات الرجلين فحسب، بل ومن بين الأسرات التي لم تؤت كل منها سوى ابن واحد.. ودعوا الرجل يضحك منّا!».

ـ لا بدَّ لواحد من أبناء دوتلوف أن يذهب! ففيم إطالة الكلام وإضاعة الوقت؟

وشرعت أصوات شتى تقول: «من الطبيعي أن تكون الأسرات ذات الأبناء الثلاثة هي الأولى في الاقتراع!».

فصاح صوت: «لا بد لنا من أن نرى أولاً ما سوف تقوله السيدة. لقد كان إيغور ميخائيلوڤيتش يقول إنهم كانوا راغبين في إرسال أحد عبيد البيت!».

وأوقفت هذه العبارة الجدال برهة، ولكن سرعان ما تأجج من جديد، وتحوّل ـ مرة أخرى ـ إلى المسائل الشخصية. فإن أغنات ـ

الذي رماه ريسون بأن الناس ينتشلونه من على قارعة الطريق ثملاً ـ شرع يرمي ريسون بأنه سرق منشاراً من جماعة من النجّارين الرحّل، وأنه كان يضرب زوجته ـ حين يثمل ـ حتى ليكاد يجهز عليها!.. فردّ عليه ريسون بأنه يضرب زوجته حقّاً، ويضربها وهو في كامل وعيه، دون أن ترعوي.. فأضحك قوله كل الجمع. ولكنه استنكر في إباء مفاجئ مسألة المنشار، ودنا من أغنات وسأله: «مَن الذي سرق؟..». فأجاب أغنات ـ المتين البنية ـ وهو يدنو منه بدوره: «أنت!».

وصاح ريسون: «مَن الذي سرق؟.. ألم تكن أنت السارق؟». فأجاب أغنات: «لا.. بل أنت!».. ومن المنشار انتقلا إلى سرقة جواد، وكيس من الشوفان، وخضر قطعت من حديقة أحد المنازل. بل إنهما تبادلا الاتهام بشأن جثة ميت معيَّن. وقال كل من الفلاحين عن الآخر أشياء رهيبة، لو صح واحد من مائة منها، لكانا يستحقان النفي إلى سيبيريا ـ على الأقل ـ بحكم القانون.

وكان دوتلوف ـ في تلك الأثناء ـ قد اختار وسيلة أخرى للدفاع عن نفسه، فإنه لم يرض عن صراخ ابنه، فحاول أن يوقفه قائلاً: «إنها خطيئة!.. كفّ عن هذا! إنني آمرك!». وفي الوقت ذاته، راح يقول إن الذي أوتي ثلاثة شبان يقيمون معه ليس وحده رب أسرة ذات ثلاثة أبناء، وإنما ينطبق الوصف كذلك على من له ثلاثة أبناء يعيشون منفصلين عنه. وأشار بذلك إلى ستاروستين. فابتسم ستاروستين، وصقل حلقه، وأخذ يسوي لحيته، كما يفعل الفلاح الذي أوتي بسطة في الرزق، وأجاب بأن الأمر كله يتوقف على سيدة الضيعة، وأن من الواضح أن أبناءه كانوا موضع تقدير، إذ إن الأمر صدر بإعفائهم.. وحطم جيراسكا حجج دوتلوف بشأن الأسرات التي انفصلت، بأن قال إنه لم يكن ينبغي لها أن تنقسم ـ إذ كانت هذه هي

القاعدة التي سادت خلال حياة سيد الضيعة المتوفّى ـ وأنه ليس للمرء أن يبكي على حليب أُريق، فقد تم الانقسام فعلاً، وأصبح كل ابن ربّاً لأسرة مستقلّة، ولا سبيل إلى تجنيد الرجل الأوحد في هذه الأسرة.

وانطلقت أصوات الرجال الذين انقسمت أسراتهم، وقد انضم إليهم المهذاران: «أتراهم انفصلوا عن أهلهم حبّاً في اللهو؟.. لماذا يُقضى عليهم الآن بالخراب المحتّم؟».. وقال ريسون لدوتلوف: «يحسن بك أن تبتاع بديلاً إذا لم يرضك هذا، وفي وسعك أن تفعل!». فشد دوتلوف أطراف سترته حوله، في حركة يائسة، وتقهقر وراء الآخرين، وهو يدمدم مغضباً: «يبدو أنك تعدُّ عليَّ نقودي!.. لسوف نرى ما يقوله إيغور ميخائيلوڤيتش عندما يعود من عند السيدة!».

6

حكم القانون

وفي تلك اللحظة بالذات، برز إيغور ميخائيلوڤيتش من البيت، فإذا القلانِس ترتفع واحدة بعد أخرى، في أثناء اقتراب وكيل الأعمال، حتى تعرّت جميع الرؤوس من شيباء، وسوداء تتخلّلها بواكير الشيب، وحمراء، وبنية، وصفراء، وجلحاء من أمام، أو صلعاء في أم ناصيتها!.. وأخذت الأصوات تخفت تدريجاً، حتى ران الصمت في النهاية، وسيطر السكون. وخطا إيغور ميخائيلوڤيتش إلى عتبة الباب، وقد بدا أنه كان ينوي الكلام.. ووقف بسترته الطويلة، وقد دس يديه في جيبيه الأماميين إخفاء لحرجه، وجذب على جبينه قلنسوته المصنوعة في المدينة.. وقف ثابتاً، وقد باعد بين ساقيه، على العتبة المرتفعة، فبدا كأنه كان يطل من علٍ على تلك الرؤوس، وعلى الوجوه التي تطلّعت إليه، ومعظمها مسنّ، ملتحٍ، مليح.. وكان في وقفته هذه رجلاً غير ذاك الذي كان حين وقف أمام مولاته.. كان متعالياً، ذا سطوة!.. وما لبث أن قال:

ـ إليكم قرار السيدة يا رجال!.. ليس ممّا يسرها أن تقدّم أحداً من رقيق الدار، وإنما الذين سيذهبون منكم هم الذين تقرّرون بأنفسكم اختيارهم. إن المطلوبين ـ في هذه المرة ـ ثلاثة، والواجب أن يكونوا اثنين ونصف رجل، ولكن النصف الآخر سيُراعى حسابه في المرة المقبلة، فالأمر سيان، وإذا لم يذهب اليوم، فلا بد له من الذهاب في الصباح الباكر!

فهتف بعض أصوات: «طبعاً، هذا صحيح!». بينما استطرد إيغور ميخائيلوڤيتش: «في رأيي أن لا بد لـ«خاريوشكين» و«ڤاسكا» ميتيوخين من الذهاب.. فهذه إرادة الله، كما يبدو!».. وردّدت

الأصوات: «أجل.. هذا صحيح!». وظل هو ماضياً في الحديث: «.. أما الثالث فلا بد أن يكون من آل دوتلوف، أو واحداً من الأسرات ذات الرجلين.. فما قولكم؟».

وصاحت الأصوات: «دوتلوف!.. إنَّ في الأسرة ثلاثة من الشبان، في سن التَّجنيد!».. ومن جديد، عاد الصياح يعلو شيئاً فشيئاً، وانبعث حديث خضر الحديقة وبعض الأكياس التي سُرقت من ساحة السيدة مرة أخرى، بطريقة ما. وكان إيغور ميخائيلوفيتش قد أمضى في إدارة الضيعة الأعوام العشرين الأخيرة، فكان أريباً، خبيراً. ومن ثم فقد ظل واقفاً يصغي زهاء ربع ساعة، ثم أمر الجميع بالصمت، وأمر شبان أسرة دوتلوف الثلاثة بأن يقترعوا على من يذهب منهم. وأُعدَّت أوراق الاقتراع، وخلطت داخل إحدى القلانِس، ثم سحب «خرابكوف» إحداها، فإذا بها ورقة «إيليشا».

وران الصمت على الجميع. وقال إيليشا في صوت مرتعش: «أهي ورقتي؟.. دعني أراها!» فظل الجميع صامتين، بينما أمر إيغور ميخائيلوفيتش أن يُحضر كل شخص نقود التجنيد في اليوم التالي - سبعة كوبكات من كل دار - ثم أضاف أن الأمر قد انتهى، وفض الاجتماع. وتحرّك الحشد للانصراف، وأخذت أصواتهم ووقع أقدامهم تخفت رويداً رويداً، حتى أصبحت كطنين يسري من بعيد. ومكث وكيل الأعمال واقفاً يرقب انصراف الجمع، حتى إذا غاب أبناء دوتلوف الثلاثة، في منعرج الطريق، أشار إلى الشيخ دوتلوف، الذي كان قد وقف من تلقاء نفسه، ثم دخلا غرفة المكتب معاً.

قال إيغور ميخائيلوفيتش، وهو يجلس في مقعد وثير أمام المكتب: «إنني آسف من أجلك أيها الشيخ. على أن الدور كان دورك. فهل ستدفع لمجنَّد يحل محل ابن أخيك أو لا؟».

ـ لكم يسرنا أن ندفع لبديل يا إيغور ميخائيلوفيتش، لولا أنَّنا لا نملك إلى الدفع سبيلاً. لقد آل جوادان ـ في هذا الصيف ـ إلى تاجر

الجياد التي لم يعُد لها نفع، ثم.. كان هناك زواج ابن أخي.. إنه قدر مكتوب علينا، كما ترى.. جزاء أننا نعيش بأمانة وشرف. إنَّ له حقّاً في أن يتكلّم كيف يشاء! (وكان يفكر إذ ذاك في النجّار ريسون).

ومسح إيغور ميخائيلوڤيتش وجهه بيده وتثاءب. كانت المهمة قد أتعبته وأسقمته ـ كما ظهر ـ وكان توّاقاً إلى أن يتناول الشاي. فقال: «آه، يا صديقي الكهل، لا تكن بخيلاً!.. ابحث في أرض دارك، فإني لموقن من أنك ستخرج من تحتها زهاء أربعمائة ورقة قديمة من فئة الروبل، وسأبحث لك عن بديل.. واحد ممّن اعتادوا التطوّع!.. لقد جاءني شاب منذ أيام يعرض نفسه!».

وتساءل الشيخ دوتلوف: «في الحكومة؟».. وكان يقصد «في المدينة».

ـ حسن، هل ستدفع له؟

ـ لكم كان يسرني، والله على ما أقول شهيد، ولكن...

فقاطعه إيغور ميخائيلوڤيتش بلهجة حازمة: «آه، إذاً فاسمع أيها الشيخ!.. حذار من أن يلحق إيليشا بنفسه أذىً، ولا بد من أخذه إلى المدينة فوراً.. بمجرد أن أخطركم بذلك، إن اليوم أو غداً. لسوف تصحبه أنت، وستكون مسؤولاً عنه، ولو أن شيئاً حدث له ـ لا قدَّر الله! ـ فسأبعث بابنك الأكبر بدلاً منه! هل تسمعني؟».

ـ ولكن، أما من سبيل إلى إرسال واحد من أسرة ذات رجلين؟.. إن هذا ليس من الإنصاف في شيء يا إيغور ميخائيلوڤيتش!

وصمت لحظة، ثم عاد يقول، والدمع يكاد يطفر من عينيه: «لقد مات أخي في الجندية، وها هم أولاء يأخذون ابني!.. كيف أستحق مثل هذه البليّة؟».. وأوشك أن يهوي جاثياً على ركبتيه، فقال إيغور ميخائيلوڤيتش: «لا بأس، لا بأس.. انصرف! لا سبيل إلى عمل شيء، فهذا حكم القانون!.. راقب إيليشا، فسوف تكون مسؤولاً عنه!».

وعاد دوتلوف إلى داره، وهو يدق الأرض بعصاه المصنوعة من خشب الزيزفون، في أثناء سيره!

7

الطبل

في ساعة مبكرة من الصباح، وقف عند عتبة أركان رقيق البيت، جواد مفلطح العظام، مخصيّ ـ كان يُدعى «الطبل» لأمر ما ـ شُدَّ إلى عربة صغيرة، اعتاد وكيل الأعمال أن يستقلها بنفسه أحياناً.. وبالرغم من أن السماء كانت تمطر بَرَداً، والريح باردة قارسة، فإن آني ـ ابنة پوليكي الكبرى ـ وقفت حافية القدمين عند رأس الحصان، ممسكة عنانه على قيد ذراع، بينما أمسكت باليد الأخرى سترة خضراء مصفرة حائل لونها، كانت ملقاة على رأسها، وكانت تستخدم كغطاء فراش للأسرة، ومعطف، وغطاء للرأس، وبساط، ومعطف لپوليكي، وأداة لعدة أغراض أخرى إلى جانب ذلك كلّه. وكان ركن پوليكي يضج بالحركة، والضوء الواهن ـ لذلك النهار المطير ـ قد بدأ يتسرب خلال النافذة التي كان زجاجها مهشَّماً ـ هنا وهناك ـ وقد سُدّت الثغرات بالورق.

تركت أكولينا الطعام الذي كانت تطهوه في الفرن، كما تركت أطفالها ـ الذين كان أصغرهم في الفراش ـ يرتجفون، لأن السترة التي كانت بمثابة غطاء لهم، في نومهم، أُخذت منهم ولم تستبدل بغير الشال الذي اعتادت أمهم أن تضعه على رأسها. وانهمكت أكولينا في مساعدة زوجها على التأهب لرحلته.. كان قميصه نظيفاً، ولكن نعليه ـ اللذين كانت أصابعه تبرز منهما تنشد قوتاً، كما يقول المثل ـ كبّداها كثيراً من العناء. فقد نزعت جوربيها الصوفيَّين الثقيلين ـ جوربيها الوحيدين ـ وأعطتهما لزوجها، واقتطعت بمهارة زوجاً من

النعال الداخلية، من كساء سرج كان ملقىً في حظيرة الخيل مهملاً ـ وقد أحضره پوليكي إلى ركنه قبل ذلك بيومين ـ حتى تسدّ ما كان في النعلين من ثقوب، وتصون قدميه من الرطوبة.

وجلس پوليكي على السرير بكل ثقل جسمه وقدميه، وراح يسوي حزامه حتى لا يبدو كحبل قذر. وكانت الابنة الصغرى اللثغاء، الحولاء البصر، قد التفّت في جلد الغنم ـ الذي غطّى رأسها واسترسل فراحت تجرجره على الأرض ـ وأوفدت لتسأل نيكيتا أن يعير أباها قلنسوة. وضاعف الحركة في الركن مقدم رقيق الدار ليسألوا پوليكي أن يأتيهم بمختلف الأشياء من المدينة. فطلب واحد إبراً للحياكة، وطلب آخر شاياً، وثالث تبغاً، وغيرهم زيت زيتون. وكانت زوجة النجّار قد وجدت وقتاً لتذكي النار تحت غلاية الماء، وتعد قدحاً مليئاً بسائلٍ أسمته شاياً، قدَّمته إلى پوليكي استرضاء له، لتسأله أن يحضر لها قداً من السكر.

ومع أنَّ نيكيتا رفض أن يعيره قلنسوته، فاضطروا إلى ترتيق قلنسوة پوليكي، وذلك بردّ الوبر الذي حُشيت به ـ والذي برز من جوفها ـ وحياكتها بإبرة من إبر جراحة الخيل.. ومع أن النعلين أبيا ـ في بادئ الأمر ـ أن يتّسعا لقدمي پوليكي، بعد أن زج فيهما بالنعلين المصنوعين من كساء السرج.. ومع أن آني كادت تُفلت عنان «الطبل» وقد أُثِلجت أطرافها، وكان لا بد لـ«ماري» أن تحل محلها وهي ملتفة بجلد الغنم، ثم اضطرت ماري أن تخلع عنها جلد الغنم لكي تلتف به أكولينا وتحل محلها لتمسك بالجواد.. بالرغم من كل هذا، فقد انتهى الأمر بأن وفق پوليكي إلى أن يكسو جسمه بكل ما لدى الأسرة من ثياب للتدفئة، فلم يخلّف وراءه سوى السترة وزوجاً من النعال المكشوفة!

وإذ قد استكمل استعداده، صعد إلى العربة الصغيرة، وأحكم جلد

الغنم حول جسمه، وهزَّ كيس التبن المعلّق أسفل العربة، ثم عاد فلفَّ نفسه جيّداً، وأمسك بعنان الجواد، وشد أطراف المعطف حوله من جديد، كما يفعل ذوو الشأن والمكانة، وشرع في رحلته.. وأقبل ابنه الصغير ميشكا على درجات السلم مهرعاً، وتوسّل إليه أن يدعه يركب قليلاً، كما ألحّت عليه ماري اللثغاء أن يسمح لها بأن يدعها «تلكب» ـ أي تركب ـ قائلة إنها لا «تشعل ببلد (أي تشعر ببرد) ولو أنها بدون جلد الغنم». فبادر پوليكي إلى استيقاف «الطبل»، وابتسم ابتسامته الواهنة، بينما كانت أكولينا ترفع الطفلين إلى داخل العربة. ومالت نحوه فتوسَّلت إليه همساً أن يتذكّر عهده، فلا يتناول أي خمر في رحلته. وجاس پوليكي بالطفلين خلال الضيعة حتى حانوت الحداد، ثم أنزلهما، ولف جسمه جيّداً، وسوّى من وضع قلنسوته، وساق الجواد في خبب رزين متّزن، وخداه يختلجان مع كل هزّة، وقدماه ترتطمان بجانبي العربة الخشبيّين. واندفعت ماري وميشكا حافيين، يهبطان التل الزلق إلى البيت، وهما يصرخان عالياً، حتى إنَّ كلباً مشرداً من كلاب الضيعة حدق إليهما، ثم سابقهما إلى البيت وذيله بين ساقيه، ما جعل ابني پوليكي يرفعان صراخهما قدر ما كان عشر مرات.

*

كان الجو مقيتاً لا يُطاق، فالريح لاسعة، تتأرجح بين المطر والصقيع، وبين آن وآخر كان البَرَد يرتطم بوجه پوليكي وبيديه العاريتين اللتين كانتا ممسكتين بعنان الجواد ـ واللتين لم ينفك يجذب كمّي معطفه ليغطيهما ـ وبجلد نير الجواد، وبرأس «الطبل» المسنّ، الذي ردّ أذنيه إلى الخلف، وأغمض عينيه نصف إغماضة!

ثم كفَّ المطر فجأة، وأشرق الكون في لحظات، وانقشعت السُحب الجليدية ذات اللون الضارب إلى الزرقة، وشرعت الشمس

تشق طريقها لتبزغ، ولكن.. في إحجام ودون ما ابتهاج، كابتسامة بوليكي!.. ومع ذلك، فإن بوليكي كان مغرقاً في أفكار بهيجة.. فها هوذا - هو الذي كان مهدّداً بالنفي والتجنيد، والذي لم يكن يعنُف به ويضربه سوى أولئك الذين يشتد بهم الكسل، والذي كان يزج به دائماً في أسوإ الأماكن - ها هو ذا ينطلق بالعربة ليحصِّل مبلغاً من المال - بل مبلغاً كبيراً - وقد ائتمنته مولاته.. ها هوذا ينطلق في عربة وكيل الأعمال، يجرها «الطبل» الذي كانت السيدة نفسها تستخدمه في جر عربتها.. وكأنه مالك من ملاّك الأرض، يسرج جواده بنير وأعنّة من الجلد بدلاً من الحبال!.. واعتدل بوليكي في جلسته، ودس الحشو الذي تدلى من قلنسوته، وعاد يحكم لفَّ معطفه حول جسده!

على أنَّ بوليكي إذا كان قد وهم أنه بدا في مظهر الفلاح المثري صاحب الأملاك، فإنما كان يخدع نفسه ويخونها. فمن الحقيقي - كما يعرف كل امرئ - أن تجاراً يمتلكون عشرة آلاف روبل، يرحلون في عربات تجرّها جياد ذات سروج جلدية، إلاّ أنَّ هذا لم يكن كل شيء.. ولقد يمر بك رجل ذو لحية، وقد ارتدى معطفاً أزرق أو أسود، وجلس وحيداً في عربة يجرّها حصان جيّد التغذية، فلا تُلقي إليه نظرة إلاّ لترى ما إذا كان ناعم البشرة، وما إذا كان الرجل جيد التغذية، ولتتبيَّن الطريقة التي يجلس بها، وسرج جواده، وإطارات عجلات عربته، وعباءته، فتعرف لفورك ما إذا كان الرجل يتّجر حقّاً في مئات الروبلات أو في آلاف!.. وكان أي شخص خبير مجرِّب يتاح له أن ينظر عن كثب إلى بوليكي، ويديه، ووجهه، ولحيته الحديثة المنبت، وعباءته، والتبن الذي وضع في العربة بإهمال، و«الطبل» النحيل، والإطارات البالية حول العجلات.. كان أي شخص ذي تجربة وحنكة يرى ذلك، خليقاً بأن يدرك أنه ليس سوى عبد وليس تاجراً، ولا وسيطاً يتسوق صفقات الماشية، بل ولا فلاحاً

يملك أرضاً.. وأنه لا يتعامل بآلاف ولا بمئات ـ بل ولا بعشرات ـ الروبلات!

ولكن پوليكي لم يكن يفكر على هذا النمط.. فقد آثر أن يغرّر بنفسه، وأن يغرر بها مختاراً، راضياً.. إنه لن يلبث أن يعود حاملاً ألفاً وخمسمائة روبل في صدر معطفه.. ولو شاء فإن بوسعه أن يولّي وجه «الطبل» صوب أوديسا، بدلاً من أن يوجّهه شطر ضيعته، وأن يسوقه إلى حيث يشاء القدر والمصير. ولكن پوليكي لن يفعل شيئاً من هذا القبيل، بل إنه سيحمل النقود كلها إلى السيدة، كما يفترض به، وسيحدثها بأنه حمل يوماً مبالغ تفوق هذا المبلغ قيمة!

*

عندما بلغا حانة ـ في الطريق إلى المدينة ـ شرع «الطبل» يجذب العنان الأيسر، مولياً صوب الفندق، ثم توقّف. وكانت مع پوليكي النقود التي أُعطيت له كي يشتري بها ما سُئل أن يشتريه، ولكنه ـ رغم ذلك ـ ساط «الطبل»، واضطره إلى أن يواصل المسير. وتكرّر الأمر ذاته عند الحانة التالية، حتى بلغا المدينة ـ حوالى الظهر ـ فتوقّفا أمام حانة. وهبط پوليكي من العربة، في هذه المرة، وفتح باب فناء دار صاحب الحانة ـ حيث اعتاد كل أتباع مولاته أن ينزلوا ـ وقاد الجواد والعربة إلى الفناء. وهناك، فكّ قيود «الطبل» ورفع عنه النير، وقدم له بعض التّبن، ثم تناول غداءه مع أتباع صاحب الحانة، دون أن يغفل ذكر المهمة الخطيرة التي جاء من أجلها.. وما لبث أن انطلق ليبحث عن التاجر الذي كان يشتري منتجات بستان السيدة، ومعه قائمة الحساب في ثنايا مقدّم قلنسوته!

كان التاجر يعرف پوليكي، وقد بدا بوضوح مرتاباً في أمره. فلمّا قرأ الخطاب، راح يسأله ليستوثق من أنه كان أُوفد فعلاً لتحصيل النقود. وحاول پوليكي أن يُبدي استياءه، وكأن الأسئلة قد جرحت

شعوره، ولكنه لم يستطع أن يجيد الاستياء، ولم يملك سوى أن يبتسم ابتسامته المعهودة. وعاد التاجر يقرأ الخطاب من جديد، ثم أسلمه النقود.

وما إن تسلّم پوليكي المبلغ حتى دسّه في صدر معطفه، وعاد إلى الفناء، فلم يستهوه المشرب ولا الحانة ولا أي شيء.. كان يشعر بانفعال مستحب يسري في كل كيانه، وقد توقف أكثر من مرة أمام الحوانيت التي كانت تعرض سلعاً مغرية ـ من أحذية، ومعاطف، وقلانس، وأقمشة، ومواد غذائية ـ ثم كان يمضي في سبيله، وفي نفسه شعور ممتع، وكأنه يقول لنفسه: «بوسعي أن أبتاع كل هذا، ولكن.. ولكني ـ مع ذلك ـ لن أفعل»! وذهب إلى السوق لشراء الأشياء التي كُلِّف بشرائها، فحصل عليها جميعاً، ثم شرع يساوم على معطف مبطن بفراء الغنم، سُئل أن يدفع خمسة وعشرين روبلاً ثمناً له. ولأمر ما، لاح على البائع ـ بعد أن تأمل پوليكي ـ أنه يرتاب في مقدرته على شراء المعطف. بيد أن پوليكي أشار إلى صدره، قائلاً إن بوسعه أن يشتري الحانوت كله، لو أنه شاء. وأصرّ على أن يرتدي المعطف للتجربة وراح يتحسَّسه، ويلمس قماشه، وينفخ الصوف ليباعد بين شعيراته ويتأمل النسيج، حتى فغم أنفه برائحته.. ثم خلعه عنه وتنهّد، وقال: «إنَّ السعر لا يلائمني، فهلاّ بعته بخمسة عشر روبلاً؟». فطوّح البائع بالمعطف عبر نضد الحانوت وهو مغيظ، بينما خرج پوليكي مبتهجاً، وسار إلى الخان الذي نزل فيه.

وبعد العشاء روّى «الطبل» وقدّم له قدراً من الشوفان، ثم اعتلى المدفأة، وأخرج المظروف الذي يحتوي النقود، ففحصه طويلاً، ثم سأل حمّالاً كان يعرف القراءة، أن يقرأ عليه العنوان وما خُطّ تحته، فإذا به: طيّه ألف وستمائة وسبعة عشر من الروبلات المحوّلة»(*).

(*) الروبل المحول عملة ورقية تعادل سبعي الروبل الفضي في القيمة. فكأنَّ المبلغ كله ٤٦٢ روبلاً. وهو ما كان ذكره إيغور ميخائيلوفيتش لمولاته في نهاية الفصل الأول.

وكان المظروف مصنوعاً من الورق العادي، ومختوماً بشمع بنّي صلب ـ نقش عليه رسم مرساة ـ في خمسة مواقع.. خاتم كبير في الوسط، وأربعة في الأركان. كما كانت ثمة نقاط من الشمع بقرب الحافة. ولقد فحص پوليكي كل هذا وتأمله وطبعه في ذاكرته.. بل إنه تحسَّس حواف الأوراق المالية المرهفة، التي كانت بداخله. وداخله شعور صبياني بالسرور وهو يرى أنه يمسك بين يديه بمبلغ كبير كهذا. ثم دسَّ المظروف في ثغرة بين ثنايا قلنسوته، ورقد والقلنسوة تحت رأسه.. ولكنه لم يطمئن ـ مع ذلك ـ فظل يستيقظ خلال الليل ليتحسَّس المظروف. وكان ـ في كل مرة ـ يجده في مكانه، فيخالجه شعور ممتع بالرضى.. فها هوذا پوليكي الملوّث السمعة، المستضعف، المهين.. ها هوذا يحمل مبلغاً كهذا، ليسلّمه إلى مولاته بعناية دونها عناية أي امرئ آخر.. حتى وكيل أعمالها نفسه!

8

هياج إيليشا

استيقظ خدم صاحب الخان حوالى منتصف الليل على طرقات على الباب الخارجي، وصياح صادر من فلاحين. وإذا بفريق المجنَّدين من بوكروفسك قد وصل.. كان ثمة عشرة أفراد تقريباً: خوريوشكين، وميتيوكين، وإيليشا (ابن أخي دوتلوف)، وبديلان رافقا الفريق عسى أن تدعو الحاجة إليهما، وشيخ القرية، ودوتلوف الكهل، والرجال الذين ساقوا العربات التي أقلّتهم. وكان في الحجرة ضوء ساهر، وقد رقدت الطاهية على أريكة خشبية تحت الأيقونات، فقفزت ناهضة، وبادرت إلى إشعال شمعة.. كذلك استيقظ پوليكي، وأطل من أعلى المدفأة، فنظر إلى الفلاحين في أثناء ولوجهم المكان.

دخلوا وهم يرسمون علامة الصليب على صدورهم، وجلسوا على المقاعد الخشبية المرصوصة بحذاء جدران الحجرة. وكانوا جميعاً يبدون في أكمل هدوء وسكينة، حتى ليعجز المرء عن أن يحدس أيهم المجنّدون، وأيهم الذين كانوا يرافقونهم. وأخذوا يحيون أهل الخان، ويتحدثون بأصوات عالية، ويطلبون طعاماً.. وصحيح أن بعضهم كانوا صامتين، واجمين، محزونين، إلاّ أن بعضاً آخر كانوا على النقيض، في مرح غير اعتيادي.. كان من الجليّ أنهم سكارى. وقد كان بين هؤلاء إيليشا، الذي لم يسرف يوماً في الشراب من قبل.

وسأل شيخ القرية: «وبعد، يا أولاد.. هل ننام أو نتناول عشاء؟».. فقال «إيليشا» وهو يفتح صدر معطفه، ويجلس على مقعد خشبي:

«عشـاء!.. واطلبـوا لنـا بعض الڤـودكـا!». فقـال شيـخ القـريـة في اقتضاب: «كفاك ڤودكا!». والتفت إلى الآخرين وقال: «ليقتطع كل منكم لنفسه لقمة من الخبز يا أولاد!.. لماذا نوقظ القوم؟». فعاد إيليشا يصيح، دون أن ينظر إلى أحد، وبصوت نم عن أنه لن يسكت: «آتوني بڤودكا!».

وأخذ الفلاحون بنصيحة شيخ القرية، فأحضروا خبزاً من العربات التي أقلّتهم، وطلبوا قليلاً من الجعة، ثم استلقوا.. بعضهم على الأرض، وبعضهم على المدفأة. وظل إيليشا يردّد بين فترة وأخرى: «دعوني أصب بعض الڤودكا. أتسمعون؟.. أريد بعض الڤودكا!». ثم فطن إلى پوليكي، فصاح: «پوليكي! ها، پوليكي!.. أأنت هنا أيها الصديق العزيز؟.. ألا تعلم أنّني ذاهب لأصير جنديّاً؟.. ودّعت أمي وزوجتي.. آه كم راحت تعول وتجهش بالبكاء!.. لقد حزموني حزماً وأرسلوني كالطرد لأصبح جنديّاً.. اطلب لي بعض الڤودكا!». فأجابه پوليكي: «لست أملك أي نقود!». وأخذ يواسيه، ثم أضاف: «مَن يدري؟.. لعلهم يرفضون تجنيدك بعون الله!».

ـ لا يا صديقي، فأنا متين البنية كالشجرة الصلبة.. لم أصب أبداً بمرض. لا سبيل إلى رفضي!.. أي جندي يرجوه القيصر خيراً مني؟

وأخذ پوليكي يروي له كيف أنَّ فلاحاً أعطى طبيباً ورقة مالية من ذات الروبلات الخمسة، ففاز بالإعفاء من الجندية.. واقترب إيليشا من المدفأة، وشرعا يتكلّمان بمزيد من الحرية. فقال إيليشا: «لا يا پوليكي، لقد انتهى الأمر! لم أعد أنا نفسي راغباً في البقاء، فقد استغنى عمّي عني، وكأنه لا يملك أن يدفع لبديل يحلّ محلّي!... لا، لقد ضنَّ بابنه، وضنَّ بالمال، ومن ثم فقد أرسلوني. لا!.. أنا نفسي لا أريد البقاء!». وكان يتكلّم بصوت خفيض ـ تحت تأثير أساه الهادئ ـ وكأنه يبث پوليكي سره.. واستطرد يقول: ولكني آسي على

شيء واحد.. آسي على أمي، تلك الحبيبة!.. لشد ما كان حزنها شديداً! والزوجة كذلك!.. لقد قضوا على المرأتين بالخراب، لغير جدوى!.. لسوف تهلك امرأتي.. أو - بمعنى آخر - ستصبح زوجة جندي، وكفى!.. كان خيراً لو أنني لم أتزوج! فلماذا زوّجوني؟.. إنهم آتون إلى هنا غداً!».

وسأله پوليكي: «ولكن! لماذا أحضروكم بهذه السرعة؟.. إنَّ أحداً لم يسمع بالأمر كله، ثم إذا بهم فجأة..». فأجاب إيليشا مبتسماً: «تصوَّر أنهم يخشون أن أُحدث بنفسي أذًى. لا داعي إلى الخوف، فلن أُحدث بنفسي شيئاً من هذا القبيل.. كل ما هنالك أنني آسف من أجل أمي..». ثم أردف في هدوء وأسى: «ما الذي حملهم على أن يزوّجوني؟».

وفُتح الباب إذ ذاك، ثم أُغلق بصوت مدوٍّ، ودخل الشيخ دوتلوف وهو ينفض البلل عن قلنسوته، وقد غيَّب قدميه في حذاءين من لحاء الخشب مفرطي الكبر - كعادته - فكأنهما قاربان حول قدميه!.. وقال لخادم الخان وهو يمر به: «أليس هناك مصباح، يا أڤاناسي، لأُحضر على ضوئه بعض الشوفان؟». وشرع يشعل - في بطء - بقية من شمعة، دون أن ينظر إلى إيليشا، وقد بدا قفازاه وسوطه مدسوسة تحت حزامه الذي شُدَّ بإحكام وعناية حول معطفه. ولاح وجهه - الذي أضناه الجهد والنصب - مألوفاً، ساذجاً، وادعاً، مليئاً بهموم العمل، وكأنه وصل لتوّه مصطحباً قافلة من العربات المحمَّلة!

*

وصمت إيليشا عندما رأى عمه، وعاد يطرق، متأمِّلاً مقعده الخشبي في عبوس. ثم تمتم مخاطباً شيخ القرية: «ڤودكا، يا أرميل!.. أُريد بعض الشراب!».. وبدا صوته حانقاً، ساخطاً. فأجابه الشيخ الذي كان يأكل شيئاً من وعاء أمامه: «شراب، أفي مثل هذا

الوقت؟ ألا ترى الآخرين قد اكتفوا بلقمة وناموا؟.. لماذا تثير شغباً؟». وتجلّى أنَّ كلمة شغب قد وسوست إلى إيليشا بالعنف، فصاح: «لسوف أقدم على عمل غير طيّب، إذا أنت لم تعطني ڤودكا، أيها الشيخ!». فالتفت شيخ القرية نحو دوتلوف، الذي كان قد وضع الشمعة في مصباح، وهمَّ بأن يخرج ثم توقف ليرى ما قد يحدث... والذي كان يرمق ابن أخيه ـ من طرف عينه ـ في أسف، وكأنما هو في عجب لمسلكه الصبياني.

وعاد إيليشا يغض بصره، وهو يتمتم: «ڤودكا!.. أعطني!.. أقدم على شر!». فقال شيخ القرية في هوادة: «دعك من هذا يا إيليشا!.. أجل، دعك، وكفى!.. إنَّ هذا خير لك!».. وقبل أن يفرغ من كلماته، كان إيليشا قد وثب فضرب زجاج إحدى النوافذ بقبضته، وهو يصيح بأعلى صوته: «ما دمت ترفض أن تسمع كلامي، فهاك العاقبة!». واندفع نحو النافذة الأخرى ليكسر زجاجها. وفي لمح البصر، تقلّب پوليكي مرتين، واختبأ في الركن القصيّ على قمة المدفأة.. وقد فعل ذلك بسرعة خاطفة، بثت الفزع في جميع الصراصير التي كانت هناك. وألقى شيخ القرية بملعقته، واندفع نحو إيليشا. ووضع دوتلوف المصباح ببطء، وفك حزامه، وهزّ رأسه، وهو يصك لسانه بسقف فمه محدثاً صوتاً ينم عن الاستنكار، وسار نحو إيليشا الذي كان قد انهمك في عراك ضد شيخ القرية وأحد أتباع صاحب الخان، وهما يردّانه عن النافذة.

كانا قد أمسكا بذراعيه، ولاح أنهما قد سمَّراه في مكانه. ولكنّه لم يكد يرى عمه، والحزام في يده، حتى تضاعفت قواه عشر مرات، وانتزع نفسه منهما، وتقدَّم من دوتلوف وعيناه تكادان تقفزان من محجريهما، وقبضتاه مشدودتان، وصاح: «لسوف أقتلك!.. ابتعد، أيها الحيوان!.. لقد قضيت عليَّ، أنت وابناك اللئيمان! لقد قضيتم

عليَّ بالخراب!.. لماذا حملوني على الزواج!.. ابتعد! لسوف أقتلك!..». وكان إيليشا رهيباً في هياجه، قد احتقن لون وجهه، وراح إنسانا عينيه يدوران، وأخذ جسده الفتيّ السليم يرتجف بأجمعه كالمحموم. وبدا كأنما كان يريد أن يقتل الرجال الثلاثة الذين وقفوا في وجهه، وكان قادراً على قتلهم!

ـ إنك تشرب دم أخيك، يا مصّاص الدماء!

وأومض بريق خاطف من وجه الشيخ دوتلوف الدائم الرزانة، وتقدَّم خطوة، ثم قال فجأة: «إنك تأبى أن تسكن في سلام!». وكان أعجب ما في الأمر هو من أين جاء بتلك الطاقة؟.. فقد أمسك بابن أخيه بحركة سريعة، وألقى به أرضاً، وارتمى فوقه، وأحكم وثاق يديه بحزامه، بمعونة شيخ القرية! وظلاّ يتصارعان زهاء خمس دقائق، ثم نهض دوتلوف أخيراً ـ بمساعدة الفلاحين ـ وهو يجذب معطفه من قبضة إيليشا. وما لبث أن أنهض إيليشا الذي أصبحت يداه مكتوفتين خلف ظهره، واضطره إلى أن يجلس على مقعد خشبي في الركن.

قال وهو لا يزال متقطِّع الأنفاس ـ جراء الصراع ـ وقد راح ينتزع من حول قميصه حزاماً ضيِّقاً: «لقد قلت لك إنك ستسيء إلى نفسك!.. لماذا تأثم؟ إنَّ الموت مكتوب علينا جميعاً!». ثم التفت إلى أتباع صاحب الخان، وقال: «اطووا معطفاً ليتوسّده، وإلاّ فسوف يتصاعد الدم إلى رأسه». وراح يشدّ الحزام الضيق حول معطفه المصنوع من جلد الغنم، ثم تناول المصباح، وخرج ليعنى بالجياد.

وراح إيليشا ـ وهو شاحب الوجه، مشعث الشعر، وقد تهدَّل قميصه ـ يطوف بناظريه في الحجرة، وكأنه يحاول أن يتذكَّر أين هو.. بينما انهمك أتباع صاحب الخان في جمع شظايا الزجاج

المهشَّم، ثم دسُّوا في الثغرة ـ التي خلّفها في النافذة ـ معطفاً، ليحولوا دون انسياب تيار الهواء القارس. وعاد شيخ القرية يجلس إلى وعائه، وهو يردِّد: «آه، يا إيليشا! يا إيليشا!.. لكم أنا آسف من أجلك حقّاً!.. أية حيلة لنا في الأمر؟.. هاك خوريوشكين.. إنه الآخر متزوِّج!.. من الواضح أن لا حيلة لنا في الأمر!».

وعاد إيليشا يقول بصوت أجش، ولهجة مشبعة بالسخط: «إنَّما قُضي علي بالدمار، من أجل عمي ذلك الشرير، فحسب!.. لقد كان كل حرصه منصبّاً على ابنه.. لقد قالت أمي إنَّ وكيل الأعمال دعاه إلى أن يدفع من أجل بديل عني، فرفض، وقال إنه لا يملك ما يدفع.. كأنما لا قيمة لكل ما جلبته وأخي على أسرته من نفع!.. إنه شرير!».

*

وعاد دوتلوف إلى الحجرة، فأقام الصلاة أمام الأيقونات، وخلع ثيابه الخارجية عنه، وجلس بجوار شيخ القرية، فأحضرت الطاهية بعض الجعة، وملعقة أخرى. وران السكون على إيليشا، ورقد على المعطف المطويّ، وأغمض عينيه. فأشار شيخ القرية نحوه، وأخذ يهز رأسه في صمت. بينما لوّح دوتلوف بيده قائلاً: «كأنما المرء غير آسف من أجله!.. إنه ابن أخي، من صُلبي ودمي!.. وكأنما الأمور ليست بالغة السوء، كمال هو جليّ، فحلا لهم أن يصوِّروني له وغداً شريراً!.. ولعلها زوجته التي بثت في رأسه أن بوسعنا أن ندفع من أجل بديل عنه، فهي امرأة ضئيلة الجسم، خبيثة، رغم صغر سنها.. ومهما يكن من أمر، فإنه ينحو باللائمة عليّ!.. ولكن المرء يرثي للفتى!..». فعقّب شيخ القرية قائلاً: «آه!.. ويا له من فتى رائع!».

ـ ولكن صبري بلغ أقصاه معه!.. على أنني سأمدّ له!.. فغداً سيأتي أغنات، وقد رغبت زوجة الفتى في أن تأتي معه هي الأخرى.

فقال شيخ القرية وهو يترك مكانه، ويصعد إلى سطح المدفأة: «أحسنت صنعاً. دعهما يأتيان!.. ألا ما أتفه المال، إنه عَرَض زائل!». فغمغم أحد أتباع صاحب الخان، وهو يرفع رأسه: «لو كان لدى المرء مال لما بخل به.. مَن ذا الذي يضنّ بالمال؟». فرد عليه دوتلوف قائلاً: «آه! المال، المال!.. إنه سبب الخطايا! لا شيء في الدنيا يسبِّب من الآثام أكثر ممَّا يسبب المال.. وقد ذكر الكتاب المقدّس ذلك!». فقال التابع يقرّه على قوله: «كل شيء مثبت في الكتاب المقدّس. لقد روى لي رجل كيف أن تاجراً اختزن كوماً من المال، ولم يشأ أن يخلّف وراءه شيئاً منه، فقد بلغ من حبه للمال أن أراد أن يأخذه معه إلى قبره. وعندما كان يُحتضر، طلب أن تدفن معه وسادة صغيرة، فلم يرتَبْ أحد في الأمر، ودفنوها معه. ثم راح أبناؤه يبحثون عن ماله، فلم يستطيعوا أن يعثروا على شيء منه. وأخيراً، خطر لواحد منهم أنَّ من المحتمل أن المال كان أوراق نقد وضعت كلها في الوسادة. وعرض الأمر على القيصر، فسمح بأن يُفتح القبر. فماذا تظن أنه حدث؟.. لقد فتحوا التابوت، وشقوا الوسادة فلم يجدوا فيها شيئاً. ولكن التابوت كان مليئاً بثعابين صغيرة، ومن ثم فقد دُفن ثانية.. أرأيت ما يفعل المال؟».

قال دوتلوف وهو ينهض منتصباً: «هذه حقيقة واقعة، فالمال يجلب كثيراً من الآثام!». وشرع يصلّي. حتى إذا انتهى، ألقى نظرة على ابن أخيه، فإذا الشاب نائم.. وسار إليه ففكّ الحزام الذي كان يوثق يديه، ثم رقد هو الآخر. وخرج فلاح من الحجرة، لينام مع الخيل!

9

قلنسوة النقود

ما إن ران السكون على كل شيء حتى هبط پوليكي من على المدفأة متسلّلاً في هدوء، وكأنه مجرم، وشرع يتأهّب للرحيل. فقد شعر ـ لسبب ما ـ بعدم ارتياح لمجرد التفكير في قضاء الليل، في الخان، مع المجنَّدين. وكانت الديكة قد بدأت تكثر من الصياح، ينادي بعضها بعضاً. كما كان «الطبل» قد أتى على كل الشوفان الذي قُدِّم إليه، وشرع يمد عنقه إلى دلو الماء. فأسرجه پوليكي، وقاده ـ خلال عربات الفلاحين ـ إلى الخارج.. وكانت قلنسوته سليمة بمحتوياتها، فسرعان ما راحت عجلات العربة تدرج على الأرض المكسوَّة بالثلج، ميمِّمة شطر بوكروڤسك.

ولم يشعر پوليكي بطمأنينته إلاّ حين خلّف المدينة وراءه. فقد ظلّ ـ إلى أن غادرها ـ يتصوّر أنه لن يلبث أن يسمع أصواتاً تنم عن أنهم يطاردونه في أي لحظة، وأنهم لن يلبثوا أن يستوقفوه، وأن يوثقوا يديه ـ بدلاً من إيليشا ـ ثم يأخذوه إلى مركز التجنيد في صباح اليوم التالي.. وكان ثمة شيء ـ لعله الصقيع، أو لربما كان الخوف ـ يبعث قشعريرات باردة تسري في ظهره، فراح يلهب ظهر «الطبل» مرة بعد أخرى، يستحثه على الإسراع.. وكان أول من صادفه قسّ اعتمر قلنسوة طويلة من الفراء، يصحبه تابع أعور. فتشاءم پوليكي من هذا الأخير، واشتدّ جزعه، فازداد انطلاقاً وإسراعاً، ولكنه عاد يطأمن من خوفه تدريجاً، عندما بارح المدينة، حتى تبدَّد الخوف أخيراً.. وخفَّف «الطبل» من جريه، وقد ازدادت الطريق وضوحاً أمامه..

وخلع پوليكي قلنسوته، فتحسَّس الأوراق المالية، وقال لنفسه: «هل أخبئها في صدري؟.. لا، فقد أُضطر إلى أن أفك حزامي.. مهلاً! فلأهبط عندما أبلغ أسفل التل، وأسوّي من حالي.. إنَّ القرص الأعلى قد حيكَ بعناية وإحكام، ومن ثم فلا سبيل إلى أن ينزلق المظروف خلال طبقات النسيج.. وخير لي ـ في أي حال ـ أن لا أخلع القلنسوة حتى أبلغ البيت!».

ولمّا بلغ أسفل التّل، واستقبل أمامه التل الذي يليه، عدا «الطبل» من تلقاء نفسه صاعداً إيّاه، فلم يحاول پوليكي أن يكبح جماحه، إذ كان مشوقاً مثله إلى العودة إلى البيت.. وكان كل شيء على ما يرام، أو هكذا تصوّر پوليكي ـ على الأقل ـ فأسلم نفسه للأحلام، متخيّلاً ما سوف تبديه السيدة من عرفان، متصوِّراً الروبلات الخمسة التي ستمنحه إياها، والفرح الذي سيطغى على أفراد أسرته!.. وخلع القلنسوة، فتحسَّس المظروف وابتسم، ثم ردّه إلى رأسه وأحكم وضعه. وكانت المقدّمة المخمليّة للقلنسوة بالية، ونظراً لأن أكولينا كانت قد رتقت فتوقها رتقاً محكماً، في أحد جوانبها، فإنها لم تلبث أن تفسَّخت من جانب آخر.. وإذا الحركة التي ظن پوليكي، في منتصف الفجر البازغ أنها دفعت المظروف إلى جوف طبقات القلنسوة، تزيد من تمزّق الجانب المتفسّخ، وتدفع طرفاً من المظروف إلى الخارج، خلال المقدّمة المخمليّة.

وشرع الفجر يكشف النقاب، فابتدأ النعاس يداعب جفنيّ پوليكي الذي لم يكن قد نام في ليلته.. وفي نعاسه شدّ القلنسوة لتزداد التصاقاً برأسه ـ فازداد بذلك بروز المظروف إلى الخارج ـ وارتطم رأسه بمقدّم العربة. واستسلم للنعاس، فلم يستيقظ إلاّ وقد اقترب من الضيعة. وهمّ بأن يفحص قلنسوته، ولكنّه أحس بأنها محكمة الوضع فوق رأسه، فلم يرَ داعياً إلى رفعها، مطمئنّاً إلى أن

المظروف بداخلها. ومسّ «الطبل» بسوطه، ونسّق القش الذي كان يكسو أرض العربة، وعاد يتخذ مظهر الفلاح الموسِر، ويتلفّت حوله في خيلاء، والعربة تدرج نحو الضيعة!

وتراءى له مطبخ البيت، و«الأركان» التي يسكنها الرقيق.. ولاحت له زوجة النجّار وهي تحمل الغسيل، ثم تبيَّن مكتب إدارة الضيعة، ومسكن السيدة.. المسكن الذي لن يلبث أن يُبرهن فيه على أنه رجل أمين، أهل للثقة.. لسوف يقول للسيدة: «بوسع كل امرئ أن يتقوَّل على أيّ شخص كما يحلو له!».. وسترد السيدة قائلة: «لا بأس يا پوليكي!.. هاك ثلاثة (أو ربما خمسة، بل عشرة) روبلات!». وستأمر بتقديم الشاي إليه، بل ربما أمرت بتقديم بعض الڤودكا!.. ولن يكون هذا بالأمر المستغرب، بعد الوقت الذي أمضاه في البرد!.. ومضى پوليكي يحدّث نفسه: «بعشرة روبلات نستطيع أن ننعم غداً بعيد سعيد، وأن نبتاع أحذية، ونرد إلى نيكيتا روبلاته الأربعة والنصف.. إذ لا حيلة في ذلك، فهو قد بدأ يضايقنا بالمطالبة...».

وعندما أصبح على مائة خطوة من الدار تقريباً، أحكم لف معطفه حول جسمه، وسوّى من وضع حزامه وياقته، وخلع قلنسوته فسوّى شعره، ودسّ يده تحت بطانة القلنسوة، غير متعجِّل.. وأخذت اليد تعبث وتبحث داخل البطانة، واشتدت سرعة أصابعها.. ثم انضمّت إليها اليد الأخرى، بينما أخذ وجه پوليكي يشحب، بل يزداد شحوباً فوق شحوب. ودخلت إحدى اليدين في جوف القلنسوة بأكملها، ثم سقط پوليكي على ركبتيه، واستوقف الجواد، وراح يبحث في العربة، منقِّباً في القش، وبين الأشياء التي كان قد ابتاعها.. متحسِّساً معطفه وسرواله.

ولكن.. لم يكن ثمة أثر للنقود!

وشرع يخور، وهو يشدّ شعره: «يا للسماوات! ما معنى هذا؟.. ما الذي سيحدث الآن؟». ثم فطن إلى أنه قد يُشاهد، فحوّل وجه الجواد نحو الطريق الذي أتى منه، وأحكم قلنسوته على رأسه، ثم ساق «الطبل» عائداً من حيث أتى، والجوْاد مذهول مستنكر، ولا بد أنه كان يقول لنفسه: «ليس بوسعي أن أخرج ثانية مع پوليكي.. لقد عُني بإطعامي وسقايتي أتم عناية، لمرة واحدة في حياته، ثم لم أحظ منه بغير الخداع الذي لا يسر النفس!.. لكم أجهدت نفسي في الجري في أثناء العودة، حتى اشتدّ بي التعب!.. ومع ذلك، فإنني لم أكد أصبح على قيد خطوات من المعلف، حتى شرع يسوقني راجعاً بي!».

أمّا پوليكي، فقد راح يصيح به، خلال الدموع: «هيا أيها الحصان المنهوك القوى!». ووقف منتصباً في العربة، يشدّ عنان «الطبل» في عنف، وينهال عليه ضرباً بالسوط!

10

المأساة

لم ير أحد پوليكي في بوكروڤسك طيلة ذلك اليوم. وقد سألت عنه السيدة مراراً بعد الغداء، واندفعت أكسيوتكا كالإعصار إلى أكولينا، ولكن أكولينا قالت إنه لم يعد بعد، لعل التاجر الذي كان يشتري خضر البستان قد أخّره عن العودة، أو لعل شيئاً قد جرى للحصان.. وأردفت تقول: «ليته لم يُصب بالعرج!.. لقد قضى مكسيم يوماً كاملاً في الطريق ـ عندما ذهب به في المرة الماضية ـ واضطر إلى أن يقطع المسافة كلها سيراً على قدميه، في أثناء العودة!».

وولّتها أكسيوتكا ظهرها، وعادت وهي تحرّك رقّاصي ساعتها، بينما أخذت أكولينا في ابتكار الأعذار التي تسوّغ غياب زوجها، لتطأمن من هواجس نفسها. ولكن، دون جدوى!.. كان قلبها مثقلاً، ولم تقو على أن تعمل بنفس راضية فيما كانت تتّخذه من استعدادات للعيد الذي كان مرتقباً في اليوم التالي. وضاعف من كدرها أن زوجة النجار راحت تؤكد لها أنها رأت بعينيها «رجلاً يشبه پوليكي تماماً، مقبلاً في عربة، ثم ولّى راجعاً».. كذلك راح الأطفال يرتقبون «بابا» في لهفة ونفاد صبر، وإن اختلف حافزهم عن الحافز الذي كان يثير قلق أمهم. فإنَّ غيابه حرم آني وماري من جلد الغنم ومن السترة السميكة، وهما اللذان كانا يمكنانهما من أن يقوما بجولات خارج البيت، فلم تعودا تملكان سوى أن تجريا في دورات سريعة قصيرة، حول البيت. ولم تكن المضايقات ـ التي ترتّبت على ذلك ـ قليلة،

بالنسبة إلى جميع مَن كانوا يقطنون مساكن الرقيق. ولقد ارتطمت ماري مرة ـ وهي تجري ـ بساقيّ زوجة النجار التي كانت تحمل ماء بين يديها.. ومع أنها بدأت تبكي مستبقة العقاب ـ بمجرد أن اصطدمت بركبتي المرأة ـ إلاّ أن هذا لم يعفها من الضرب وشدّ الشعر، الأمر الذي جعلها تزداد عويلاً.. أمّا إذا لم ترتطم بأحد، فإنها كانت تندفع من الخارج مارقة كالسهم خلال الباب، وتبادر إلى اعتلاء وعاء لترقى إلى قمة الفرن!

ولم يكن ثمة من راح يعاني القلق حقّاً ـ من أجل پوليكي ـ سوى السيدة وأكولينا.. أما الأطفال، فلم يكن يشغلهم سوى ما كان عليه من ثياب!

ولم تكن السيدة تكفّ عن سؤال إيغور ميخائيلوڤيتش: «ألم يحضر پوليكي بعد؟».. أو: «تُرى، أين يحتمل أن يكون؟». فكان يجيبها، وكأنه مغتبط لأن ما توقعه قد تحقق: «لست أدري».. ثم كان يضيف في لهجة ذات معنى: «كان الواجب أن يكون هنا حوالى الظهر!».

*

لم يسمع أحد شيئاً عن پوليكي طيلة اليوم، اللهم إلاّ ما عُرف ـ في أواخر النهار ـ من أن بعض فلاحي المناطق المجاورة قد رأوه يجري في الطريق عاري الرأس، يسأل كل من كان يصادفه عمّا إذا كان قد عثر على خطاب ما. ورآه رجل راقداً على حافة الطريق بجوار عربة ربط جوادها إلى شجرة. وقال هذا الرجل: «لقد حسبته ثملاً. وكان الجواد يبدو وكأنه لم يذق الماء ولا الطعام منذ يومين، إذ كان جنباه متهدِّلين!».

ولم تنم أكولينا الليل كله، بل ظلت ساهدة ساهرة، مرهفة السمع. ولكن پوليكي لم يعد. ولو أنها كانت بمفردها، أو لو أنها أُوتيت

طاهية أو خادمة، لشعرت بمزيد من التعاسة، ولكن أولادها كانوا يلهونها أحياناً عن هواجسها. وما إن صاحت الديكة، واستيقظت زوجة النجّار، حتى اضطرت أكولينا إلى النهوض، وإلى إشعال النار، فقد كان اليوم عيداً.. وكان لا بد من إنضاج الخبز وإخراجه من الفرن قبل أن يطلع النهار، وكان لا بدّ من إعداد الجعة، ومن خبز الفطائر، ومن حلب البقرة، ومن كي الثياب والأقمشة، ومن تنظيف الأطفال، ومن اجتلاب الماء إلى الركن، ومن الحيلولة دون أن تنفرد جارتها بالفرن كله.. ومن ثم شرعت أكولينا في العمل، وهي لا تزال ترهف سمعها.. ولكن النهار اشتعل ضياء، وأخذت أجراس الكنيسة تدق، واستيقظ الأطفال.. ولم يعد پوليكي بعد!

كانت تباشير الصقيع قد اكتنفت اليوم السابق، وتساقط بعض الجليد وتراكم في أكوام صغيرة في الحقول، وعلى الطريق وأسقف الدور. ولكن الجو كان بديعاً ومشمساً، رغم الصقيع، في ذلك اليوم. وكأنما كانت الطبيعة تمجِّد العيد.. وفي هذا الجو الصحو، كان بوسع المرء أن يمدّ بصره فيرى على مسافة بعيدة، ويسمع الأصوات عن بعد. ولكن أكولينا ـ التي كانت تقف بجوار الفرن ـ راحت تدفع رأسها خلال الباب، وهي منهمكة في إعداد الفطائر.. ومع ذلك فإنها لم تسمع پوليكي ـ وهو يصل بالعربة ـ وإنما عرفت من صيحات الأطفال أن زوجها قد عاد.

كانت آني قد ضمّخت شعرها بالزيت، وتهيَّأت دون مساعدة أحد، بوصفها الابنة الكبرى. كانت ترتدي ثوباً من قماش مزخرف، جديداً ولكن المكواة لم تسر عليه.. عطِيَّة من السيدة. وكان مشدوداً وكأنه مصنوع من ألياف الشجر. ما غبطها عليه الجيران. وأخذ شعر الصبية يلمع، إذ كانت قد أذابت لتضميخه نصف بوصة من شحم الشموع. بينما غابت قدماها في نعلين دقيقين، وإن لم يكونا

جديدين.. أمّا ماري فكانت لا تزال ملتفة في سترة قديمة، وقد تلطّخت بالوحل، فلم تتركها آني تدنو منها خشية أن يتسخ ثوبها. ومن ثم فقد مكثت ماري خارج الركن، فرأت أباها وهو يقبل في العربة، ومعه كيس كبير. وصاحت: «بابا عاد!»، واندفعت خلال الباب إلى الخارج، مارة بآني - التي خفّت لترى ما جعل أختها تصرخ - ملطِّخة لها ثوبها. ولم تعد آني تحفل بالحيطة، بعد أن اتسخ الثوب، فانقضّت عليها وضربتها. ولم يكن بوسع أكولينا أن تترك مكانها، فلم تملك سوى أن صاحت في البنتين: «وبعد؟.. لسوف أسوطكما معاً!». والتفتت نحو الباب، فإذا پوليكي يدخل من الباب الخارجي، حاملاً كيساً، فيسير إلى ركنه مباشرة. ولاح لأكولينا أنه كان شاحباً، وبدا لها من وجهه أنه إمّا كان يبتسم، وإمّا كان يبكي.. ولكنها لم تجد وقتاً كي تكتشف أي الحالين كانت حاله.

وصاحت تسأله، وهي في مكانها أمام الفرن: «هل كل شيء على ما يرام يا پوليكي؟». فغمغم پوليكي بكلمات لم تستبنها.. وعادت تصيح: «آه؟.. هل ذهبت إلى السيدة؟». وجلس پوليكي على السرير في ركنه، يتأمل ما حوله بنظرات زائغة، وهو يبتسم ابتسامة تنم عن الذنب.. ابتسامة تعسة، مفرطة التعاسة. وتناهى إليه صوت أكولينا، تتساءل: «ماذا يا پوليكي؟.. لماذا أطلت الغياب؟». فقال فجأة: «أجل يا أكولينا، لقد أسلمت السيدة نقودها.. وكم شكرتني!». وشرع يتلفّت حوله، وقد ازداد ما شاب ابتسامته من قلق وارتباك.

شيئان اجتذبا نظراته الملتهبة: الطفل الرضيع، والحبال التي كانت مدلاّة من المهد المعلّق. ونهض فسار إلى حيث كان المهد معلّقاً، وشرع يفك على عجل عقدة حبل منها، بأصابعه النحيلة. ثم استقرت عيناه على الرضيع. ولكن أكولينا دخلت في تلك اللحظة، حاملة صحفة الفطائر، فأسرع پوليكي إلى إخفاء الحبل في صُداره، وجلس على السرير.

سألته أكولينا: «ماذا بكَ يا پوليكي؟.. إنك لست في حالك الطبيعية؟». فأجابها: «لم أنم!». وفجأة، مرق شيء بجوار النافذة، وإن هي إلاّ لحظة حتى اندفعت أكسيوتكا ـ الخادم التي من «فوق» ـ كالسهم، وقالت: «السيدة تأمر پوليكي بأن يأتي في هذه اللحظة.. أڤدوشيا نيكولايڤنا تقول: هذه اللحظة!». فنظر پوليكي إلى أكولينا، ثم إلى الفتاة، وقال: «ها أنذا قادم. ترى ما الذي تريده؟». قالها ببساطة، فهدأت وساوس أكولينا. ثم استطرد: «لعلها تريد أن تكافئني.. قولي لها إنني قادم!».

ونهض پوليكي فخرج. وتناولت أكولينا وعاء الاستحمام فوضعته على مقعد خشبي، وملأته بالماء من الدلاء التي كانت إلى جوار الباب، ومن المرجل الذي كان في الفرن، ثم شمرت عن ساعديها، ولمست الماء لتتعرف مدى حرارته. وقالت: «تعالي يا ماري، سأغسل لك جسمك!». فشرعت البنية الصغيرة ـ الحولاء اللثغاء ـ في البكاء. وصاحت أكولينا: «تعالي أيتها الشريرة! سأغسل لك جسمك، فلا تثيري ضجة ولا ضوضاء.. هيّا، فلا يزال أمامي أن أنظف أخاك!».

*

في تلك الأثناء، لم يكن پوليكي قد تبع الخادم الموفدة من «فوق»، وإنما سعى إلى مكان آخر.. فإلى جانب الجدار ـ في الردهة ـ كان ثمة سلّم يُفضي إلى الفراغ الذي تحت السقف مباشرة. فلمّا غادر پوليكي مسكنه، تلفّت حوله، حتى إذا لم ير أحداً، أحنى ظهره، وتسلّق ذلك السلم بعجلة، وخفة، فكأنه كان يجري فوقه.

وسألت السيدة في صبر نافد، موجهة الحديث إلى دنياشا التي كانت تسرّح لها شعرها وتنسقه: «تُرى ما الذي جعل پوليكي لا يأتي حتى الآن؟.. أين پوليكي؟ لماذا لم يأتِ؟». ومرة أخرى، انسابت

أكسيوتكا إلى مساكن الرقيق، واندفعت داخلة، وهي تنادي پوليكي كي يوافي مولاتها. فردّت أكولينا، التي كانت قد فرغت من ماري، ووضعت ابنها الرضيع لتوّها في حوض الغسيل، وبدأت تبلل شعره الخفيف القصير، غير عابئة ببكائه: «عجباً!.. لقد ذهب منذ فترة طويلة». وصرخ الطفل، وتقلّصت عضلات وجهه، وراح يحاول أن يتشبّث بشيء ما، بيديه الصغيرتين الواهنتين. فوضعت أكولينا إحدى يديها تحت ظهره الناعم، البض، الطري، وراحت بالأخرى تغسل جسمه، وهي تقول متلفّتة في قلق: «ابحثي عنه خشية أن يكون قد استسلم للنوم في مكان ما!».

وفي تلك اللحظة، كانت زوجة النجّار قد صعدت - مشعثة الشعر، دون أن تحكم ضم أطراف إزارها، الذي رفعت ذيله عن الأرض بيدها - إلى الفراغ الذي يلي السقف مباشرة، حيث كانت قد علّقت بعض الثياب لتجف. وفجأة، ملأت ذلك الفراغ صرخة ذعر، وهبطت زوجة النجار كالمجنونة، وقد أغمضت عينيها، وكادت لفرط إسراعها تنزلق على السلم انزلاقاً.. وصرخت: پوليكي!.. وأفلتت أكولينا طفلها من بين يديها، بينما راحت زوجة النجار تصرخ: «لقد شنق نفسه!».

واندفعت أكولينا إلى الردهة، غير حافلة بالرضيع الذي تقلّب في الحوض، ثم سقط وساقاه في الهواء، ورأسه تحت الماء!.. وكانت زوجة النجار تقول: «إنه مدلّى.. من إحدى العوارض الخشبية!». ولكنها أمسكت حين رأت أكولينا.

واندفعت أكولينا صاعدة السلم، وقبل أن يمسك بها أحد، كانت قد بلغت قمته. ولكنها سرعان ما هوت من عليه، وقد أرسلت صرخة رهيبة، ولولا أن تلقّفها القوم الذين أقبلوا مهرعين، من كل ركن، لكانت قد لقيت حتفها!

11

موت وجنون

لبضع دقائق لم يكن من سبيل إلى تمييز شيء خلال الضجيج العام، فقد تجمّع حشد من القوم راحوا يصرخون ويتكلّمون، وأخذ الأطفال والعجائز يبكون، بينما كانت أكولينا مستلقية فاقدة الرشد. وأخيراً، صعد رجلان ـ النجّار ووكيل الأعمال، الذي كان قد هرع إلى المكان ـ درجات السلم. وشرعت زوجة النجار تروي ـ للمرة العشرين ـ كيف أنها لم تكن ترتاب في شيء، إذ ارتقت السلم لتحضر ثوباً لها.. «ونظرت حولي هكذا.. ورأيت.. رجلاً! ونظرت مرة أخرى.. كانت ساقاه متدلّيتين. وتثلّج كل جسمي!.. أفهو أمر بديع؟ تصوّروا رجلاً شنق نفسه، وتصوَّروا أن أكون أنا التي قُدِّر لها أن تراه!.. أمّا كيف هبطتُ على عجل، فهذا ما لست أذكره!.. إنها لمعجزة أن صان الله حياتي! الحق أن الرب كان رحيماً بي!.. أهو أمر هين؟ أن أقفز من مكان على مثل هذا الارتفاع!؟ كنت خليقة بأن أهوي ميتة!»).

وأقبل الرجلان، اللذان صعدا السلم، بالقصة ذاتها.. كان پوليكي مدلّى من إحدى العوارض الخشبية، بالحبل الذي أخذه من المهد، وهو في قميصه وسرواله. وكانت قلنسوته مقلوبة، باطنها إلى الخارج، وملقاة إلى جواره.. بينما كان معطفه وجلد الغنم مطويَّين في ترتيب وعناية، على مقربة. وكانت قدماه تمسّان الأرض، ولكن أي أثر للحياة لم يكن يبدو عليه. واستردّت أكولينا وعيها، فعادت تندفع نحو السلم، ولكنها صُدّت عنه. وفجأة، صاحت الصغيرة

اللثغاء في الركن: «ماما.. لقد غلق (أي غرق) سيمكا!». وانتزعت أكولينا نفسها من أيدي الممسكين بها، وجرت إلى الركن.. كان الطفل ملقىً على ظهره في الحوض، لا يأتي حراكاً، وقد جمد ساقاه عن كل حركة. فانتزعته أكولينا من الحوض، ولكنه لم يتنفس، ولم يتحرّك.. وألقته على السرير، وانطلقت ـ وهي معقودة الذراعين على صدرها ـ بضحك مدوٍّ، ثاقب، رهيب.. حتى أن ماري ـ التي ضحكت هي الأخرى، في بادئ الأمر ـ غطت أذنيها بكفّيها، وهرعت خارجة إلى الردهة، وهي تعول باكية!

وتقاطر الجيران على الركن منتحبين باكين، فحملوا الطفل إلى الخارج، وبدأوا يدلّكون جسمه، ولكن.. دون جدوى. وكانت أكولينا تتقلّب على الفراش وهي تضحك.. تضحك بشكل بثّ الذعر في نفوس كل من سمعوها!.. وما كان المرء ليتبيَّن عدد المقيمين في مساكن العبيد، ولا أي نوع من الناس هم، إلاّ في مثل هذه الآونة، وقد تزاحم الرجال والنساء.. كانوا جميعاً في هرج، يتكلّمون في وقت واحد، وكثير منهم راحوا يبكون، ولكن أحداً لم يقم بعمل يناسب الموقف.. وكانت زوجة النجّار لا تزال تجد أناساً لم يسمعوا قصتها عن الصدمة التي أصابت مشاعرها الرقيقة، عندما وقع بصرها على المشهد الرهيب غير المرتقب، وكيف حفظها الله فلم تقع من قمة السلم.. وراح كهل ألقى على كتفيه سترة امرأة ـ وقد كان يوماً خادماً خاصّاً للسيد ـ يروي كيف أن امرأة أغرقت نفسها في بركة ماء، ذات يوم، في عهد السيد السابق.. وأوفد وكيل الأعمال رسلاً إلى القس وإلى قائد الشرطة، كما أقام رجالاً على حراسة الجثّة..وظلت أكسيوتكا ـ الخادم التي من «فوق» ـ تحملق في الفتحة المُفضية إلى الفراغ الذي يلي السقف، بعينين جامدتين، دون أن ترى شيئاً، ودون أن تقوى ـ كذلك ـ على أن تنتزع نفسها من

موقفها، وتعود إلى مولاتها.. وكانت «أغاثا ميخائيلوڤنا» - التي كانت وصيفة لصاحبة الضيعة سابقاً - تبكي وتطلب بعض الشاي لتهدئ أعصابها!.. أما «آنا» القابلة فكانت ترقد جثة الطفل الصغير على المائدة، وقد نضحت يديها البضّتين، المدرَّبتين، بزيت الزيتون. بينما وقفت نسوة أخريات حول أكولينا يحملقن فيها صامتات!

وتكوّرت البنات الصغيرات معاً في الركن، ورحن يسترقن النظر إلى أمهن، ثم انطلقن في العويل. وما لبثن أن هدأن لحظة، ونظرن إلى أمهن، ثم ازددن انكماشاً وتماسكاً.. وانتشر الرجال والفتيان خارج المبنى، وهم ينظرون إلى الباب والنوافذ، وقد تجلّى الهلع على أساريرهم، وإن لم يستطيعوا أن يروا أو يدركوا شيئاً، فراح كل منهم يسأل الآخر عمّا جرى!.. فقال واحد إن النجار اجتث قدم زوجته ببلطة.. وقال آخر إن الغسالة قد حُملت إلى فراشها، حيث وضعت ثلاثة توائم.. وقال ثالث إن قط الطاهية قد أصيب بلوثة فعض عدداً من الناس. على أن الحقيقة لم تلبث أن ذاعت تدريجاً، حتى صعدت - في النهاية - إلى سيدة الضيعة «فوق». ولاح أن أحداً لم يكن يدرك كيف يعلنها إليها. ولكن إيغور الجلف فاجأها بالحقيقة مباشرة، فاضطربت أعصاب السيدة، وانقضت فترة طويلة قبل أن تسترد شجاعتها. وكان القوم المتجمّعون في أسفل البيت قد بدأوا يهدأون، وأشعلت زوجة النجار النار تحت الغلاّية، لتعد بعض الشاي، فلما لم توجه دعوة إلى الذين لم يكونوا من المقيمين في مساكن الرقيق، انصرفوا وقد وجدوا أن ليس من اللائق أن يبقوا. وأخذ الفتيان يتصارعون خارج المبنى.

*

كان كل شخص قد عرف جلية الأمر، فراحوا يرسمون علامة الصليب على صدورهم، وينفضون، حين دوّت فجأة صرخة عالية:

«السيدة!.. السيدة!». وتزاحم كل من في الحشد، ليُفسحوا لسيدة الضيعة في الطريق، وإن راح كل منهم - في الوقت ذاته - يحاول أن يرى ما هي فاعلة.. ودخلت السيدة الردهة بوجه شاحب لطخته الدموع، فاجتازت عتبة ركن أكولينا، ودخلت عليها.. وتلاصقت عشرات الرؤوس وتزاحمت لتنظر من خلال الباب. واشتد الضغط على امرأة حامل، حتى اضطرت إلى أن تُطلق صرخة عالية، ولكنها انتهزت هذا الظرف، لتظفر لنفسها بمكان أمين في الصف الأول.. وكيف كان لأحد أن يتمالك نفسه من الرغبة في أن يرى سيدة الضيعة في ركن أكولينا؟.. كان الأمر - بالنسبة إلى رقيق البيت - أشبه بالأضواء الملونة التي تُنار في نهاية أي استعراض!.. وكما أن إشعال نيران ملونة عمل عظيم، يشير إلى مناسبة جليلة، فكذلك كان وجود سيدة الضيعة - في ثيابها الحريرية الموشّاة بالدانتيلا - في ركن أكولينا!

تقدّمت السيدة، فأمسكت يد أكولينا، ولكن أكولينا جذبت يدها من قبضتها، فهز العبيد المسنّون رؤوسهم في استهجان واستنكار، بينما قالت السيدة: «أكولينا!.. إن أولادك بحاجة إليك، فاحرصي على نفسك». ولكن أكولينا انفجرت مقهقهة، ونهضت قائلة: «إنَّ أولادي كلهم من الفضة، الفضة الخالصة!.. فلست أحتفظ بنقود ورقية!». ثم تمتمت في عجلة جعلت الكلمات تتلاحق وتتداخل: «إنني قلت لپوليكي: «لا تأخذ نقوداً ورقية!».. وها هي ذي النتيجة.. لقد لطّخته بالقار.. بالقار والصابون يا سيدتي!.. فإنَّ القار والصابون يخلّصانك من أي جرب يلحق بك، في الحال!». وازدادت قهقهتها ارتفاعاً!

وتحوَّلت السيدة عنها، فأمرت باستدعاء مساعد الطبيب فوراً، وبأن يُحضر معه لبخات من الخردل، وقالت: «أحضروا بعض الماء

البارد!». وشرعت بنفسها تبحث عنه، ولكنها أشاحت فجأة، إذ رأت الطفل الميت مع القابلة العجوز آنا. ورأى الجميع كيف أخفت وجهها في منديلها، وانفجرت باكية.. وممّا يؤسف له أن السيدة لم ترَ ما كانت القابلة آنا تفعل، فإنها كانت جديرة بأن تقدّره، ولا سيما أنه كان من أجل خاطرها هي.. فقد غطت الطفل بقطعة من الكتّان، وبسطت ذراعيه بيديها الطريتين المدربتين، وهزت رأسه، وعبست، ثم أرخت جفنيه على عينيه، وتنهدت وقد شعرت بأن كل امرئ رأى - في عملها - مدى طيبة قلبها!.. ولكن السيدة لم تر شيئاً من هذا، لأنها لم تقو على أن ترى أي شيء على الإطلاق. فقد راحت تبكي في نشيج عصابيّ!

وأسرعت الأيدي تعينها على الوقوف والسير، واقتيدت إلى خارج الركن، ثم إلى دارها. وقال كثيرون لأنفسهم: «أهذا كل ما يُرى منها؟». ثم عادوا يغادرون ويتفرّقون. وظلت أكولينا سادرة في ضحكها وهذيانها. وما لبثت أن نُقلت إلى حجرة أخرى، حيث حجمت ليسيل الدم الفاسد من رأسها، ثم كسيت الجراح بلبخات الخردل، ووضع ثلج على رأسها، ومع ذلك فإنها لم تثب إلى رشدها، ولم تبك، بل ظلت تضحك وتأتي من الأفعال والأقوال ما لم يتمالك معه أهل الرحمة - الذين عنوا بها - أنفسهم من أن يضحكوا هم أيضاً!

12

الليلة الرهيبة

لم يكن العيد سعيداً في بوكروفسك. ومع أن اليوم كان مشمساً، إلاّ أن القوم لم يخرجوا للهو والنزهة، ولم تردّد الفتيات الأغاني في الشارع، ولم يعزف عمال المصنع ـ الذين أقبلوا من المدينة ليقضوا ذلك اليوم بين أهليهم ـ على «الكونسرتينة» ولا على «البالالئكا»(*)، لا ولم يمرحوا مع الفتيات، وإنما جلسوا جميعاً في الأركان واجمين، فإذا تكلّموا كان حديثهم خافتاً، وكأنما هناك روح شريرة تترصّد أقوالهم. ولم يكن الأمر بالغ السوء إبان النهار، ولكن.. ما إن هبط الليل، وشرعت الكلاب تنبح ـ وقد زاد الأمر سوءاً أن هبت ريح راحت تعزف خلال المداخن ـ حتى تملّك القوم جميعاً خوف طاغ، دفع الذين كانوا يملكون شموعاً إلى أن يشعلوها أمام أيقوناتهم. واضطر كل من صودف أن كان وحيداً في ركنه إلى أن يسعى إلى جيرانه يسألهم الإذن ليمكث الليل معهم، ليتخفف من الوحشة.. وأي امرئ كان عمله يقتضيه أن يذهب إلى الحظائر، أبى أن يخرج، وآثر أن يترك الماشية بلا علف ـ في تلك الليلة ـ غير مشفق عليها.. كما أن الماء المقدَّس ـ الذي كان كل امرئ يمتلك زجاجة صغيرة منه لطرد كل شر، استهلك عن آخره في أثناء الليل!

ومع ذلك فما أكثر مَن سمعوا شيئاً يمشي في الفراغ ـ الذي يلي السقف ـ بخطى ثقيلة.. وشاهد الحداد ثعباناً يطير نحو هذا المكان

(*) الكونسرتينة (concertina) آلة موسيقية من أسرة الأكورديون. والبالالئكا (Balalaika) آلة موسيقية روسية شبيهة بالعود.

مباشرة!.. أمّا ركن پوليكي فلم يكن يلزمه أحد، فقد نُقل الأطفال والمرأة المجنونة إلى مكان آخر، ولم يبق سوى جثمان الطفل الميت مسجًّى هناك، وقد جلست عجوزان ساهرتين عليه، بينما كانت امرأة ثالثة.. «حاجّة» تتلو المزامير، مدفوعة بحرارة تقواها، لا من أجل الطفل، وإنما بشعور مبهم بالنكبة التي حاقت بالجميع.. فهكذا أرادت سيدة الضيعة. ولقد سمعت الحاجة، والمرأتان العجوزان، كيف أن عوارض السقف الخشبية كانت تهتز، كما كان ينبعث أنين وجيع، كلما انتهين من كل فقرة من كتاب المزامير. وإذ ذاك كن يهتفن: «ليقم الرب!»، فإذا بكل شيء يهدأ من جديد.

ودعت زوجة النجار صديقة لها إلى ركنها، فلم تناما ليلتهما بطولها، بل شربتا كل الشاي الذي كانت قد أعدته للأسبوع كله. وسمعتا ـ هما الأخريان ـ كيف أن العوارض كانت تئز فوق رأسيهما، كما سمعتا جلبة وكأن أكياساً كانت تتساقط تباعاً. ولقد أعان وجود الحراس الفلاحين على استبقاء شجاعة أهل مساكن الرقيق بعض الشيء، وإلاّ لكانوا قد هلكوا خوفاً في ذلك الليل.. وكان الفلاحون ينامون على بعض القش في الردهة، وقد ذكروا ـ فيما بعد ـ أنهم سمعوا هم الآخرون أصواتاً عجيبة في الفراغ الذي يلي السقف، وإن كانوا ـ إذ ذاك ـ يتحادثون في هدوء تام عن التَّجنيد، ويمضغون لقماً من الخبز، ويحكون أجسادهم، و- فوق كل شيء ـ يملأون الردهة برائحة نتِنة عرفت عن الفلاحين، حتى أن زوجة النجار لم تتمالك أن بصقت ـ إذ تصادف أن مرت بالقرب منهم ـ ونعتتهم بأنهم «فروخ الفلاحين»!

وأيّاً يكن الأمر، فإنَّ الميت المشنوق ظلَّ معلَّقاً في الفراغ الذي يلي السقف. ولاح كأنما خيَّمت روح الشر ذاتها على مساكن الرقيق، باسطة جناحيها الهائلين، في تلك الليلة، مبدية قوتها

وسلطانها، مقتربة من أولئك القوم كما لم تقترب قط من قبل!.. هكذا شعروا جميعاً. ولست أدري ما إذا كانوا على صواب، بل إنني لأراهم كانوا في خطإ مبين. وأعتقد أنه لو كان قد قُدِّر لشخص، على شيء من الجرأة، أن يأخذ شمعة أو مصباحاً في تلك الليلة الرهيبة، وأن يرسم على صدره علامة الصليب ـ بل ودون أن يرسم علامة الصليب ـ فصعد إلى ما تحت السقف، وبدّد رهبة الليل رويداً رويداً ـ خلال تقدمه بالشمعة ـ ملقياً الضوء على العوارض الخشبية، وعلى الرمل، وعلى أنبوبة المجاري المكسوة بنسيج العنكبوت، وعلى لفافات العنق التي خلفتها زوجة النجار وراءها.. ووصل إلى پوليكي، فغالب مخاوفه ورفع المصباح إلى مستوى وجهه، لرأى الشكل النحيل عينه، وقد مست القدمان الأرض لأن الحبل ارتخى، ومال الجسم جانباً وقد فرغ من الحياة.. ولا صليب تحت القميص، وقد سقط الرأس على الصدر.. ولرأى الوجه الطيب السحنة وقد تفتحت عيناه بلا إبصار، والابتسامة التي تجمع بين المسكنة والشعور بالذنب، وهدوءاً ساجياً، وصمتاً يسيطر على كل شيء.. والواقع أن زوجة النجار كانت أكثر بشاعة وإرهاباً من پوليكي ـ رغم أن صليبه كان بعيداً عن جسمه، وملقىً على إحدى العوارض ـ ولا سيما أنها كانت تنكمش في ركن من سريرها، بشعر مشعث، وعينين مفعمتين بالذعر، وقد راحت تروي كيف أنها سمعت جلبة أكياس تتساقط!

و«فوق».. أي في دار السيدة، سيطرت الرهبة عينها التي رانت على مساكن الرقيق. وكان مخدع السيدة نفسها عَبِقاً برائحة الكولونيا والأدوية، بينما راحت دنياشا تُذيب شمعاً أصفر، لتعد لبخة. أمّا السبب الذي من أجله كانت هذه اللبخة، فهذا ما لست أعلمه، وإن كنت أعلم أن اللبخات كانت تصنع عادة عندما تكون

السيدة متوعّكة. وقد كانت في تلك الليلة بالغة الاستياء، حتى لقد نزل بها المرض. ولقد أقبلت عمة دنياشا لتمكث الليل معها، حتى تشد أزرها. ومن ثم فقد كانت في غرفة الوصيفة أربع نسوة، رحن يتكلّمن بأصوات خافتة: دنياشا، وعمتها، والوصيفة الثانية، وأكسيوتكا.. وما لبثت دنياشا أن تساءلت: «مَن منكن تذهب لتحضر بعض الزيت؟». فقالت الوصيفة الثانية في حزم وإصرار: «ما من شيء يغريني على الذهاب».

ـ هراء!.. اذهبي مع أكسيوتكا!

فقالت أكسيوتكا: «سأهرع وحدي، فإني لست خائفة من شيء!». غير أنها لم تكد تفرغ من قولها، حتى شعرت بخوف مفاجئ! بينما قالت دنياشا: «حسن.. اذهبي إذاً يا عزيزتي إلى الجدة آنا، وسليها أن تعطيك بعض الزيت في قدح، وأحضريه إلى هنا، ولا تسكبي منه شيئاً!».

ورفعت أكسيوتكا ذيل ثوبها بإحدى يديها. وإذ حال هذا دون تأرجح ذراعيها معاً كرقّاصي الساعة، فإنها راحت تحرك ذراعاً واحدة بعنف مضاعف، في خط متعامد على خط سيرها، وهي تندفع! كانت خائفة.. وخيل إليها أنها خليقة بأن تموت ذعراً إذا هي رأت أو سمعت شيئاً، ولو كان هذا الشيء أمها التي كانت على قيد الحياة.. ومرقت في طريقها المألوف، وهي مغمضة العينين!

13

في مخدع سيدة الضيعة

انبعث فجأة، على مقربة من أكسيوتكا، صوت ريفي عميق، يسأل: «هل السيدة نائمة أو مستيقظة؟». ففتحت الفتاة عينيها ـ اللتين كانت تغمضهما ـ ورأت أمامها جسماً خيل إليها أنه أكثر ارتفاعاً من الدار كلها، فصرخت وارتدت عائدة بسرعة هوجاء، حتى أن ذيل ثوبها راح يتطاير خلفها في الهواء. وبقفزة واحدة تجاوزت المدخل، وبقفزة ثانية كانت في غرفة الوصيفة الثانية، حيث ارتمت على سرير وهي ترسل صراخاً وحشياً. وأوشكت دنياشا وعمتها والوصيفة الثانية أن يمتن رعباً. وقبل أن يتمالكن جأشهنّ، سمعن خطوات ثقيلة بطيئة متردِّدة، في الردهة، انتهت أخيراً عند بابهن. واندفعت دنياشا إلى مخدع مولاتها والشمع المذاب يتناثر من بين يديها، واختبأت الوصيفة الثانية وراء الستائر. أمّا العمة ـ وكانت أقوى منهن شخصية ـ فقد همّت بأن تدفع الباب المؤدي إلى الردهة، وتحكم إغلاقه. ولكن الباب فُتح ـ في تلك اللحظة ـ وولج فلاح الحجرة!

لم يكن القادم سوى دوتلوف بنعليه الشبيهين بالقاربين!.. وراح يتلفَّت حوله باحثاً عن أيقونة، دون أن يكترث لما استولى على مَن كنّ في حجرة الوصيفة من مخاوف. وإذ لم يجد الأيقونة الصغيرة، التي كانت في الركن الأيسر من الحجرة، وقف أمام صِوان كانت أواني الشاي وأقداحه تحفظ فيه، ورسم على صدره علامة الصليب. ثم وضع قلنسوته على حافة النافذة، ودسّ يده في صدر معطفه،

وراح يدفعها عميقاً، وكأنه يريد أن يحك جلده، تحت الإبط. وما لبث أن أخرج المظروف الذي كان يحمل خمسة أختام بالشمع البني، يحمل كل منها رسم مرساة!

وضغطت عمة دنياشا قلبها بيدها، ثم راحت تقاوم، حتى انتزعت الكلمات بعناء، قائلة: «لعمري!.. لقد أوقعت الهلع في نفسي حقّاً، حتى أنني لا أقوى على أن أنطق بكـ.. بكلمة! لقد ظننت أن لحظتي الأخيرة قد حانت!».. وصاحت الوصيفة الثانية، وهي تبرز من وراء الستائر: «أفهكذا يتصرَّف الناس؟».. وقالت دنياشا، وهي تخرج من مخدع مولاتها: «لقد انزعجت السيدة نفسها. فما الذي تقصده إذ تقتحم الدار من مدخل الخادمات، دون ما استئذان؟.. يا لك من فلاح جلف!».

لم يحاول دوتلوف أن يلتمس لنفسه الأعذار، بل قال إنه راغب في أن يقابل السيدة. فقالت دنياشا: «إنها متوعكة المزاج!». وفي تلك اللحظة، أطلقت أكسيوتكا ضحكاً عالياً، بدا أنها لم تكن تقوى على كبحه، حتى أنها اضطرت إلى أن تدفن وجهها في وسادة السرير. وظلت ساعة لا تقوى ـ رغم تهديدات دنياشا وعمتها ـ على أن ترفع وجهها فترة، دون أن تنفجر في الضحك ثانية، وكأنما كان ثمة شيء يفجر الضحك في صدر ثوبها الوردي المنقوش، وفي شدقيها المضرَّجين بالحمرة. فلقد لاح لها أن من المضحك كل الإضحاك أن يستولي الخوف على الجميع ـ إلى هذا الحد ـ وراحت تدس رأسها في الوسادة، وتدق الأرض بنعليها، وكل جسمها يهتز بعنف لفرط ضحكها!

ووقف دوتلوف في مكانه، وراح يطيل النظر إليها بإنعام، وكأنه يستوثق مما أصابها. ولكنه لم يلبث أن تحوَّل عنها، دون أن يكتشف سرَّ ما ألمَّ بها، وعاد يقول: «الواقع أن.. الأمر.. الأمر على جانب

عظيم من الأهمية. وليس عليك سوى أن تدخلي إلى السيدة، فتقولي لها إن فلاحاً وجد الخطاب الذي فيه النقود؟». فتساءلت دنياشا: «أية نقود؟». وقرأت ـ قبل أن تحمل النبأ إلى السيدة ـ ما كان متكوباً على المظروف، وسألت دوتلوف عن المكان والزمان اللذين وجد فيهما النقود التي كان على پوليكي أن يحضرها من المدينة. حتى إذا استمعت إلى كل شيء، دفعت عن طريقها الخادم الصغيرة ـ التي كانت لا تزال تتلوّى لفرط الضحك ـ وأقصتها إلى البهو الخارجي، ثم دخلت إلى سيدتها.

*

دُهش دوتلوف حين أبت السيدة أن تستقبله، ولم تقل لدنياشا شيئاً معقولاً.. فقد كان كل ما قالته: «لست أدري شيئاً عن هذا الخطاب، ولا أريد أن أعرف شيئاً!.. أي فلاح؟ وأية نقود؟.. لا أستطيع، ولا أريد أن أرى أحداً!.. ليتركني هذا الفلاح بسلام!».

قال دوتلوف، وهو يقلّب المظروف بين يديه: «ما الذي ينبغي أن أفعل؟.. إنه ليس بالمبلغ الزهيد!». ثم سأل دنياشا: «ما الذي كتب عليه؟». فعادت الفتاة تقرأ العنوان.. ودوتلوف في شك من أمره، وقد بقي في نفسه شيء من الأمل في أن النقود قد لا تكون نقود السيدة، وأن العنوان لم يقرأ له كما ينبغي أن يقرأ.. ولكن دنياشا قطعت كل شك ورجاء بشأن المبلغ والعنوان، فدس المظروف في صدره وهو يتنهّد، وهمَّ بالانصراف قائلاً: «أعتقد أن عليَّ أن أسلمه إلى ضابط الشرطة». فاستوقفته دنياشا قائلة: «مهلاً!.. سأحاول مرة أخرى».. كانت قد أعملت فكرها بعد أن اختفى المظروف في صدر معطف الفلاح، فلم تشأ أن تفوّت على سيدتها المبلغ، وقالت: «هاتِ هذا الخطاب!». فأخرج دوتلوف الخطاب ثانية، ولكنّه تردد برهة قبل أن يضعه في يد دنياشا الممدودة. ثم قال: «قولي إن سمعان

دوتلوف قد وجده في الطريق..».

ـ حسن.. هاته!

ـ لقد خُيِّل إليَّ أنه ليس ذا قيمة.. مجرد خطاب! ولكن جندياً قرأ لي ما كُتب عليه عن وجود نقود بداخله..

ـ لا بأس.. إذاً، هاته!

فقال دوتلوف: «إنني لم أجرؤ على الذهاب إلى أي مكان، ولا إلى بيتي قبل أن..»، وسكت لحظة، ثم استطرد دون أن يتخلّى عن المظروف الثمين: «قولي هذا للسيدة!».. وأخيراً، أخذت دنياشا الخطاب منه، ودخلت على مولاتها من جديد. فصاحت السيدة في لهجة عاتبة: «أوّاه، يا إلّهي!.. لا تحدثيني يا دنياشا عن هذه النقود!.. فقط تصوّري ذلك الطفل الصغير..!». وارتجفت وهي تتمثَّل ابن أكولينا الميت، بينما عادت دنياشا تقول: «إن الفلاح لا يدري لمن تريدين أن يُعطى هذا المبلغ يا مولاتي!». وهنا فتحت السيدة المظروف، فارتجفت لمرأى النقود، ووجمت فترة وهي شاردة البال، ثم قالت: «يا للنقود البغيضة!.. ما أكثر ما تُحدث من آثام!». فقالت دنياشا: «إنَّ دوتلوف هو الذي أحضرها يا مولاتي. فهل تأمرين بأن ينصرف، أو تتكرمين بالخروج لكي تقابليه؟.. وهل النقود كاملة لم تمس؟».

فجأة، قالت السيدة وهي تتلمّس يد دنياشا لتتشبث بها: «لا أريد هذه النقود.. إنها نقود رهيبة! ما أكثر ما فعلت! أنبئيه بأن له أن يأخذها إذا شاء!». وراحت تردّد على مسمع من دنياشا المذهولة: «أجل، أجل، أجل!.. دعيه يأخذها بأكملها، وليفعل بها ما يشاء!». وهتفت دنياشا، وهي تبتسم، وكأنها تحايل طفلة: «ألف وخمسمائة روبل؟!». فصاحت السيدة بصبر نافد: «دعيه يأخذها بأكملها!.. كيف لا تفهمينني؟ إنها نقود منحوسة، فلا تحدثيني عنها بعد الآن!..

ليأخذها الفلاح الذي عثر عليها! هيا!».

خرجت دنياشا إلى حجرة الوصيفة، فسألها دوتلوف: «هل وجدت المبلغ كاملاً؟». فأجابت دنياشا، وهي تسلّمه المظروف: «يحسن بك أن تحصيه بنفسك، فقد أمرت بأن أسلمك إياه!». ودس دوتلوف قلنسوته تحت إبطه، وانحنى إلى الأمام، وشرع يحصي المبلغ. ثم سأل: «هل لديكم عداد؟»(*). فلقد خطر لدوتلوف أن السيدة كانت حمقاء لا تحسن العد، وأن هذا هو الذي دعاها إلى أن تأمره بعدّ النقود. ولكن دنياشا قالت بجفاء: «تستطيع أن تعدها في بيتك.. فالنقود لك!.. لقد قالت السيدة: لا أريد أن أراها، فدعيها للرجل الذي أحضرها!». وحملق دوتلوف في دنياشا، دون أن يقيم ظهره المنحني، بينما بسطت عمة الوصيفة راحتيها، وهتفت: «آه، أيتها الأم المقدّسة! أي حظ ساقه الرب إلى هذا الرجل! آه، أيتها الأم المقدّسة!». ولم تستطع الوصيفة الثانية أن تصدق ما سمعت فهتفت بزميلتها: «لا أراك جادة يا أقدوشيا باقلوقنا.. إنك تمزحين!». فقالت دنياشا، دون أن تخفي استياءها: «أمزح؟! حقّاً!.. لقد أمرتني بأن أُعطي الفلاح النقود.. هاك، النقود وامض!.. مصائب قوم عند قوم فوائد!». فقالت العمة: «ما هذا مجال المزاح.. إنها ألف وخمسمائة روبل!». فعقّبت دنياشا قائلة: «بل هي أكثر!». ثم أردفت قائلة لدوتلوف في سخرية: «يجب أن تقدِّم شمعة بعشرة كوبكات للقديس نيقولا.. لماذا لا تثوب إلى رشدك؟.. لو أن هذه النقود آلت إلى رجل فقير..! ولكن هذا الرجل أوتي وفرة من المال!».

وأدرك دوتلوف أخيراً أن الأمر لم يكن مزاحاً، فشرع يجمع

(*) إطار خشبي تمتد بعرضه أسلاك فيها قطع من الخرز، يستخدم لتعليم الأطفال العد. وكان استعماله شائعاً بين فلاحي روسيا قديماً.

الأوراق المالية التي كان قد نثرها حوله ليحصيها، وأخذ يضعها في المظروف. بيد أن يديه كانتا ترتجفان، وقد ظل ينظر إلى الوصيفتين ليطمئن إلى أنه لم يكن في الأمر كله أي مزاح.. بينما راحت دنياشا تقول، متظاهرة بأنها تحتقر الفلاح والمال معاً: «انظرن! إنه لا يكاد يعقل لفرط الفرح!.. دعني أضع النقود لك في المظروف!». وهمت بأن تمسك بالأوراق المالية، ولكن دوتلوف لم يدعها تصل إليها، بل كوّر الأوراق معاً، ودفعها إلى جوف المظروف، ثم تناول قلنسوته. فسألته دنياشا: «أمسرور أنت؟». فأجاب: «لا أكاد أدري من أمري شيئاً!.. الواقع..». ولم يتم عبارته، بل لوّح بيده، وابتسم، وغادر المكان وهو يوشك أن يبكي!

*

ودقّت السيدة الجرس، ثم سألت: «هل أعطيته النقود؟». فأجابت دنياشا: «أجل».

ـ وهل كان شديد الفرحة؟

ـ كان أشبه بمجنون.

ـ آه!..ناديه ثانية، فإني أريد أن أسأله كيف عثر على الخطاب. ادعيه إلى هنا، فلست أقوى على مبارحة المخدع!

وهرعت دنياشا إلى الخارج، فوجدت الفلاح عند المدخل، وهو لا يزال عاري الرأس، وإن كان قد أخرج كيس نقوده، ووقف منحني القامة يفك رباطه، بينما كان ممسكاً بمظروف النقود بين أسنانه.. ولعله تصور أن النقود لن تصبح ملكاً له ما لم تكن داخل الكيس. فلمّا نادته دنياشا، اشتد به الجزع، وهتف: «ماذا جرى يا أڤدوشيا.. أڤدوشيا باڤلوڤنا؟ هل تريد السيدة أن تسترد النقود؟.. ألا تستطيعين أن تشفعي لي عندها، وأعدك أن أحضر لك بعض العسل اللذيذ؟». فقالت ساخرة: «حقّاً!.. فما أكثر ما أحضرت!».

وفتح الباب مرة أخرى، واقتيد الفلاح إلى حجرة السيدة، وهو أبعد ما يكون عن الابتهاج، فقد راح يفكر في سريرته ـ وهو ماضٍ خلال الحجرات، رافعاً قدميه أكثر ممّا ينبغي، وكأنه يخطو خلال حشيش طويل يحاول أن لا يسحقه بنعليه المصنوعين من اللحاء: «ويلاه! لسوف تسترد النقود!». ولم يتبيَّن شيئاً ممّا كان حوله.. ومرَّ بجوار مرآة، فرأى زهوراً، وفلاحاً في حذاءين من اللحاء، يرفع قدميه عالياً.. ثم رأى سيداً يضع على عينيه نظارتين، في رسم على الجدار.. ثم شيئاً أخضر كأنه الحوض الخشبي، وشيئاً أبيض.. وفجأة، بدا الشيء الأبيض يتكلّم، فهو لم يكن سوى السيدة.. ولم يفقه دوتلوف شيئاً، بل اكتفى بأن راح يحملق أمامه، دون أن يعرف أين كان، وقد خُيِّل إليه أن ضباباً يكتنف كل شيء حوله!

ـ أهذا أنت يا دوتلوف؟

ـ أجل يا سيدتي.. تماماً كما كان، لم أمسه.. إنني لم أكن مسروراً، فليساعدني الله!.. لشدّ ما أرهقت جوادي، لأصل إلى هنا على عجل!

فقالت السيدة في ازدراء، وإن بدت ابتسامتها رقيقة: «حسن، إنه حظك!.. خذه، خذه لنفسك!». ودارت عيناه في محجريهما، بينما استطردت السيدة: «إنني مسرورة إذ آل إليك المبلغ، فليجعله الله ذا نفع لك! أفمسرور أنت الآن؟». فأجاب مرتبكاً: «وكيف لا أكون مسروراً؟.. إنني مسرور جدّاً يا مولاتي.. مسرور جدّاً! سأصلي دائماً من أجلك، وأدعو لك في صلواتي!.. إنما أنا مسرور بوجودك على قيد الحياة، والحمد لله!».

ـ وكيف عثرت عليه؟

ـ أعني أن بوسعنا دائماً أن نبذل قصارى طاقتنا من أجل مولاتنا، في شرف وأمانة، ودون..

وهنا قالت دنياشا: «إنه مرتبك يا مولاتي!».

ـ كنت قد صحبت ابن أخي المجنَّد، وفيما كنت أقود عربتي عائداً، عثرت على الخطاب في الطريق.. ولا بد أن پوليكي قد أسقطه عَرَضاً.

ـ لا بأس، انصرف.. انصرف أيها الرجل الطيب، ويسرني أنك أنت الذي عثرت عليه!

وقال دوتلوف: «لكم أنا مسرور يا مولاتي!». ثم تذكّر أنه لم يقدم لها الشكر اللازم، ولم يدر كيف يتصرف. وابتسمت السيدة ودنياشا، وإذ ذاك شرع الرجل يسير وكأنه يخطو بين أعشاب عالية، وهو يكبح نفسه بعناء حتى لا يجري، وقد داخله الخوف من أن يستوقف فتؤخذ منه النقود!

14

جثة پوليكي

ما إن خرج دوتلوف من الدار، حتى عرّج صوب أشجار الزيزفون، مبتعداً عن الطريق، ثم فك حزامه ليخرج كيسه بيسر، وغيَّب فيه النقود. كانت شفتاه تختلجان وتنبسطان وتتقاربان، دون ما صوت، فلمّا وضع النقود في الكيس، ثبَّت حزامه، ورسم الصليب على صدره، ثم عاد إلى الطريق مترنِّحاً ـ وكأنه ثمل ـ تحت وطأة الأفكار التي تدافعت إلى ذهنه. وفجأة، رأى شبح رجل مقبلاً عليه فصاح، فإذا به «إيڤيم» وقد أمسك بيده هراوة، وسهر على الحراسة عند مساكن الرقيق.

قال إيڤيم بابتهاج، وهو يقترب منه، وقد أمضَّه السهر وحيداً: «آه، أهذا أنت يا أبي سمعان؟!.. هل ودعتم المجنَّدين يا أبتِ؟». فأجابه دوتلوف: «ودّعناهم.. وماذا تفعل؟»

ـ لقد عينت لحراسة پوليكي الذي شنق نفسه!

ـ وأين هو؟

ـ فوق، معلّق في الفراغ تحت السقف، كما يقولون!

وأشار بهراوته نحو سقف مساكن العبيد، فتطلع دوتلوف حيث أشار. ومع أنه لم ير شيئاً، فقد قطّب حاجبيه، وأنعم بصره. ثم هز رأسه. وقال إيڤيم: «لقد جاء ضابط الشرطة، كما قال الحوذي، وسينزلون الجثة حالاً. أليست هذه ليلة رهيبة يا أبتِ؟.. ما من شيء يحملني على أن أصعد إليه ليلاً، ولو أمرت أمراً.. لن أصعد ولو شاء

إيغور ميخائيلوڤيتش أن يقتلني..» وكان دوتلوف يردِّد، دون أن يفقه ما يقول: «يا لها من خطيئة!.. آه، يا له من إثم!». وهمَّ بأن يمضي في طريقه، فإذا صوت إيغور ميخائيلوڤيتش يستوقفه، إذ انطلق من مدخل مكتبه قائلاً: «اسمع، أيها الحارس! تعال!. فلبى إيڤيم نداءه. وإذ ذاك سأله: «من ذلك الفلاح الذي كان يقف معك؟». فأجابه إيڤيم: «إنه دوتلوف». فصاح وكيل الأعمال: «آه، أهذا أنت يا سمعان! تعال معنا!».

واقترب دوتلوف.. وعلى ضوء مصباح كان الحوذي يحمله، رأى الشيخ دوتلوف إيغور ميخائيلوڤيتش يقف مع رجل قصير القامة، يحيط بقبعته شريط، وقد ارتدى معطفاً رسميّاً طويلاً.. ذلك كان ضابط الشرطة. وأحس الشيخ بشيء من عدم الارتياح، ولكنه لم يجد مفرّاً من أن يقف أمامهما، بينما كان إيغور يقول: «وأنت يا إيڤيم.. إنك فتى شجاع، فاصعد إلى الفراغ الذي يلي السقف، حيث شنق پوليكي نفسه، وأصلح وضع السلم ليرقى صاحب الفخامة إليه». وهرع إيڤيم ـ الذي كان منذ لحظة يقول إن شيئاً في الدنيا لن يحمله على الصعود ـ فيمّم شطر المكان، وحذاءاه الخشبيان يقرقعان.

وأشعل ضابط الشرطة عود ثقاب، أوقد به غليوناً.. كان يقيم على حوالى ميل ونصف الميل، ولمّا كان قد تلقى من رئيسه تقريعاً شديداً ـ لإفراطه في الشراب ـ فقد أبدى همة وحمية، فوصل في الساعة العاشرة مساء، ورغب في أن يرى الجثة للتوّ!.. وتحوّل إيغور ميخائيلوڤيتش إلى دوتلوف فسأله عما جاء به. ولكي يجيبه دوتلوف، راح يروي له كيف عثر على النقود، وما فعلته السيدة، وقال إنه كان في طريقه إلى إيغور ميخائيلوڤيتش ليسأله رأيه. وشدّ ما جزع حين سأله وكيل الأعمال أن يعطيه المظروف، ثم أخذ

يفحصه.. وتناول ضابط الشرطة المظروف بدوره، فأمسك به للحظة وجيزة، وسأل دوتلوف عن بعض الأمور بشيء من الجفاء. وأخذ الشيخ يقول لنفسه: «واحسرتاه! لقد طارت النقود!». ثم مضى يتلمّس تسويغ أمره، ولكن الضابط لم يلبث أن ناوله النقود ثانية، وهو يقول: «يا له من حظ، لغبي ضعيف العقل!». فقال إيغور ميخائيلوڤيتش: «لقد واتاه في الوقت المناسب، فقد كان عائداً بعد أن رافق ابن أخيه المجنَّد. وبوسعه الآن أن يفتديه!».. وقال الضابط: «آه!». ثم سار نحو مساكن الرقيق.

تحوَّل إيغور ميخائيلوڤيتش نحو دوتلوف: «هل ستفتديه.. أقصد إيليشا؟». فقال دوتلوف: «وكيف لي أن أفتديه؟.. هل ستكون ثمة نقود كافية؟.. ثم، قد تكون الفرصة فاتت!». فقال وكيل الأعمال: «أنت أدرى بذلك!». وتبعا ضابط الشرطة. واقتربوا من مساكن الرقيق، حيث كان الحراس الكريهو الرائحة يقفون في الردهة، ومعهم مصباح.. ولاحوا وكأنهم مذنبون، ولعل ذلك كان عائداً إلى الرائحة الكريهة التي كانوا يبثونها حولهم.. وكانوا جميعاً صامتين. فسأل ضابط الشرطة: «أين هو؟».. فقال إيغور ميخائيلوڤيتش هامساً: «هنا». ثم أردف قائلاً لإيڤيم: «إنك فتى شجاع، فتقدَّم الضابط، ومعك المصباح!». وكان إيڤيم قد وضع لوحاً مستقيماً من الخشب، فوق قمة السلم. وبدا أنه فقد كل خوف، فصعد السلم، طاوياً كل درجتين أو ثلاث معاً، مبتهجاً، ملقياً الضوء على طريق ضابط الشرطة. وعندما غابا في الفراغ الذي يلي السقف، تنهَّد دوتلوف، ووقف، وإحدى قدميه على أدنى درجات السلم، وتبعهما وكيل الأعمال.

مرت دقيقتان أو ثلاث. وكان وقع الأقدام ـ تحت السقف ـ قد انقطع، ما نمَّ عن أنهما بلغا الجثة. وما لبث إيڤيم أن نادى من أعلى: «أبتاه، إنهم يريدونك!». فبدأ دوتلوف يرتقي السلم. ولم يكن ضوء

المصباح يكشف سوى الجزء الأعلى من جسم كل من ضابط الشرطة وإيغور ميخائيلوڤيتش، خلف العوارض الخشبية. وكان ثمة شخص آخر يقف خلفهما وظهره نحو فتحة المكان.. وكان هذا هو پوليكي. وصعد دوتلوف، ثم توقف، ورسم علامة الصليب على صدره.. وقال ضابط الشرطة: «أديروه يا أولاد!». فلم يتحرك أحد. وإذ ذاك قال إيغور ميخائيلوڤيتش: «إيڤيم.. إنك فتى جسور!». فتقدَّم «الفتى الجسور»، وأدار پوليكي، ووقف إلى جانبه، وهو ينقل بصره - وقد تهلَّل وجهه - بين پوليكي وضابط الشرطة، كرجل يعرض أمهق(*) أو «جوليا باسترانا»(**)، وينقل بصره بين الناس وما يعرض، وهو على استعداد لأن يفعل كل ما يبتغيه النظارة.

وقال ضابط الشرطة: «أدره مرة أخرى!». فأُدير پوليكي، وذراعاه يتأرجحان قليلاً، وقدماه يحتكان بالرمال. وعاد الضابط يقول: «أمسكوه، واهبطوا به». فسأل إيغور ميخائيلوڤيتش «هل نقطع الحبل كله يا صاحب الفخامة؟.. آتونا بفأس يا أولاد!».. ولم يكن ثمة بد من تكرار التعليمات على الحراس ودوتلوف، قبل أن يشرعوا في العمل. على أن «الفتى الجسور» حمل پوليكي كما يحمل جثة خروف.. وما لبث الحبل أن قُطع في النهاية، وحملت الجثة إلى أسفل، ثم نشر عليها غطاء. وقال ضابط الشرطة إن الطبيب سيصل في اليوم التالي.. وصرف الجميع.

(*) الأمهق هو الشخص الشديد البياض وليس نيّراً أو لامعاً كالجصّ ونحوه، ويسمى عادة «عدو الشمس».

(**) جوليا باسترانا كانت مخلوقاً نصف امرأة ونصف حمار، عرضت في روسيا منذ قرنين تقريباً.

15

الشبح!

مشى دوتلوف إلى بيته، وهو لا يزال يحرّك شفتيه. وكان ـ في البداية ـ يشعر بتوجُّس وتشاؤم، ولكن هذا الشعور لم يلبث أن زايله، حين اقترب من البيت، وتولاه ابتهاج أخذ يسري في فؤاده تدريجاً. وسمع أغاني وأصوات السكارى تنبعث من الضيعة.. ولم يكن دوتلوف قد عاقر الخمر يوماً، ومن ثم فقد يمَّم ـ في هذه المرة أيضاً ـ شطر بيته مباشرة. وكان الوقت متأخِّراً، حين ولج من الباب، فإذا زوجته العجوز نائمة. وكان ابنه الأكبر وأحفاده نياماً على الفرن، في حين كان ابنه الثاني نائماً في المخزن. ولم يكن صاحياً سوى زوجة إيليشا، فقد جلست تبكي.. عارية الرأس، على مقعد خشبي، وفي ثوب العمل اليومي القذر. ولم تنهض لاستقباله، بل ازدادت بكاءً، وراحت ترثي حالها عندما دخل. وكانت ـ كما قالت زوجته العجوز ـ تجيد الندب والنحيب بطلاقة، ولا سيما أنَّ صغر سنها لم يكن قد أتاح لها فرصة للتدرّب!

واستيقظت العجوز فأعدَّت عشاءً لزوجها.. وأبعد دوتلوف زوجة إيليشا عن المائدة قائلاً لها: «كفى! كفى!». فابتعدت أكسينيا عن الطاولة، واستلقت على أريكة خشبية، وواصلت الندب والنشيج. ووضعت العجوز العشاء على المائدة، ثم رفعته ـ فيما بعد ـ في صمت.. ولم يتكلم الشيخ أيضاً. وبعد أن صلّى لله شكراً ـ عقب العشاء ـ تجشَّأ، وغسل يديه، ثم رفع العدّاد عن مسمار في الجدار، وذهب إلى المخزن. وهناك، راح والعجوز يتكلّمان همساً لبرهة، ثم

شرع ـ بعد انصرافها ـ يعدّ على العدّاد، وليس من صوت سوى صلصلة الخرز.. وأخيراً، رفع غطاء صندوق كبير ـ هناك ـ وهبط إلى فراغ تحت الأرض. وقضى وقتاً طويلاً في الحجرة والفراغ الذي كان تحتها. وعندما عاد إلى غرفة الجلوس كان الظلام يعمّ الكوخ، إذ إن شظية الخشب ـ التي كانت تستخدم كشمعة ـ انطفأت، فأشعلها من جديد. وكانت زوجته ـ الهادئة، الصامتة في أثناء النهار ـ قد تكوّرت على السرير الخشبي وملأت الكوخ غطيطاً. أمّا زوجة إيليشا، الصاخبة، فكانت تتنفّس بهدوء، وقد نامت هي الأخرى.. كانت ترقد على الأريكة الخشبية في الثياب عينها التي كانت فيها طيلة يومها، وليس من شيء تحت رأسها يعوّضها من الوسادة!

وراح دوتلوف يصلّي، ثم نظر إلى زوجة إيليشا وهزَّ رأسه، وأطفأ الخشبة.. وتجشَّأ ثم صعد إلى قمة الفرن، حيث ينام إلى جوار حفيده الصغير. وألقى بنعليه المكسوّين بلحاء الشجر إلى الأرض في الظلام، واستلقى على ظهره متطلعاً إلى ألواح السقف الخشبية التي كانت فوق رأسه مباشرة، والتي كانت لا تتّضح تقريباً.. وأخذ ينصت إلى أزيز الصراصير وهي تطير مرتطمة بالجدران، وإلى التنهّدات، والزفرات، والغطيط، وحفيف قدم تحتك بأخرى، وجلبة الماشية في الخارج. وانقضى وقت طويل قبل أن ينام، بزغ خلاله القمر، فأضاءت أشعته الكوخ، واستطاع الشيخ أن يرى أكسينيا في ركنها، وشيئاً لم يستطع أن يتبيَّن ما إذا كان سترة نسيها ابنه، أو وعاء غسيل تركته النسوة هناك، أو رجلاً قابعاً!.. ولعلّه كان قد بدأ ينعس ـ إذ ذاك ـ وربما لم يكن قد بدأ، ولكنه ـ على أي حال ـ شرع يحملق في الظلام.. والظاهر أن الروح الشريرة التي قادت پوليكي إلى ارتكاب فعلته الشنيعة، والتي كان كل من في مساكن العبيد يشعرون بوجودها ـ في تلك الليلة ـ قد بسطت جناحيها عبر الضيعة إلى الكوخ الذي

كانت فيه النقود التي استخدمتها في القضاء على پوليكي!.. وأيّاً يكن الأمر، فقد أحسَّ دوتلوف بوجود الروح الشريرة، فاضطرب، ولم يعد في وسعه أن ينام، ولا أن ينهض. وبعد أن لاحظ الشيء الذي لم يستطع أن يتبيَّنه، تمثَّل إيليشا وقد أوثق كتافه، ووجه أكسينيا ونحيبها المحزن، وتذكر پوليكي ويديه اللتين تأرجحتا!

فجأة، خُيِّل إلى الشيخ أن شخصاً مرق بجوار النافذة، فقال لنفسه: «مَن عساه يكون؟.. أيكون شيخ القرية وقد أقبل مبكِّراً يحمل مذكرة لي؟». وسمع خطًى في الردهة، فساءل نفسه: «كيف فتح الباب؟.. أولم تضع العجوز المزلاج، عندما عادت من الردهة؟». وبدأ الكلب ينبح في فناء البيت، والروح الشريرة ـ كما حدس الشيخ فيما بعد ـ تخطو في الردهة، وكأنها تبحث عن الباب. ثم مرَّت، وبدأت تتحسس الجدار، وتعثّرت في وعاء فوقع على الأرض محدثاً صوتاً. ثم عادت تتحسّس، وكأنها تبحث عن المزلاج الذي يغلق الباب. وأمسكت بالمزلاج ورفعته.. وسرت في جسد الشيخ قشعريرة. ورفعت الروح الخبيثة المزلاج ودخلت متخذة شكل رجل.. وأدرك دوتلوف أنها الروح الشريرة، فحاول أن يرسم علامة الصليب على صدره، ولكنه لم يقوَ.. وسار الشبح إلى المنضدة التي كانت مكسوّة بغطاء، فجذبه وألقاه على الأرض، وشرع يصعد إلى قمة الفرن!.. وأدرك الشيخ أن الروح الخبيثة اتخذت شكل پوليكي وقد كشَّر عن أنيابه، وراحت يداه تتأرجحان حوله.. وصعد، ثم ارتمى على صدر الشيخ، وبدأ يخنقه!

قال پوليكي: «إنَّ النقود لي»، فحاول سمعان أن يقول: «دعني.. لن أمسَّها!»، ولكنه لم يستطع. وأخذ پوليكي يثقل عليه، وكأنه جبل صُلب. وكان دوتلوف يعرف أنه لو استطاع أن يردِّد أدعية، لرحلت الروح الخبيثة عنه، وكان يعرف أية أدعية يجب أن يتلو، ولكنه لم

يستطع أن ينطق.. وأرسل حفيده ـ الذي كان ينام إلى جواره ـ صرخة عالية، وشرع يبكي، فقد دفعه جده إلى الحائط، وراح يضغطه فيه. وحلّت صرخة الطفل عقدة لسان الشيخ، فانطلق: «لينهض الرب!..»، فبدأ ثقل الشبح يخف.. «وليتفرّق شمل أعدائه!..». وهبط الشبح عن الفرن، وسمع دوتلوف صوت ارتطام قدميه بالأرض، فمضى يردّد تباعاً كل ما كان يعرف من أدعية.. وسار الشبح إلى الباب، ماراً بالمائدة، وصفق الباب خلفه فاهتزّ الكوخ بأسره. ومع ذلك فقد ظل الجميع نياماً، عدا الجد والحفيد. فقد كان الجد يتمتم بالأدعية وهو يرتجف، بينما كان الحفيد يرهق نفسه بالبكاء، والنوم يغالبه، وقد ازداد التصاقاً بجده.

*

وعاد الهدوء يرين على الكوخ، فظل الشيخ راقداً في مكانه. وصاح ديك من خلف الجدار، بجانب أذن دوتلوف.. وسمع نقنقة الدجاج، وصوت ديك فتيّ يحاول أن يرد على الديك الكبير، دون أن يوفّق. وتحرك شيء على ساق الشيخ.. وإذا به قطة ما لبثت أن قفزت إلى الأرض دون أن تحدث صوتاً، وراحت تموء بجوار الباب. ونهض الشيخ ففتح النافذة، وإذا الطريق معتمة موحلة. وكان مقدّم العربة قريباً من النافذة. ورسم الرجل علامة الصليب على صدره، ثم خرج حافي القدمين إلى فناء البيت، حيث كانت الخيل. وكان من السهل أن يتبيَّن المرء أن الشبح قد مرَّ بالمكان، فإنَّ الفرس، التي ولدت من عهد قريب، كانت تقف إلى جوار وعاء به علف، وقد لفت الحبل الذي ربطت به حول ساقها، وراحت تنتظر أن يأتي صاحبها فيخلّصها.. أما رضيعها، فقد تعثَّر وسقط على كوم من الروث. فأنهضه الشيخ وأقامه على قوائمه، وخلّص الفرس وقدم لها علفاً، ثم عاد إلى الكوخ.

واستيقظت العجوز وأشعلت فتيلاً، فقال لها دوتلوف: «أيقظي الولدين، فإني ذاهب إلى المدينة!». ثم تناول شمعة صغيرة كانت أمام أيقونة، فأشعلها، وهبط بها في الفراغ الذي كان أسفل المخزن. وعندما صعد ثانية، كانت الأضواء تسطع في نوافذ جميع البيوت المجاورة، إذ استيقظ الشباب متأهبين للعمل، وأخذت النسوة يرحن ويجئن بدلاء الحليب. وكان أغنات يربط الجواد إلى إحدى العربات، بينما كان الابن الثاني يُعنى بتشحيم عجلات عربة أخرى. ولم تعد الزوجة الشابة تندب حظها، بل نظّفت نفسها، ولبست ثوباً نظيفاً، وعقدت شالاً حول رأسها، وجلست تنتظر ريثما يحين الوقت للذهاب إلى المدينة كي تودّع زوجها.

وبدا الشيخ عبوساً، رصيناً، فلم ينبس لأحد ببنت شفة، بل ارتدى أجمل سترة لديه، وشدّ حزامه، واستعدّ للذهاب إلى إيغور ميخائيلوڤيتش ونقود «پوليكي» في صدر معطفه. وقال لابنه الذي كان يدير العجلتين حول محوريهما بعد أن كساهما بالشحم: «لا تتلكأ، فلسوف أعود بعد دقيقة.. وتأكد من أن كل امرئ على أتم استعداد!».. ووجد وكيل أعمال السيدة قد استيقظ لتوه، وأخذ يحتسي الشاي، ويتخذ استعداده ليذهب - هو الآخر - إلى المدينة ليسلّم السلطات مجنَّدي الضيعة.. وبادره دوتلوف قائلاً:

ـ إنني أريد أن أفتدي فتاي من الخدمة العسكرية يا إيغور ميخائيلوڤيتش. فكن كريماً! لقد قلت منذ أيام إنك تعرف شخصاً في المدينة يرغب في التطوُّع، فاذكر لي كيف أبرم هذا الأمر.

ـ ولماذا انتهيت إلى هذا القرار؟

ـ لم يكن بد من ذلك يا إيغور ميخائيلوڤيتش، فإني آسف على الفتى. إنه ابن أخي، على أية حال، ومهما يكن من أمره. إنني آسف عليه!.. إن المال سبب كثير من الخطايا.

وانحنى حتى قارب رأسه وسطه. ووقف إيغور ميخائيلوڤيتش مفكّراً، وهو يمص شفتيه محدثاً صوتاً، كما كان يحلو له أن يفعل في مثل هذه المناسبات. حتى إذا تدبَّر الأمر في رأسه، كتب ورقتين، وأخبر الشيخ بما ينبغي أن يفعل في المدينة، وكيف يفعله.. وعندما عاد دوتلوڤ إلى كوخه، كانت زوجة إيليشا الشابة قد انطلقت مع أغنات، وكانت الفرس البدينة القوية تقف مشدودة إلى عربة بجوار الباب الخارجي. فاقتطع دوتلوڤ فرعاً من شجرة، وأحكم سترته حول جسده، وارتقى العربة، ثم ساط الفرس بالفرع، فجعلها تجري مسرعة، حتى أن جنبيها لم يلبثا أن هبطا، فقد كان التفكير في أن الفرصة قد تضيع، وأن إيليشا قد يصبح جنديّاً، وتظل نقود الشيطان في حوزته.. كان التفكير في هذا كله يضنيه!

ولن أستفيض في وصف كل ما فعل دوتلوڤ في ذلك الصباح، وإنما أكتفي بأن أقول إنه كان سعيد الحظ إلى درجة عجيبة. فقد كان لدى الرجل ـ الذي أسلمه إيغور ميخائيلوڤيتش رسالة إليه ـ متطوّع على أتم الاستعداد، وكان مديناً بثلاثة وعشرين روبلاً فضيّاً، وقد أقرّ مجلس التجنيد صلاحيته. وكان سيده يطلب أربعمائة روبل فضي في مقابل تطوّعه للخدمة العسكرية بدلاً منه، وقد ظل شخص من المدينة يحاول إقناعه ـ طيلة الأسابيع الثلاثة الأخيرة ـ بأن يقبل ثلاثمائة روبل. وحسم دوتلوڤ الأمر بكلمتين: «هل تقبل ثلاثمائة وخمسة وعشرين روبلاً؟». وبسط يده. ولكن مظهره كان ينم عن أنه مستعد لأن يدفع المزيد، فلم يمد السيد يده، وأصر على الأربعمائة روبل. فقال دوتلوڤ: «أولن تقبل ثلاثمائة وربع المائة؟». وأمسك بيسراه يمنى الرجل، يعدّها كي يطبق عليها بيمناه مصافحاً، إشارة إلى الاتفاق. ولكنه ما لبث أن طوّح بيد الرجل بأقصى قوته، قائلاً وهو يشيح عنه: «أولست تقبل؟.. حسن، ليكن الله معك!». وصمت

لحظة، ثم استطرد قائلاً: «يبدو أن لا بد من هذا.. خذ ثلاثمائة ونصف المائة!.. هيّا، أحضر إذن التسريح، وهات الشاب. وهاك ورقتين من فئة العشرة روبلات كعربون.. أيكفيك هذا؟».

وحلّ دوتلوف حزامه، وأخرج النقود. ومع أن الرجل لم يسحب يده، إلاّ أنه لم يبد قبولاً تامّاً، متوقعاً أن يزيد دوتلوف في المبلغ. ولكن هذا الأخير راح يردِّد، وهو ممسك بالنقود: «لا ترتكب إثماً!.. كلنا إلى الموت يوماً!». وراح يخفّف من لهجته، ليغري الرجل ويطمئنه، فما لبث هذا أن قال: «ليكن!». وصافح يد دوتلوف، وشرع يدعو الله كي يبارك الصفقة، قائلاً: «ليهبك الله الحظ!».

وسرعان ما أيقظا المتطوِّع، وفحصاه، ثم رافقاه إلى إدارة التَّجنيد. وكان المتطوِّع مرح الروح، وقد طلب قدراً من «الروم» لينتعش، فمنحه دوتلوف بعض النقود ليشتريه. ولم يخنه جلده إلاّ عندما بلغوا ساحة مجلس التَّجنيد. وتقدَّم السيد والمتطوِّع، فوقفا طويلاً في بهو المجلس.. وكان السيد في عباءة شديدة الزرقة، والمتطوِّع في سترة قصيرة من جلد الغنم، وقد ارتفع حاجباه، وراحت عيناه تحملقان في الفضاء.. وظلاّ طويلاً يتهامسان، ويحاولان الوصول إلى مكان معيَّن، ويبحثان عن شخص معيَّن.. ولأمر ما، كانا يخلعان قلنسوتيهما وينحنيان لكل كاتب صادفهما، ثم أنصتا باهتمام إلى قرار حمله إليهما أحد الكَتَبة، من معارف السيِّد. وبدا كل أمل في إنجاز المهمة في ذلك اليوم يتبدَّد، وعاد المتطوِّع يزداد مرحاً وطرباً. وفجأة، رأى دوتلوف أمامه إيغور ميخائيلوڤيتش، فتشبَّث به لفوره، وشرع يتوسل إليه، وينحني أمامه. وساعده إيغور ميخائيلوڤيتش بهمة، فلم تحن الساعة الثالثة حتى كان المتطوِّع قد اقتيد ـ لدهشته واستيائه ـ إلى قاعة الفحص.. وفي غمرة

المرح العام ـ الذي استولى على الجميع، من العسس حتى الرئيس، دون أن يدري له سبباً ـ خلعت عنه ثيابه، وأُلبِس ثياب المجندين، وحلق شعره، وسيق إلى الباب.. وبعد خمس دقائق، عدَّ دوتلوف النقود للسيد، وتسلّم أمر تسريح ابن أخيه، فودع المتطوِّع وسيّده، وأسرع إلى حيث كان مجنَّدو بوكروفسك.

كان إيليشا وزوجته الشابة يجلسان في ركن المطبخ، فما إن أقبل الشيخ حتى أمسكا عن الكلام، وتطلّعا إليه في توجُّس، وإن بدا أنهما كانا يكبحان مشاعرهما. وأدى الشيخ صلاة ـ إرضاء للعادة التي شغف بها ـ ثم حلَّ حزامه، وأخرج منه ورقة، ونادى إلى الحجرة كلاً من ابنه الأكبر أغنات، وأم إيليشا، اللذين كانا في فناء الكوخ. وتقدَّم بعد ذلك من ابن أخيه، فقال له: «لا تأثم يا إيليشا!.. لقد آذيتني ـ ليلة الأمس ـ بكلمة.. أفلست أشفق عليك؟.. إنني لأذكر كيف أن أخي تركك لي، فهل كنت أدعك تأتي إلى هنا لو كان في وسعي أن أحول دون ذلك؟.. لقد أرسل الله لي حظّاً، ولن أبخل به عليك. هاك.. خذ هذه الورقة!». ووضع على المنضدة أمر التسريح، وسوّى أطراف الورقة بأصابع متصلِّبة، متوتِّرة.. وأقبل من الفناء فلاحو بوكروفسك، وأتباع صاحب الخان، بل والأغراب أيضاً، وقد حدسوا جميعاً ما كان يجري. ولكن أحداً لم يقطع على الشيخ حديثه الوقور، فمضى يقول: «هاك الورقة!.. لقد دفعت من أجلها أربعمائة روبل فضي، فلا تلم عمك مرة أخرى!».

ونهض إيليشا من مجلسه، ولكنه ظل صامتاً، لا يدري ماذا يقول، وقد راحت شفتاه تختلجان انفعالاً. وأقبلت أمه العجوز، فكادت ترتمي على صدره باكية، لولا أن أشار إليها الشيخ كي تبتعد، وواصل حديثه قائلاً: «لقد آذيتني ـ ليلة الأمس ـ بكلمة.. ولقد طعنت فؤادي بتلك الكلمة، وكأنها سكين!.. لقد تركك أبوك المتوفّى في رعايتي،

فكنت لي بمثابة ابن، وإذا كنت قد غبنتك في كل شيء، فكل حي يأثم!.. أليس كذلك أيها المسيحيون الأتقياء؟». وتلفّت إلى الفلاحين الذين أحاطوا بالمكان. ثم استطرد: «ها هي ذي أمك، وزوجتك، وأمر تسريحك. ولست نادماً على النقود، وإنما.. اغفر لي، من أجل المسيح!».. وجثا على ركبتيه، رافعاً ذيل معطفه، وركع على الأرض أمام إيليشا وزوجته. وحاول الشابان جهدهما أن يمنعاه، فلم يمتنع حتى مست جبهته الأرض. وإذ ذاك نهض قائماً..

وبكت أم إيليشا وزوجته فرحاً، وانسابت من الجمع كلمات الإعجاب والتقدير، فقال رجل: «هكذا الإنصاف.. هذه هي الطريقة التي تُرضي الله!». وقال آخر: «ما المال؟.. إنك لا تملك أن تبتاع امرأً بالمال!». وقال ثالث: «وما السعادة!.. ما من خلاف في أن الرجل منصف عادل!». ولم يسكت عن الثناء سوى الفلاحين اللذين كانا مسوقين إلى أداء الخدمة العسكرية، فقد انسحبا إلى فناء الخان.

*

مضت ساعتان، وانطلقت عربتا دوتلوف، مجتازتين أطراف المدينة، وقد جلس الشيخ وأغنات في الأولى، وراحت تجرها الفرس السمينة السمراء، التي تهدَّل جنباها، وتفصّد العرق من عنقها.. وكانت تهتز خلفهما خيوط علق بها بعض الخبز الذي صُنع في أشكال طريفة، والذي كان الفلاح يعتز به كهدية لأسرته، في عودته من المدينة.. أمّا في العربة الثانية ـ التي لم يكن ثمة من يمسك أعنة جوادها ـ فقد جلست الزوجة الشابة، وحماتها، وقد لفّتا رأسيهما في شالين،وبدا عليهما الفرح والهناء. وكانت الأولى تمسك ـ تحت مرولتها ـ بزجاجة من الفودكا. وجلس إيليشا القرفصاء، مولياً الحصان ظهره ـ وقد اشتد احمرار وجهه، وراح يقضم لقماً من رغيف، وهو لا يكف عن الكلام. وامتزجت

جديدنا لا يتوقف







endless rose

Le Specs

ASK ALICE

توصيل مجاني لباب بيتك

تخفيضات كبيرة وعروض مميزة

وسائل دفع متعددة منها الدفع عند الإستلام

أستبدال مجاني خلال 14 يوم

100 % منتجات أصلية

أضغط هنا للدخول للموقع

مرحبا بك في نمشي، وجهتك الاولى للتسوق عبر الانترنت. يقدم نمشي تشكيلة واسعة من الازياء والاحذية والاكسسوارات من العلامات التجارية العالمية والمحلية بالاضافة الى الماركات الحصرية الغير متوافرة بالاسواق. يمنح نمشي عملاءه تجربة تسوق سهلة وممتعة وذلك من خلال مواكبة آخر صيحات الموضة العالمية وعرض المنتجات من أشهر الماركات العالمية اضافة الى توفير خدمات عملاء من أعلى المستويات. يوفر نمشي خدمة التوصيل المجاني لجميع دول الخليج العربي ولبنان و خدمة استبدال المشتريات مجانا خلال 14 يوما.

نمشي

@THEBEST4YO



الأصوات، وقرقعة العجلات على أرض الطريق الحجرية، وصهيل الجوادين، في لحن مرح منسجم.. وأخذ الجوادان يضاعفان من سرعتهما، وهما يذبان الهواء بذيليهما. وقد لجَّ بهما الحنين إلى الكوخ.. بينما كان المارة ـ من مشاة وركوب ـ يلتفتون، ليتأملوا الأسرة السعيدة!

وما إن غادر آل دوتلوف المدينة، حتى صادفوا جماعة من المجنَّدين، وقف فريق من أفرادها في حلقة أمام حانة. وكان أحد المجنَّدين يعزف على البالاليكا بشدة، وقد بدا وجهه غير طبيعي، كما هي وجوه المجنَّدين عندما يحلق شعر مقدم رؤوسهم!.. بينما راح آخر يرقص في وسط الحلقة، وهو عاري الرأس، وقد أمسك بزجاجة من الڤودكا في يده. واستوقف أغنات الفرس، وهبط ليحكم ربط أجزاء سرجها. وأخذ آل دوتلوف جميعاً يتأملون الراقص في فضول، وإعجاب، وطرب. ولم يبدُ على المجنَّد أنه رأى أحداً، ولكنه أحس بالإعجاب العام، فزاده هذا إقبالاً وخفّة. وراح يرقص بسرعة، وقد عقد حاجبيه، وتضرّج وجهه، وانفرجت شفتاه عن ابتسامة فقدت كل معنى. وكان يغمز بعينه إلى عازف البالاليكا الذي شرع يعزف بحرارة أشد، ويداعب كل الأوتار، بل ويدق بعظام أصابعه على ظهر الآلة. وكان المجنَّد يتوقف لحظات، ولكنه يبدو ـ رغم توقفه ـ كما لو كان مستمرّاً في الرقص. ثم شرع يهز كتفيه في بطء. وفجأة، دار حول نفسه، وقفز في الهواء، مطلقاً صرخة مدوّية، ثم هبط، فأقعى، وبسط إحدى ساقيه، وأتبعها بالأخرى. وضحك الصبية، وهزت النسوة رؤوسهن، بينما ابتسم الرجال إعجاباً. وكان ثمة جاويش مسنّ وقف ساكناً، وكأنما كانت نظراته تقول: «أوتظنون أنه رائع.. لقد ألفنا هذه الرقصة وحذقناها!».

وصاح العازف وهو يشير إلى دوتلوف: «اسمع يا «أليخا».. هاك

كفيلك!».. فهتف أليخا: «أين؟.. أهلاً بك يا أعز صديق!».. كان هو المجنَّد نفسه الذي كان دوتلوف قد دفع المال ليحل محل ابن أخيه في الجندية. وتقدّم مترنّحاً على ساقيه المتعبتين، وقد رفع زجاجة الڤودكا فوق رأسه، وتحرّك نحو العربة، وهو يصيح في العازف: «هات كوباً يا ميشكا!.. أيها السيِّد! أيها الصديق الأعزّ! يا له من سرور!». وأسند رأسه الواهن إلى حافة العربة، وشرع يدعو الرجال والنساء إلى الڤودكا. فشرب الرجال، وأبت النسوة.. وكانت ثمة امرأة تبيع بعض المأكولات ـ واقفة بين الحشد ـ فلمحها أليخا، وأمسك بصحفتها، فأفرغ كل محتوياتها في العربة، وصاح في صوت خنقته العبرات، وهو يخرج كيس نقوده، ويطوح به إلى ميشكا: «سأدفع، فلا تخافي أيتها اللعينة!».

ووقف مسنداً مرفقيه إلى العربة، متأمِّلاً الجالسين فيها من خلف دموعه، ثم قال: «أين الأم.. أهذه أنت؟ يجب أن أكرمك!». ووقف يفكر لحظة، ثم دسَّ يده في جيبه، وأخرج منديلاً جديداً، وأسرع فنزع منديلاً آخر كان قد لفه حول وسطه ـ تحت سترته ـ ووشاحاً أحمر كان يلفه حول عنقه، وكوّرها جميعاً، ثم ألقى بها في حجر العجوز، وهو يقول بصوت كان يحتبس تدريجاً: «إليك!.. إنني أقدمها جميعاً لك!». فقالت العجوز لدوتلوف، الذي أقبل من عربته: «لماذا كل هذا؟.. انظر طيبة هذا الفتى!». وكان أليخا قد سكن تماماً، وبدا مستلب الحواس، ولاح كأنه يوشك أن ينام. وأخذ ينكس رأسه رويداً رويداً، وهو يتمتم: «إنما أنا ذاهب إلى الجندية من أجلك.. من أجلك أنا ذاهب إلى الهلاك! هذا هو السبب في أنني أُعطيك هذه الهدايا!».. وصاح واحد من وسط الجمع: «أعتقد أن له هو الآخر أمّاً! يا له من ساذج! واآسفاه عليه!». فرفع أليخا رأسه، وقال: «إنَّ لي أمّاً.. ولي أب أيضاً، وقد تخلى عني الجميع». ثم

تحوَّل إلى أم إيليشا قائلاً: «اسمعي، أيتها العجوز، لقد منحتك هدايا. أنصتي إليَّ بحق المسيح!.. اذهبي إلى قرية ڤودنو، واسألي عن العجوز نيكونوڤنا.. إنها أمي!.. سلي عن العجوز نيكونوڤنا، في الكوخ الثالث، من آخر الصف، بالقرب من البئر الجديدة. وقولي لها إن ابنها أليخا.. هل فهمت!.. اعزف أيها الموسيقي!».

وتمتم بكلام غير مسموع، ثم عاد يرقص لتوه، وهو يطوّح بالزجاجة وما تبقى فيها من ڤودكا إلى الأرض. وصعد أغنات إلى عربته، وهمَّ بأن يستأنف المسير، فقالت العجوز للمجنَّد، وهي تلف عباءتها حولها: «وداعاً! ليباركك الربّ!». فتوقف أليخا فجأة، وصاح وهو يهز قبضتيه في وعيد: «اذهبي إلى الشيطان!.. لعلك أمّه..». ورسمت أم إيليشا علامة الصليب متعوِّذة. وانطلقت العربتان. ووقف أليخا في وسط الطريق بقبضتين مشدودتين، ونظرة مهتاجة، وراح يسب الفلاحين بكل ما أوتي من سباب. ثم تهدَّج صوته، وارتمى على الأرض، حيث كان يقف!

وسرعان ما بلغ آل دوتلوف الحقول، ولم يعودوا يبصرون جماعة المجنَّدين. وبعد أن قطعوا أربعة أميال، هبط أغنات من عربته ـ التي كان أبوه قد نام فيها ـ وسار إلى جوار عربة إيليشا.. واقتسم مع الشاب زجاجة ڤودكا كانا قد اشترياها من المدينة.. وإن هي إلا لحظة، حتى شرع إيليشا يغني، فانضمت إليه المرأتان، بينما راح أغنات يصيح طرباً. ومرّت بهم عربة أنيقة، كانت تنطلق في خبب، فصاح الحوذي في جواديه منتشياً، والتفت مساعده إلى الرجال والمرأتين ـ الذين كانوا في العربتين ـ وغمز بعينه، بينما كانوا يتأرجحون مع ارتجاج العربتين، وقد احمرّت وجوههم، وهم ماضون في إنشاد أغنيتهم المُطربة!

العذراء الريفية

توطئة

في بدايات القرن التاسع عشر، عندما لم تكن ثمة سكك حديدية بعد، ولا شوارع مرصوفة، ولا إضاءة بالغاز، ولا شموع من ستيرين(*)، ولا مركبات منخفضة ذات وسائد مجهّزة بنوابض، ولا أثاث دون طلاء لامع، ولا شباب مغرور ذو نظارات، ولا فلاسفة من دعاة التحرُّر، ولا أي من «غادات الكاميليا»(**) الفاتنات اللاتي يوجدن في أيامنا بكثرة.. في تلك الأيام الساذجة، عندما كان المرء - إذا سافر من موسكو إلى بطرسبرج في مركبة مغلقة، أو عربة مجهزة بمطبخ مترع بالمؤن المعدة - يقضي ثمانية أيام في طريق لينة الأرض، أو متربة، أو موحلة، معتمداً على شرائح اللحم المقلوَّة، وعلى الكعك العادي، وعلى أجراس الزحافات.. وعندما كان من الضروري إصلاح فتائل الشموع المصنوعة من الشحم، والتي كانت تلتف حولها الجماعات العائلية، مؤلفة من عشرين، وثلاثين شخصاً، في ليالي الخريف الطويلة.. وعندما كانت قاعات الرقص تُضاء بثريات الشمع الشحميّ أو الشمع المصنوع من عنبر الحوت.. وعندما كانت قطع الأثاث تُرتَّب في نظام هندسي متقن.. وعندما كان آباؤنا لا يزالون شبّاناً، لا يكتفون بإثبات ذلك بمجرد غياب التغضُّنات والشعر الأشيب، وإنما بخوض المبارزات من أجل امرأة، وبالاندفاع من الركن المقابل من حجرة ما لالتقاط منديل صغير الحجم أسقط عمداً أو عَرَضاً.. وعندما كانت أمهاتنا يرتدين أثواباً

(*) Styrene: مادة هيدروكربونية سائلة، عطِرة، غير مُشبعة تستخدم في صنع المطاط واللدائن.

(**) نسبة إلى «غادة الكاميليا» الرواية الشهيرة للأديب الفرنسي ألكسندر دوما الابن.

أعلى من خط الوسط، وأكماماً هائلة منتفخة، ويتّخذن القرارات في الشؤون العائلية من طريق سحب القرعة (أي الاقتراع بالورق المطوي)!.. وعندما كانت «غادات الكاميليا» الفاتنات يختبئن من ضوء النهار في مساكن الماسونية(*)، و«المارتانية»(**)، و«التوجينبوند»(***)، في تلك الأيام الطيِّبة.. أيام الميلورادوڤيتشيين(****)، والداڤيدوڤيين(*****)، والبوشكينيين(******).

في تلك الأيام، عقد اجتماع في مدينة (ك...) التابعة للحكومة، حضره ملاّك الأراضي، وأجريت فيه انتخابات الأعيان.

(*) كانت الماسونية الحرة جماعة سرية في روسيا، غرضها الأصلي الإصلاح الخلقي على أسس من المساواة والأخوة العامة. وقد بدأت كحركة دينية، ثم انقلبت إلى حركة سرية، واضطهدت في أوائل القرن التاسع عشر.

(**) المارتانية جماعة من الماسونيين الروس، انتسبوا إلى الفيلسوف الصوفي الفرنسي «لوي كلود سان مارتان».

(***) التوجينبوند جميعة وطنية ألمانية، اتخذت مثلاً في روسيا للشباب المتحمِّس، ولعبت دوراً رئيسياً في التهيئة لحرب سنة ١٨١٣.

(****) نسبة إلى «م.هـ. ميلورادوڤيتش» الذي أبلى بلاء حسناً في الحرب ضد نابليون، وصار حاكماً عاماً لبطرسبرج. اغتيل عندما حاول قمع فتنة كانون الأول/ ديسمبر سنة ١٨٢٥.

(*****) نسبة إلى «د.ف. داڤيدوف»، وكان شاعراً ذا شهرة شعبية واسعة، وزعيماً لفرق العصابات في حرب سنة ١٨١٢.

(******) نسبة إلى «ا.س. بوشكين» أعظم شاعر روسي في عصره.

1

الكونت توربين

«لا بأس.. فإنَّ قاعة الجلوس تُغني!».

قال هذه الكلمات ضابط شاب يشتمل بمعطف من الفراء، ويعتمر قلنسوة كتيبة الفرسان الخفيفة، وقد ترك لفوره زحافة خط البريد، وهمَّ بأن يدخل أحسن فندق في مدينة (ك...).

قال خادم الفندق، الذي استطاع أن يعلم من تابع الضابط أن اسمه «الكونت توربين»، ومن ثم راح يخاطبه بـ«صاحب السعادة»: «لقد حضر الاجتماع عدد هائل يا صاحب السعادة. على أن مالكة أراضي «أڤريموڤو» قالت إنها راحلة الليلة، ومعها بناتها، ومن ثم فإنَّ الحجرة رقم ١١ ستكون تحت أمركم بمجرد رحيلهن!». وراح يخطو بخفة أمام «الكونت توربين» وهو لا يكف عن التلفُّت حوله.

وفي قاعة الجلوس العمومية، وإلى منضدة صغيرة ـ تحت صورة علاها الغبار، بالحجم الطبيعي، للأمبراطور ألكسندر الأول ـ جلس عدد من الرجال، يشربون الشمپانيا، ولعلهم كانوا من أعيان المنطقة.. بينما جلس في الطرف الآخر، من القاعة، بعض الرحّالة.. تجّار في معاطف زرقاء، مبطَّنة بالفراء!. ودخل «الكونت توربين» القاعة منادياً «بلوخر».. وهو كلب مغبرّ اللون، هائل الحجم، أحضره معه. وخلع معطفه الذي كانت ياقته لا تزال مكسوَّة بالثلج الأبيض، وصاح يطلب ڤودكا، وجلس إلى المائدة في سترته القوزاقية الحريرية الزرقاء، واندمج في حديث مع السادة الموجودين. وسرعان ما اجتذبتهم إليه طلعته المليحة الصريحة،

فقدموا إليه قدحاً من الشمپانيا. واحتسى الكونت قدحاً من الڤودكا ـ بادئ ذي بدء ـ ثم طلب زجاجة أخرى من الشمپانيا ليكرم معارفه الجدد. وأقبل سائق الزحافة ليسأل الكونت مكافأة، فصاح الكونت: «ساشكا! أعطه شيئاً!».

وخرج السائق مع ساشكا، ولكنه عاد ثانية والنقود في راحته، وهو يقول: «انظر يا صاحب السعادة.. ألم أبذل قصارى جهدي من أجل راحة فخامتكم؟.. ألم تعدني بنصف روبل؟.. ولكنه لم يعطني سوى ربع روبل!».

ـ أعطه روبلاً يا ساشكا!

فغض ساشكا بصره، ونظر إلى قدميّ السائق، ثم قال بصوت خفيض: «يكفيه ما أخذ!.. ثم إنَّه لم تعد معي نقود!». وجذب الكونت من حافظة نقوده ورقتين ماليتين من فئة الخمسة روبلات، كانتا كل ما احتوته الحافظة، فأعطى إحداهما للسائق الذي قبَّل يده وانصرف.

قال الكونت: «لقد استنزفت كل ما كان معي!.. هذه الروبلات الخمسة هي آخر ما معي!». فقال أحد النبلاء: «هكذا عادة ضباط كتيبة الفرسان الخفيفة يا كونت!». وكان يبدو من شاربيه، وصوته، وبعض الحركات المتحررة من ساقيه، أنه كان من الفرسان المتقاعدين. وما لبث أن سأل: «أتراك ستقيم هنا بعض الوقت يا كونت؟».

ـ لا بدَّ لي من الحصول على بعض المال. وما كنت لأنزل هنا إطلاقاً، لولا هذا.. ومع ذلك، فلا غرف يمكن الحصول عليها في هذا الفندق اللعين.. ألا فليتخطّفهم الشيطان!

فقال الضابط الفارس المتقاعد: «ألا اسمح لي يا كونت.. هلاّ شاطرتني غرفتي؟.. إنَّ غرفتي هي رقم ٧، فإذا لم يسؤك هذا، فلك

أن تشاطرنيها الليلة.. ثم، ألا تمكث معنا يومين؟.. ومن المصادفات السعيدة أن «مارشال طبقة النبلاء» يقيم الليلة حفلة راقصة، ولسوف تزيده سعادة إذا أنت حضرت؟».

وقال آخر، وكان شاباً وسيماً: «أجل، يا كونت، ألا امكث معنا!.. من المؤكد أن ليس هناك من داع لتعجّل الرحيل! إنك لتعلم أنها لا تحدث إلاّ مرة كل ثلاث سنوات.. أعني الانتخابات. وخليق بكَ أن تلقي نظرة على سيداتنا الشابات.. ـ على الأقل ـ يا كونت!». فنهض الكونت قائلاً: «ساشكا، هيّئ ثياباً داخلية نظيفة، فإنني ذاهب إلى الحمام(*). وربما ألقيت نظرة على حفلة الماريشال بعد ذلك».

ثم نادى الساقي وهمس إليه بكلمات، أجاب عنها هذا، وهو يبتسم: «إنَّ هذا أمر يمكن تدبيره!»(**). وخرج الساقي.. وخرج الكونت. وما لبث أن صاح من الردهة «إذاً، فسآمر بنقل حقيبتي إلى حجرتك أيها الزميل العزيز!». فصاح ضابط الفرسان المتقاعد: «أرجو أن تفعل، فلسوف يسعدني هذا كل الإسعاد!». وهرع إلى الباب مضيفاً: «الحجرة رقم ٧.. لا تنس!».

*

وحين لم يعد وقع خطى الكونت مسموعاً، عاد الضابط الفارس المتقاعد إلى مكانه، فجلس بجوار موظف حكومي، كان بين الحضور، وحملق في وجهه مباشرة، وقال وعيناه تبتسمان: «إنه الرجل نفسه، كما ترى!».

ـ كلاّ!

(*)كانت الحمامات في روسيا، في ذلك العصر، على نمط ما نعرفه اليوم بـ«الحمام التركي أو الشامي».

(**) كان من المألوف أن يقترن الحمام بامرأة، وهذا ما اتفق عليه الكونت مع ساقي الفندق.

ـ أؤكد لك أنّه هو!.. ضابط كتيبة الفرسان الخفيفة نفسه، البارع في المبارزة.. توربين الشهير!.. ولا بد أنه عرفني.. أراهنك ـ على أي مبلغ شئت ـ أنه عرفني. وكيف لا؟.. لقد قضينا في اللهو معاً ثلاثة أسابيع متواصلة، عندما كنت في لبيدياني(*)، حيث نعمنا بألعاب الفروسية. وكان ثمة شيء واحد وُفق فيه كل منّا.. هو وأنا.. إنه لشاب رائع. أليس كذلك؟

ـ إنه لشاب رائع.. وإن أخلاقه النبيلة لتشرح الصدر! فهو لا يبدي ذرّة من.. ماذا يسمونه؟

وقال الشاب الوسيم: «ما أسرع ما توثّق الودّ بيننا، وزالت الكلفة.. إنه لم يتجاوز الخامسة والعشرين.. أتراه تجاوزها؟».

ـ آه، كلاّ.. إنه يبدو هكذا، ولكنه فوق هذه السن. إنَّ على المرء أن يعرفه عن كثب، ليدرك هذا الأمر، كما تعلم.. من الذي سلب «ميجونوڤا» مجده؟.. إنه هو! وهو الذي قتل «سابلين»، وهو كذلك الذي أمسك بساقي «ماتنئيڤ» وطوّح به من النافذة.. وهو الذي ربح ثلاثمائة ألف روبل من الأمير نيستوروڤ.. إنه لشيطان مريد، جسور في كل شيء: مقامر، ومبارز، وفاتن يغوي الحسناوات.. إنه لدرة في كتيبة الفرسان الخفيفة.. لؤلؤة حقيقية!.. إن الشائعات التي تحوم حولنا لا تقاس بالحقيقة في شيء.. إذا قُدّر للمرء أن يعرف فرسان الكتيبة الخفيفة على حقيقتهم!.. آه، تلك كانت أوقات وولت!

وراح الضابط الفارس المتقاعد يروي لمحدّثه عن فترة اللهو التي قضاها مع الكونت في لبيدياني، فهو لم يحظ بمثلها، بل وما كان بوسعه أن يحظى بمثلها أبداً.

(*) لبيدياني بلدة في مقاطعة تامبوڤ، اشتهرت بأسواق الخيل ومهرجانات الفروسية.

ومع ذلك فما كان من الممكن أن تكون قد حدثت بالفعل.. أولاً، لأنه لم يكن قد رأى الكونت قبل ذلك اليوم، وقد ترك الجيش قبل أن يلتحق به الكونت بعامين.. وثانياً، لأن الفارس المتقاعد لم يخدم في فرقة الفرسان إطلاقاً، وإنما ظل أربع سنوات في أدنى مرتبة من مراتب الناشئين في كتيبة بليڤسكي، وقد تقاعد بمجرد أن قُدّر له أن يحظى برتبة الضابط.. غير أنه ورث ـ منذ عشر سنوات ـ بعض المال، وزار لبيدياني فعلاً، حيث بدَّد سبعمائة روبل مع بعض ضباط كانوا قد ذهبوا إلى هناك لشراء الخيل.. بل إنه ذهب إلى أبعد من هذا، فأمر بأن تصنع له بزَّة رسمية على نمط الزيّ الخاص بفرسان «الأوغلان»، ذات وشي برتقالي في صدرها، معتزماً أن يلتحق بكتيبة من كتائب «الأوغلان». وقد ظلت هذه الرغبة في الالتحاق بالفرسان، والأسابيع الثلاثة التي قضاها مع الضباط الفرسان في «لبيدياني»، من أسعد ذكريات حياته وأكثرها تألقاً. ومن ثم فقد حوَّل الرغبة ـ في بادئ الأمر ـ إلى حقيقة، ثم إلى ذكرى واقعية، وتعوَّد أن يعتقد اعتقاداً راسخاً بماضيه كضابط من الفرسان.. وكلها أشياء لم تحل دون أن يكون من أسمى الرجال مكانة، من حيث اللطف والأمانة!

وقال أيضاً: «أجل، إن أولئك الذين لم يُقدّر لهم أن يخدموا في سلاح الفرسان، لا يستطيعون أن يفهمونا إطلاقاً!».

وجلس في مقعده منفرج الساقين، وكأنه على صهوة جواد، ودفع فكّه الأسفل في زهو، وشرع يقول بصوت خافت وقور: «إنك لتركب على رأس فصيلتك، لا جواداً من الجياد العادية، وإنما شيطاناً يتجسّد حصاناً يقفز متوثّباً تحتك، فلا تملك سوى أن تجلس مستهتراً، مستخفّاً.. ويركب قائد الفصيلة مستعرضاً فرسانه، فيقول: «إننا لا نستطيع أن نستغني عنك أيها الضابط.. تفضّل بقيادة الفصيلة في طابور استعراضي».. فتقول: «حسناً!».. وهكذا تروح تلف

وتدور، وتصيح في زملائك ذوي الشوارب.. آه، ليتخطفها الشيطان.. تلك الأيام!».

*

وعاد الكونت من الحمام شديد الحمرة، مبتلّ الشعر، فمضى مباشرة إلى الحجرة رقم ٧، حيث كان الضابط الفارس المتقاعد جالساً في مبذله (ثوب الغرفة)، وهو يدخن غليونه، يفكّر في سرور - وإن لم يخل من التوجُّس - في السعادة التي حلّت به، إذ شاطر «توربين» الشهير غرفة.. وكان يقول لنفسه: «ولكن، هب أنه يمسك بي فجأة، ويجرّدني من ثيابي، ويسوقني إلى أبواب المدينة، ويلقي بي في الجليد.. أو يجلّلني بالقار.. أو يكتفي بأن..». ثم يستدرك ليسرّي عن نفسه: «ولكن، لا.. إنه لا يرتضي لنفسه أن يفعل هذا بزميل».

وفي تلك اللحظة، صاح الكونت، وهو يدخل الغرفة: «ساشكا.. أطعم بلوخر!».

وأقبل ساشكا، الذي كان قد تناول زجاجة من الڤودكا لينعش نفسه من عناء الرحلة، فراح يترنّح بما لا يدع شكّاً في أنه قد ثمل. وصاح الكونت: «عجباً! أتثمل منذ الآن؟!.. أكنت تشرب أيها الوغد!.. هيّا أطعم بلوخر!». فأجاب ساشكا وهو يربت ظهر الكلب: «إنه لن يموت جوعاً على أية حال.. ألا انظر كيف أنه ناعم!».

- اخرس!.. اخرج وأطعمه!

- إنك تهتم بأن يتغذى الكلب.. أما حين يشرب الرجل قدحاً، فإنك تقرّعه وتزجره!.

فصرخ الكونت بصوت ارتجَّ منه زجاج النوافذ.. بل وداخل الخوف - من جرائه - قلب الفارس المتقاعد، بعض الشيء: «أنت!..

لسوف أسوطك!». فدمدم ساشكا: «كان جديراً بك أن تسأل عمّا إذا كان ساشكا قد ظفر بلقمة في يومه!.. أجل، اضربني ما دمت تفكر في الكلب أكثر ممّا تفكر في رجل!». ولكنه ـ عند هذا الحد من دمدمته ـ تلقى لكمة شديدة أصابت وجهه، من قبضة الكونت، فوقع، وارتطم رأسه بحافة الجدار.. وأمسك بأنفه وهو يهرب من الحجرة، ويرتمي على مقعد في الردهة.

وأخذ ساشكا يزأر ويئن، مردِّداً: «لقد حطّم أسناني!».. وبإحدى يديه راح يمسح أنفه الذي تفصد الدم منه، بينما كان يحك ـ بيده الأخرى ـ ظهر بلوخر الذي كان يلعق جسده بلسانه. واستطرد ساشكا يحدّث الكلب: «لقد حطم أسناني يا بلوخر، ولكنه ـ رغم ذلك ـ سيدي الكونت، وإني لأخوض النار من أجله.. أجل! فهو.. هو كونتي. أتفهم يا بلوخي؟.. أتريد عشاءك؟ هه؟».

وبعد أن ظل مستلقياً ساكناً للحظات، نهض فأطعم الكلب، ثم سعى إلى خدمة سيده الكونت، وقد أفاق تقريباً من تأثير الخمرة، فتهيأ ليقدِّم له الشاي.

وكان الفارس المتقاعد يقول في تلطُّف وتقرّب، وهو يقف أمام الكونت الذي استلقى في سرير الرجل، ومد ساقيه إلى الجدار: «الحق أنني سأشعر بجرح لكرامتي. فأنت ترى أنني عسكري قديم، و.. زميل، إذا جاز لي أن أقول ذلك. فلماذا تقترض من أي امرئ آخر، إذا كان يسرّني أن أقرضك مائتي روبل؟.. إنَّ المبلغ ليس معي بأكمله الآن، وإنما معي منه مائة روبل.. على أنني سأحضر الباقي اليوم.. لسوف تجرح شعوري حقّاً يا كونت، إذا أنت رفضت!».

أجاب الكونت، وقد أدرك للتوّ نوع العلاقات التي كان لا بد من أن تنعقد بينهما، فدقّ بيده كتف الفارس: «شكراً، أيها الصديق الحميم! شكراً!.. ليكن لك ما شئت إذاً، وسنذهب إلى حفلة

الرقص، إذا لم يكن من ذلك بد. ولكن، ماذا نفعل الآن؟.. حدثني عمّا أوتيتم في بلدتكم هذه.. أي نوع من الحسان؟ وأي رجال أهل لأن يكونوا زملاء في اللهو؟ وأية مقامرات تجري؟».

فأخذ الضابط الفارس يبيّن له أن الحفل سيكون غاصّاً بكثيرات من المخلوقات البديعة، وأن «كولكوف» ـ الذي أعيد انتخابه قائداً للشرطة ـ كان خير زميل في اللهو، وإن كانت تعوزه روح ضباط الفرسان الحقة.. كان رجلاً رائعاً، فيما عدا ذلك، حقّاً.. كذلك كانت فرقة الموسيقي الغجري «إيليوشين» في المدينة تقيم حفلاتها الغنائية ـ منذ بدأت الانتخابات ـ بقيادة «ستيشكا»، وأن كل امرئ كان يعتزم الذهاب لسماع أغانيها، بعد الانصراف من دار الماريشال، في تلك الليلة.. ومضى يقول: «وهناك كثير من ألعاب المقامرة كذلك.. لسوف يلعب «لوخنوف» الورق، وقد أوتي نقوداً كثيرة. وهو يقيم هنا خلال رحلته.. وقد خسر «إيلين» ـ وهو حامل العلم في سرية من فرسان «الأوغلان»، ويشغل الحجرة رقم ٨ ـ مبلغاً كبيراً في أثناء اللعب معه. ولقد شرعا في اللعب في هذه الحجرة بالذات، وأصبحا يلعبان كل ليلة. ويا لإيلين هذا من شاب رائع!.. أؤكد لك، يا كونت، أنه ليس مقتّراً أو بخيلاً، بل إنه ليتخلّى عن آخر قميص على جسده، راضياً!». فقال الكونت: «حسن، فلنذهب إلى حجرته، ولنر أي نوع من القوم أولئك الذين يلعبون هناك!». وقال ضابط الفرسان: «أجل، هيّا بنا.. لسوف تتملكهم فرحة الشيطان نفسه!».

2

فارس الأوغلان

لم يكن قد مضى وقت طويل على استيقاظ «إيلين»، حامل العلم في كتيبة فرسان «الأوغلان». فقد جلس - في الليلة الماضية - إلى طاولة أوراق اللعب في الساعة الثامنة مساء، وراح يخسر باطراد لخمس عشرة ساعة بأكملها.. أي إلى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي. ولقد خسر مبلغاً ضخماً، ولكنّه لم يعرف مدى ضخامته تماماً، فقد كان معه حوالى ثلاثة آلاف روبل من نقوده الخاصة، وخمسة عشر ألف روبل من أموال التاج التي امتزجت بأمواله الخاصة منذ مدة طويلة، حتى أصبح يخشى أن يحسب ما معه، حتى لا تتأكد مخاوفه من أن شطراً من أموال التاج قد تبدّد!

كان النهار قد انتصف تقريباً، عندما استسلم للنعاس، فحظي بذلك النوم العميق، الخالي من الأحلام، الذي لا ينعم به سوى الشبان الفتيان في مثل هذا السن، عقب أن يُمنوا بخسارة فادحة. وما إن استيقظ في الساعة السادسة من ذاك المساء - في الوقت ذاته الذي وصل فيه الكونت توربين إلى الفندق - وأبصر الأرضية حوله وقد تناثرت عليها أوراق اللعب، وبقايا أقلام الطباشير، ورأى الموائد في وسط الحجرة مجلَّلة بعلامات هذه الأقلام الطباشيرية، حتى تذكر - في هلع - لعب الليلة الماضية، والورقة الأخيرة - وكانت «ڤاليه»(*) - التي خسر عليها خمسمائة روبل.. على أنه لم يكن قد اقتنع بعد تمام الاقتناع بكل هذا، فأخرج نقوده من تحت الوسادة، وشرع

(*) Valet: صبيّ في لعب الورق.

يحصيها.. وتبيَّن بينها بعض أوراق مالية تنقّلت من يد إلى أخرى، فتذكّر كل تطوّرات اللعب.. ولم يكن قد تبقى معه روبل واحد من الثلاثة آلاف روبل التي كانت من ماله الخاص، كما أن حوالى ألفين وخمسمائة روبل من أموال الحكومة كانت قد طارت.. فلقد قضى «إيلين» أربع ليال متوالية، في اللعب!

كان قد أقبل من موسكو، حيث عهد إليه بذلك المبلغ من أموال التاج، فلمّا بلغ (ك...) أخّره المشرف على مركز البريد بحجة أنه لم تكن هناك جياد. ولكن السبب الحقيقي تمثّل في أن المشرف كان على اتفاق مع صاحب الفندق على أن يؤخّر المسافرين يوماً عن مواصلة أسفارهم!.. ولقد سُرّ فارس «الأوغلان»، الذي كان شاباً في ريعان الصبا، تلقّى من والديه ـ في موسكو ـ ثلاثة آلاف روبل ليجهّز نفسه للالتحاق بكتيبته.. سُرّ بقضاء بضعة أيام في بلدة (ك...) إبان الانتخابات، أملاً في أن يمتّع نفسه إلى أقصى حدّ. وكان يعرف سيّداً من أصحاب الأرض، ذا أسرة، فراح يفكر في زيارته، وفي مغازلة بناته. وإذا بالفارس المتقاعد يتعرّف إليه، في تلك الأثناء، ثم يقدِّمه ـ دون ما سوء نية ـ إلى معارفه في قاعة الجلوس العامة، أو القاعة العامة في الفندق، في المساء ذاته.. وكان هؤلاء المعارف هم «لوخنوف» وغيره من المقامرين. ومنذ ذلك الحين، انكبَّ ضابط «الأوغلان» على لعب الورق، ولم يعد يسأل مركز البريد عن جياد.. وأصبح أقل رغبة في الذهاب لزيارة صاحب الأرض الذي كان يعرفه.. بل إنه لم يبرح حجرته لأربعة أيام بلياليها!

*

حين ارتدى إيلين ثيابه واحتسى الشاي، مشى إلى النافذة، وشعر بميل إلى أن يخرج ويتمشّى ويتخلّص من الأفكار التي راحت تطارده، فارتدى معطفه وخرج إلى الطريق. كانت الشمس قد

توارت خلف المنازل البيضاء وسقوفها الحمراء، وأخذت الظلمة تزحف.. وكان الجو دافئاً بالنسبة إلى ما هو مألوف في فصل الشتاء، ومع ذلك فقد كانت كسف عريضة من الثلج تتساقط في بطء إلى الطريق الموحلة.. وفجأة، غشي الشاب حزن لا يطاق، إذ تذكر أنه نام طيلة النهار الذي أشرف على نهايته.

قال لنفسه: «إن هذا اليوم، الذي يُحتضر الآن، لا يمكن أن يُسترد ثانية!».. ثم قال فجأة: «لقد دمرت شبابي!».. لم يقلها لأنه فكّر حقّاً في أنه قد دمَّر شبابه - فالواقع أن هذا لم يخطر بباله إطلاقاً - وإنما قالها لأنها عرضت لذهنه مصادفة!.. وعاد يسائل نفسه: «ما الذي ينبغي أن أفعله الآن؟.. أأقترض من شخص ما، وأبادر إلى الرحيل؟».. ومرّت به في تلك الأثناء سيدة كانت تعبر على الرصيف، فقال لنفسه لسبب لم يدره: «ها هي ذي امرأة غبية!». ثم عاد يقول: «ما من أحد هنا أقترض منه.. لقد دمّرت شبابي!».

ووصل السوق، فإذا بتاجر يقف عند باب حانوته - في معطف من فراء الثعلب - يجتذب العملاء.. ومضى الشاب يقول لنفسه: «لو لم أسحب تلك الثمانية، لكنت قد استطعت أن أعوّض خسارتي!».. وتبعته متسوِّلة عجوز، لم تكف عن الغمغمة.. وظل هو يردِّد: «ما من أحد أقترض منه!».. ومرّ به رجل في معطف من جلد الدب، يسوق عربة.. وكان ثمة شرطي يقف في المركز المعيَّن له.. وراح الشاب يقول لنفسه: «أي عمل غير عادي أستطيع أن آتيه؟ أأطلق النار عليهم؟ لا، إن هذا العمل حماقة.. لقد دمّرت شبابي!.. آه، ها هي بعض سروج بديعة لظهور الخيل، وركابات، معلقة هناك! آه، لو كان بوسعي أن أنطلق في عربة تجرّها ثلاثة جياد.. واهاً للحسان هناك!.. لسوف أعود. وسيأتي «لوخنوف» عمّا قليل، ونلعب!».

وعاد إلى الفندق، فأخذ يحصي نقوده من جديد.. لا، لم يكن قد أخطأ في الحساب - في المرة الأولى - فلا يزال ينقص نقود التاج

ألفان وخمسمائة روبل.. وقال لنفسه: «سأرمي خمسة وعشرين روبلاً، ثم أطلب كشف الورق.. سأضاعفها إلى سبعة أمثالها، ثم إلى خمسة عشر مثلاً، ثم ثلاثين، ثم ستين.. ثلاثة آلاف روبل. وإذ ذاك سأشتري سروج الجياد، وأرحل.. لن يتركني الوغد أفلت!.. لقد دمّرت شبابي!».

هذا ما كان يدور في رأس فارس «الأوغلان» عندما دخل عليه «لوخنوف» الحجرة، وسأله وهو يرفع - في تكاسل - النظارتين الذهبيّتين عن أنفه النحيل، ويمسحهما بمنديل حريري أحمر، في عناية: «هل استيقظت منذ أمد طويل يا ميخائيل ڤاسيليتش؟».

ـ لا، بل إنني لم أستيقظ إلاّ من أمد قصير.. لقد نمت نوماً عميقاً، على غير عادتي!

ـ لقد وصل أحد ضباط كتيبة الفرسان الخفيفة، على ما أعتقد.. وقد نزل في حجرة زاڤالشيڤسكي. هل سمعت به؟

ـ لا، لم أسمع.. ولكن، كيف تعلل عدم وصول أحد إلى هنا حتى الآن؟

ـ لا بد أنهم ذهبوا إلى دار «برياخين».. ولن يلبثوا أن يأتوا إلى هنا فوراً.

وهذا ما حدث فعلاً، فبعد قليل وفد على الحجرة أحد ضباط الحامية - وكان قد اعتاد أن يلازم لوخنوف دائماً - وتاجر يوناني له أنف ضخم، أسمر، معقوف، وعينان سوداوان غائرتان في محجريهما، ورجل بدين منتفخ من أصحاب الأرض، وصاحب مصنع للتقطير اعتاد أن يلعب في كل الأمسيات، وأن يراهن بمبالغ رمزية، تتمثَّل دائماً في نصف روبل في كل مرة.. ورغب الجميع في أن يبدأوا اللعب بأسرع ما يمكن، ولكنَّ المقامرين الرئيسيين لم يشيروا إلى الموضوع بكلمة، ولا سيما لوخنوف الذي راح يروي -

في صوت هادئ جدّاً ـ قصة سرقة وقعت في موسكو، وأخذ يقول: «تصوَّروا.. مدينة مثل موسكو، العاصمة التاريخية، والمركز الرئيسي للدولة.. فيها رجال يتنكّرون في زي شياطين، وينطلقون في أرجائها مع قطّاع الطرق، يرهبون الأغبياء ويسرقون المارة.. هذه هي النهاية!.. فيم إذاً وجود رجال الشرطة؟.. هذا هو السؤال!».

وأصغى فارس «الأوغلان» إلى قصة اللصوص بانتباه شديد. ولكنه ما لبث ـ عندما ساد الصمت برهة ـ أن نهض وأمر بهدوء بشراء ورق للعب. وكان صاحب الأرض البدين هو أول المتكلِّمين، إذ سأل: «وبعد يا سادة.. فيم تبديد الوقت الثمين؟ إذا كنّا نريد العمل، فلنبدأ!».. وقال اليوناني: «أجل، فأنت قد انصرفت بكومة من أنصاف الروبلات ليلة أمس، ولهذا فقد أحببت العملية!».. وقال ضابط الحامية: «أعتقد أننا يجب أن نبدأ!».

ونظر إيلين إلى لوخنوف، فسدّد لوخنوف بصره إليه ـ في هدوء ـ وهو يستأنف رواية قصته عن اللصوص الذين تزيّوا بزي الشياطين، واصطنعوا لأنفسهم مخالب. وسأل فارس الأوغلان صاحبه: «هل تتولّى «البنك»؟».

ـ ألا ترى أن الوقت جدّ مبكر؟

فصاح فارس الأوغلان، وقد تضرّج وجهه لسبب غير مسوّغ: «مرحى!.. آتوني بشيء للعشاء، فما تناولت بعد شيئاً، أيها السادة!.. زجاجة من الشمپانيا، وبعض مجموعات من أوراق اللعب!».

وفي اللحظة ذاتها، دخل الكونت وزاڤالشيڤسكي الحجرة. وظهر أن «توربين» و«إيلين» كانا يتبعان فرقة واحدة، فمال كل منهما إلى الآخر فوراً، وتقارعا الكأسين، واحتسيا الشمپانيا معاً، وتوثّقت بينهما الألفة والمودة في خمس دقائق!.. ولاح أن الكونت قد أحب إيلين كثيراً، فقد راح ينظر إليه مبتسماً، ويداعبه مازحاً بشأن صغر

سنه. فقد قال: «هاكم أوغلاني من الصنف الصحيح!.. يا لشاربيه!.. عجباً، أي شاربين هذان!».

وكان ما لدى إيلين من شاربين لا يتجاوز خطّاً خفيفاً، من زغب أبيض!.. وعاد الكونت يقول: «أحسبك ستلعب؟.. حسناً، أتمنى لك حظّاً يا إيلين!». ثم أضاف وهو يبتسم: «لا أخالك إلا أستاذاً في اللعب!». فقال لوخنوف، وهو يمزق غلاف علبة ضمت اثنتي عشرة مجموعة من ورق اللعب: «أجل.. ولسوف يبدأون اللعب، وستنضم إلينا أنت الآخر يا كونت.. أليس كذلك؟».

ـ لا، ليس اليوم، فإني خليق بأن أجرّدكم جميعاً من نقودكم إذا لعبت.. إنني حين أبدأ في الاهتمام الصادق باللعب، فإن «البنك» يشرع في التداعي!.. لقد نظفوا جيوبي في إحدى المحطات القريبة من ڤولوتشوك، فقد التقيت هناك بشاب من فرقة المشاة، يزين أصابعه بخواتم.. وأحسب أنه غشّاش.. وقد استطاع أن يجرّدني من نقودي تماماً!

فسأله إيلين: «ولماذا أطلت البقاء في تلك المحطة؟».

ـ إنما جلست هناك أربعاً وعشرين ساعة. ولن أنسى قط تلك المحطة اللعينة!.. ولن ينساني المشرف عليها، هو الآخر..

ـ وكيف ذلك؟

ـ لقد وصلت في مركبتي إلى هناك، كما هو معروف، وإذا بالمشرف على المحطة يندفع لاستقبالي ـ وقد بدا كقاطع الطريق ـ وبادرني قائلاً: «لا جياد!». وجدير بي أن أخبركم ـ عند هذه النقطة ـ أن من عادتي، إذا لم أجد جياداً، أن لا أخلع معطفي المصنوع من الفراء، وأن أذهب إلى غرفة المشرف.. أجل، إلى غرفته الخاصة، وليس إلى الغرفة العامة.. وأمرت بأن تفتح جميع النوافذ والأبواب، متعلّلاً بأن جو الغرفة كان مشبعاً بالدخان.. أجل، هذا ما فعلته هناك.

وأنتم تذكرون أي صقيع نزل علينا في الشهر الفائت.. كانت درجة الحرارة حوالى العشرين درجة!.. وشرع المشرف يجادلني، فلكمت رأسه. وكانت ثمة امرأة عجوز، وبنات، ونسوة أخريات، اشتركن جميعاً في إثارة الشغب والتقطن أوعيتهن وأوانيهن وقد عوّلن على أن يندفعن صوب القرية. فسرت إلى الباب، وقلت: «آتوني بجياد، أرحل لفوري. فإن لم تمكّنوني، فلن يخرج منكم أحد، وسأدع التيار المنساب من النوافذ يجمد الدم في عروقكم!».

وصاح صاحب الأرض البدين، وهو يتقلّب في مقعده لفرط الضحك: «إنها لخطة جهنمية رائعة!.. إنها الطريقة التي يقضون بها على الصراصير بالتجمُّد...».

ـ ولكنني لم أكن حذراً في انتباهي، فاستطاع المشرف أن يخرج من المبنى مع النسوة، ولم تبق سوى امرأة عجوز، جلست على الفرن رهينة.. وأخذت تعطس وتتلو صلواتها. وما لبثنا أن شرعنا نتفاوض بعد ذلك، فأقبل المشرف وأخذ يغريني ـ عن بعد ـ بأن أخلي سبيل المرأة العجوز. ولكني أطلقت عليه بلوخر قليلاً.. وبلوخر رائع في مداعبة المشرفين على محطات البريد!.. ومع ذلك، فإنَّ الوغد ظل يرفض أن يمكنني من الحصول على الجياد قبل صباح اليوم التالي.. وفي تلك الأثناء، أقبل ذلك الشاب التابع للمشاة، فانضممت إليه في حجرة أخرى، وشرعنا نلعب... هل رأيتم بلوخر؟

ورفع عقيرته بالنداء: «بلوخر!»، وأردف نداءه بصفير. فأقبل بلوخر مهرعاً.. وتلطّف اللاعبون فأبدوا نحوه بعض الاهتمام، وإن كان من الجلّي أنهم كانوا راغبين في الانصراف إلى مسائل أخرى غير هذه.. وما لبث الكونت توربين أن قال: «ولكن، لماذا لا تلعبون يا سادة؟.. أرجو أن لا تدعوني أحول بينكم وبين اللعب، فأنا ثرثار، كما ترون.. إنَّ اللعب لعب، سواء أشاء المرء أم لم يشأ!».

3

على طاولة اللعب

أدنى لوخنوف شمعتين من مجلسه، وأخرج حافظة نقود كبيرة، بنيّة اللون، مليئة بالأوراق المالية، ففتحها على المنضدة بتأنٍّ ـ وكأنه يؤدي بعض الطقوس ـ وتناول منها ورقتين من فئة المائة روبل، فوضعهما تحت أوراق اللعب. وقال وهو يسوّي من وضع نظارتيه، ويفتح مجموعة من أوراق اللعب: «مائتان للبنك.. تماماً كأمس!». فقال إيلين وهو ماض في حديثه مع الكونت توربين، دون أن ينظر إلى لوخنوف: «حسناً جدّاً!».

وبدأ اللعب. وأخذ لوخنوف يوزِّع الأوراق في دقة متناهية، متوقفاً من آن إلى آخر عن قصد، ليكتب رقماً، أو ليوجِّه من فوق حافتي نظارتيه نظرة صارمة، وهو يقول في صوت خفيض، مليء بالنبرات: «ناول!»(*). وكان صاحب الأرض البدين هو أعلى الجميع

(*) لعبة الورق المقصودة هنا هي «الشتوس»، وقد كانت رائجة في روسيا، لكن عفّى عليها الزمن فانقرضت.. وفيها يختار اللاعبون لأنفسهم أوراقاً من مجموعات على الطاولة، ويضعون المبالغ التي يراهنون بها على أوراقهم أو تحتها. ويحتفظ المشرف على «البنك» بمجموعة كاملة من الأوراق، يوزع منها على الجالسين إلى اليمين والجالسين إلى اليسار، على التوالي. فالأوراق التي توزع إلى اليمين يكون كسبها له، والتي توزع إلى اليسار، يكون كسبها للاعب. ومن مصطلحاتها «ناول!»، لتذكير اللاعبين بتسليم المبالغ التي يكونون مدينين بها للبنك، و«مفردات» أي مراهنات فردية. ويضاعف اللاعب رهانه مرتين أو ثلاثاً بأن يثني أركان الورقة التي في يده ليكشفها، إذ تكون موضوعة وظهرها إلى أعلى.. و«التمرير» يضاعف الرهان ستة أمثاله.

صوتاً في كلامه، وهو يجادل نفسه جهاراً، ثم يرطّب أصابعه الممتلئة الطرية، عندما يثني طرف ورقة. وكان ضابط الحامية يسجّل في صمت ودقة المبالغ التي يُراهن بها على ورقته، ويثني أطرافاً صغيرة من الأركان، تحت المنضدة. أمّا اليوناني فكان يجلس بجوار المشرف على البنك، يراقب اللعب بانتباه - بعينيه الغائرتين - وهو يبدو كمن يترقّب شيئاً. وكان زاڤالشيڤسكي يقف بجوار المائدة، ثم لا يلبث أن يتململ في وقفته فجأة، ويتناول من جيب سرواله ورقة مالية حمراء أو زرقاء(*)، فيضعها على ورقة اللعب التي تكون أمامه، ثم يدق عليها بكفّه، قائلاً: «سبعة متواضعة.. وزّع لي!». ويروح يعض طرفي شاربيه، وهو ينقل ثقل جسمه من قدم إلى قدم، ولا يكف عن التململ إلى أن توزّع له ورقة أخرى..

وراح إيلين يلتهم شرائح من لحم البقر والخيار المملح، وضعت على أريكة من شعر الخيل، ثم أسرع فمسح يديه بسترته، وأخذ يلقي ورقة بعد أخرى. أمّا توربين، الذي كان جالساً - في بادئ الأمر - على الأريكة، فإنه سرعان ما أدرك تطوّرات الموقف. ولم يكن لوخنوف ينظر إلى إيلين أو يخاطبه، بيد أن نظارتيه كانتا تتحوّلان نحو يدي الشاب من آن إلى آخر، وتستقر نظراته عليهما لحظة.. ولكن معظم أوراق إيلين كانت خاسرة!

وما لبث لوخنوف أن قال، مشيراً إلى ورقة ألقاها مالك الأرض البدين، الذي كان يقامر بأنصاف الروبلات: «آه، إنني أود أن أضرب هذه الورقة». فقال المالك: «لك أن تضرب ورقة إيلين، ودعك مني!».. وفعلاً كانت أوراق إيلين أكثر خسارة من أوراق الآخرين، حتى أنه كان يمزّق كل ورقة خاسرة - تحت المائدة - وهو متوتّر، ثم يختار ورقة أخرى بأصابع مرتعشة. ونهض توربين عن

(*) الأوراق ذات الخمسة روبلات كانت زرقاء.. وذات العشرة كانت حمراء.

الأريكة، وسأل اليوناني أن يدعه يجلس مكانه إلى جوار المشرف على البنك. فانتقل اليوناني إلى مكان آخر، وشغل الكونت مقعده، وبدأ يراقب يديّ لوخنوف بإنعام، لا يحرّك عينيه عنهما.

وفجأة، قال الكونت توربين بصوته العادي، الذي طغى على جميع الأصوات دون قصد منه: «إيلين!.. لماذا تلزم طريقة جامدة في اللعب؟.. إنك لا تعرف كيف تلعب».

ـ كل الطرق سواء في اللعب.

ـ ولكنك تخسر بهذه الطريقة. دعني ألعب بدلاً منك!

ـ لا، أرجو أن تسمح لي.. إنني دائماً ما ألعب لنفسي، فالعب لنفسك إذا شئت.

ـ سبق وقلت من قبل إنني لن ألعب لحسابي، ولكني أود أن ألعب لحسابك، فإنّي مستاء لأنك تخسر!

ـ أرى أن هذا حظي.. قدر مكتوب عليَّ!

*

وصمت الكونت، ولكنه مال على الطاولة معتمداً على مرفقيه، وعاد يتأمل يدي المشرف على البنك بإنعام نظر. وفجأة، قال بصوت عال، وهو يطيل الكلمة: «فظيع!». فتطلع إليه لوخنوف، وإذا به يردِّد بصوت أكثر ارتفاعاً، وهو يحدق إلى عينيّ لوخنوف مباشرة: «فظيع!.. فظيع جدّاً!».

واستمر اللعب.. ومرّة أخرى، صاح توربين، وقد ضرب لوخنوف ورقة كان إيلين قد قامر عليها بمبلغ كبير: «ليس هذا من الصواب في شيء!».. فتساءل المشرف على البنك في عدم مبالاة مهذَّب: «ما الذي لا يروق لك يا كونت؟».

ـ هذا!.. إنك تدع إيلين يكسب مراهناته المفردة، ثم تغلبه في

المراهنات المضاعفة.. هذا هو مكمن السوء في الأمر!

وحرّك لوخنوف حاجبيه وكتفيه حركة خفيفة، إشارة إلى أنه كان ينصح بالتسليم للحظ والقدر في كل شيء، وواصل اللعب. فصاح الكونت: «بلوخر!». ونهض مرسلاً صفيراً استدعى به الكلب، ثم أضاف بسرعة: «عليك به!».

وارتطم ظهر بلوخر بالأريكة وهو يثب من تحتها، فكاد يقلب ضابط الحامية، وهرع نحو مولاه مزمجراً، ثم راح يتلفت ناظراً إلى كل امرئ، وهو يهز ذيله، وكأنه يتساءل: «مَن ذا الذي يسيء التصرف هنا!.. هه؟».

وألقى لوخنوف بالأوراق التي كانت في يده، وأزاح مقعده جانباً، وقال: «ليس بوسع المرء أن يلعب بهذا الشكل! إنني أكره الكلاب.. أي نوع من اللعب يصبح إذا ما أُحضرت إلى هنا فرقة من كلاب الصيد؟». فغمغم ضابط الحامية: «خصوصاً إذا كانت كهذا الكلب».. والتفت لوخنوف إلى مضيفهم قائلاً: «وبعد.. هل سنلعب يا ميخائيل ڤاسيليتش أو تُرانا لن نلعب؟». فالتفت إيلين إلى توربين قائلاً: «أرجو أن لا تتدخَّل بيننا يا كونت!». فقال توربين وهو يمسك بذراع إيلين ويذهب به إلى وراء حاجز خشبي في الحجرة: «تعال معي لدقيقة!».

وكانت كلمات الكونت ـ التي نطقها بصوته المعهود ـ مسموعة بجلاء من خلف الحاجز، فقد كانت طبقة صوته تسري عبر ثلاث حجرات دائماً:

ـ أأنت أحمق، هه؟ ألا ترى أن ذلك السيد ذا النظارتين غشّاش من الدرجة الأولى؟

ـ دعك من هذا، كفى!.. ما هذا الذي تقول؟

ـ لا مجال لـ«كفى» في هذا الأمر!.. إنني أرجوك أن تكف عن

اللعب. إن الأمر لا يهمني في شيء، ولو أننا كنا في ظروف أخرى، لاستنزفت أموالك بنفسي، ولكنني ـ لسبب لا أدريه ـ آسف إذ أراك تُجرَّد من ريشك. ولعلك تحمل شيئاً من أموال التاج كذلك؟

ـ لا.. لماذا تتخيَّل أموراً كهذه؟

ـ آه، يا فتاي!.. لقد كنت أنا الآخر مثلك، ومن ثم فإنني أعرف كل حيل أولئك الغشّاشين. إنني أؤكد لك أن الرجل ذا النظارتين غشّاش، فكُفَّ عن اللعب! إنني أناشدك كزميل في السلاح!

ـ ليكن ذلك إذاً، فقط سأنتهي من هذا الدور وحده.

ـ إنني أعلم ما وراء «دور واحد». لا بأس، لسوف نرى!

وعادا.. وفي هذا الدور الواحد، ألقى إيلين بكثير من الأوراق، راهن عليها بكثير من النقود، حتى أنه عندما خسر فقد مبلغاً باهظاً. وإذ ذاك، وضع توربين يديه في وسط المائدة، وصاح: «الآن، كفَّ عن اللعب، وتعال!».. فقال إيلين في انفعال، وهو يعبث ببعض أوراق مطويَّة، دون أن ينظر إلى توربين: «لا، لا أستطيع. دعني وشأني!».

ـ حسناً، اذهب إلى الشيطان، إذاً! استمر في الخسارة المؤكدة، إذا كان هذا يروق لك. لقد حان لي أن أنصرف. فلنذهب إلى حفلة المارشال يا زاڤالشيڤسكي!

وانصرفا. وبقي الذين مكثوا صامتين، ولم يعد لوخنوف يوزّع أوراقاً إلى أن غاب وقع أقدامهما، وخفت وقع مخالب بلوخر على أرض الردهة. وإذ ذاك قال مالك الأرض، وهو يضحك: «يا له من رجل، كأنه الشيطان!».

فعقّب ضابط الحامية، وهو لا يزال يهمس وينطق الكلمات على عجل: «حسناً.. إنه لن يتدخّل في اللعب ثانية!».

وعادوا يستأنفون اللعب.

4

حفلة المارشال

لم تكد تصدر إشارة معينة، حتى عزفت الفرقة الموسيقية، المؤلفة من بعض عبيد المارشال ـ وقد اصطفّوا في مخزن المؤن بعد أن فُرِّغ مما كان به، لهذه المناسبة، وشمّروا عن أكمامهم استعداداً ـ للحن البولندي القديم «ألكسندر وإليزابيث».. وتحت الأضواء الساطعة الناعمة ـ الصادرة من الشموع المصنوعة من الشحم ـ تقدّم حاكم عام من عهد «كاثرين»، تزيِّن صدره نجمة، وقد تأبَّط ذراع زوجة المارشال النحيلة المهزولة.. فشرع الباقون من علية القوم ينسابون رويداً رويداً ـ مع زميلاتهم ـ على الأرض الخشبية المصقولة، في قاعة الرقص الكبيرة، في تجمعات عديدة ومتباينة.. وهنا دخل زاڤالشيڤسكي مرتدياً جوربين طويلين، وحذاءين عاليين كذلك، وسترة زرقاء ذات ذيل طويل رفيع، وياقة واسعة من اللباد، وقد تصاعد منه عبير قوي.. عبير عطر الياسمين الهندي الذي نثره بغزارة على صدر سترته، ومنديله، وشاربيه.

أمّا الضابط الوسيم، المنتمي إلى كتيبة الفرسان الخفيفة، والذي أقبل معه، فكان يرتدي سروالاً ذا لون أزرق سماوي، من سراويل ركوب الخيل، وقد أحكم حول جسمه إحكاماً تامّاً، وسترة قرمزية موشاة بالذهب، ثبت إلى صدرها صليب ڤلاديمير، ووسام ١٨١٢(*). وما كان الكونت بالرجل الطويل، ولكن جسمه كان متناسق البنيان

(*) وسام كان يمنح لمن أبلى البلاء الحسن في الدفاع عن روسيا ضد نابليون بونابرت.

بدرجة تلفت الأنظار. وكانت عيناه ـ اللتان امتازتا بزرقة صافية وبريق شديد ـ وشعره البني القاتم الشديد الجعودة، تضفي طابعاً رائعاً على وسامته. وكان مقدمه إلى الحفلة الراقصة متوقعاً، إذ إن الشاب المليح الذي لقيه في الفندق، كان قد هيأ المارشال لذلك. وكان النبأ قد أحدث آثاراً عديدة، لم تكن ـ في أغلبها ـ سارّة!.. فقد كان رأي الرجال، والسيدات المسنّات، يتمثّل في: «ليس من المستبعد أن يعرضنا هذا الشاب للسخرية!».. أمّا السيدات اللائي لم يتجاوزن الشباب ـ متزوّجات أو غير متزوّجات ـ فإنَّ ما جال في خواطرهن، لم يخرج عن: «ماذا يكون لو أنه هرب بي؟»!

وما إن انتهى لحن الرقصة البولندية، وانحنى كل راقص لمن راقصته فبادلته بدورها الانحناء، حتى افترقوا، فاجتمعت النساء في فريق، والتم الرجال في فريق آخر.. وإذ ذاك، قدّم زاڤالشيڤسكي الكونت إلى سيدة القصر، وهو فخور، مغتبط.. وشعرت زوجة المارشال بقشعريرة تسري في أعماقها، خشية أن يوليها هذا الفارس الشاب معاملة فاضحة أمام الجميع، فأشاحت في ترفُّع وازورار، وهي تقول: «يسرني كل السرور أن أراك، وآمل أن تنعم بالرقص!». ثم رمقته بنظرة متريِّبة، وكأنها تقول: «تذكَّر أنك إذا جرحت شعور امرأة، فسيثبت لي هذا أنك شقي لئيم!».

غير أن الكونت سرعان ما فلّ مخاوفها ورأيها السيّئ عنه بلطفه، وسلوكه الذي نمَّ عن فطنة ورعاية، ومظهره الوسيم الطروب، ومن ثم فلم تنقض دقائق خمس، حتى كان التعبير الذي ارتسم على وجه زوجة المارشال ينبئ القوم: «إنني خبيرة بترويض السادة الذين من هذا القبيل، فقد أدرك لفوره من التي يُعاملها، ومن ثم فسوف يظل يبدي لي مسلكاً مقبولاً طيلة السهرة!». وفوق ذلك، فإن حاكم البلدة ـ الذي كان على معرفة بوالد الكونت ـ سعى إليه، في تلك

اللحظة، وانتحى به جانباً، وهو في بشاشة بالغة، وراح يتحدث معه، ما زاد في طمأنينة المجتمع الريفي الموجود، ورفع من تقدير القوم للكونت.

*

وما لبث زاڤالشيڤسكي أن قدَّم الكونت ـ بعد ذلك ـ إلى أخته.. وكانت أرملة شابة سمينة في التفاف، لم تفارق عيناها السوداوان الواسعتان الكونت منذ اللحظة التي دخل فيها القاعة. وسألها الكونت أن تراقصه الڤالس الذي كانت الفرقة الموسيقية قد شرعت تعزفه، وإذ ذاك تبدّدت البقية الباقية من الآراء التي كانت قد خامرت القوم، حين رأوا أسلوبه البارع في الرقص!

قالت سيدة بدينة، من صاحبات الأرض، وهي ترقب ساقيه في سروال الركوب الأزرق، وقد راحتا تتنقلان على أرض الحجرة في رشاقة وخفة: «يا له من راقص رائع!». وأخذت تحسب حركات قدميه في سريرتها: «واحدة، اثنتان، ثلاث.. واحدة، اثنتان، ثلاث.. بديع!»..وقال آخر، وكان زائراً للمدينة لا يعتبره مجتمعها المحلي من علية القوم: «انظر كيف يمضي.. جيج، جيج، جيج!.. كيف يتفادى أن يرتطم مهمازاه معاً؟.. إنه لرائع، ماهر».

ولفت رقص الكونت الفني الأنظار، حتى لقد طغى على تألُّق أفضل ثلاثة راقصين في الإقليم، وهم: ياور الحاكم، الطويل الأشقر الشعر، الذي امتاز بسرعته في الرقص، وبأنه كان يشد زميلته إلى صدره.. والفارس المتقاعد، الذي اشتهر بحركاته المترنِّحة الرشيقة في رقصة الڤالس، وبالدقّات المتوالية الخفيفة التي كان يوقّعها على الأرضية بكعبيه.. وشخص من المدنيين، كان كل امرئ يقول إنه لم يكن نبيهاً جدّاً، ولكنه كان راقصاً من الدرجة الأولى، وكان روح كل حفلة راقصة!.. والواقع أنَّ هذا الشخص كان يسأل كل السيدات أن

يراقصنه، كلاً بدورها، بترتيب مجلسها، ولم يكن يتوقف قط، اللهم إلاّ في فترات عابرة، ليجفِّف العرق عن وجهه - الذي كان يحتفظ ببشاشته رغم علامات الإرهاق - بمنديل مندّى من الكتان الناعم.

لقد طغى الكونت على تألقهم جميعاً، ورقص مع أرقى ثلاث سيدات: السيدة الطويلة، الغنيَّة، المليحة، الغبية!.. والسيدة المتوسطة الطول، النحيلة، التي لم تكن بارعة الحسن ولكنّها كانت بديعة الملبس.. والسيدة التي كانت ضامرة الجسم، خالية من الحسن، ولكنها كانت حاذقة في الرقص!.. ورقص الكونت توربين مع أخريات كذلك.. مع جميع الحسان، وقد كنَّ كثيرات في القصر.. ولكنَّ أخت زاڤالشيڤسكي - الأرملة الشابة - كانت خير من رقن له من النساء. فرقص معها رقصة من نوع الكدريل، وأخرى إيقوسية، وثالثة من رقصات مازوركا.. وعندما جلسا معاً - خلال الكدريل - شرع يغدق عليها مجاملاته، فشبَّهها بڤينوس، وديانا، والوردة، وبنوع آخر من الزهور. ولكن كل هذه المجاملات لم تؤد إلاّ إلى أن كانت الأرملة تحني عنقها البض، وتنكس عينيها فتنظر إلى ثوبها الموسلين الأبيض، أو تنقّل مروحتها من يد إلى يد. ولكنّها عندما كانت تقول: «لا تغرق في المجاملة يا كونت، فما أراك إلاّ تمزح!» - وما إلى ذلك من كلمات - كانت تقولها في بساطة ساذجة، وحياء مثير، بصوتها الذي كان ينبعث من أعماق حنجرتها، حتى لقد كان الناظر إليها يراها زهرة - في الواقع - وليست امرأة.. وزهرة ليست من النوع المألوف، وإنّما من تلك الأزهار البرية الزاهية، العديمة العبير، ذات اللون الأبيض المشرب بحمرة وردية.. زهرة من هذا النوع، نمت وحيدة، وسط سيل من الجليد، في مكان ناء سحيق!

هذا المزيج من السذاجة وعدم مشابهة النساء المألوفات، مع نضارة جمالها، أحدث في نفس الكونت أثراً غريباً، حتى لقد تملّكته

الرغبة مراراً ـ في أثناء فترات الصمت، وهو يتأمل عينيها والتفاف عنقها البديع وذراعيها الجميلتين ـ في أن يحتويها بين ذراعيه، ويغرقها بقبلاته.. ولقد راودته هذه الرغبة بقوة، حتى لقد اضطر إلى أن يبذل مجهوداً جدياً في مقاومتها!.. ولاحظت الأرملة ـ في اغتباط ـ الأثر الذي أحدثته في نفسه، غير أن شيئاً في سلوك الكونت بدأ يوقع الخوف في نفسها ويثيرها ـ في آن واحد ـ مع أن الضابط الفارس الشاب كان، بالرغم من لطفه الفتّان، يبدي لها من الاحترام ما قد يُعتبر ـ في أيامنا هذه ـ ممجوجاً!.. فقد هُرع ليجلب لها شراباً من عصير اللوز، والتقط منديلها، واختطف لها مقعداً من يد شاب من الأعيان ـ مصاب بالدرن الخنزيري ـ كان يتراقص حولها ليظفر بها سريعاً.. وهكذا.

وعندما لاحظ أن المجاملات، التي اصطلح عليها مجتمع عصرهما، كانت قليلة التأثير في السيدة، حاول أن يطربها بأن راح يروي لها قصصاً مضحكة، ويؤكد لها أنه كان على استعداد لأن يقف على رأسه، أو أن يصيح كالديك، أو أن يقفز من النافذة، أو أن يغوص في الماء خلال ثغرة في الجليد، إذا هي أمرته بأن يفعل شيئاً من ذلك. وأسفرت هذه الطريقة عن نجاح، فقد أشرق محيّا الأرملة، وانطلقت في سيل من الضحكات ذات الرنين العذب، كاشفة عن أسنان بيضاء جميلة.. ورضيت كل الرضى عن فارسها. وأخذ الكونت يزداد حباً لها دقيقة بعد أخرى، فلم تنته رقصة الكدريل حتى كان مدلّهاً بحبّها حقّاً!.. وعندما تقدم إليها المعجب المفتون ـ ابن الثمانية عشر عاماً ـ الذي طال به الوقوف في انتظارها (وهو الشاب المدرن نفسه الذي اختطف منه توربين المقعد، وقد كان ابن أغنى مالك للأرض في المنطقة) تلقّته الأرملة في فتور بالغ، ولم تبد عُشر ما كانت قد خبرته من انفعال في صحبة الكونت!.. وقالت له، وهي

لا تنفك تنظر إلى توربين، وتقدّر ـ دون أن تفطن ـ عدد الياردات من الخيط الذهبي المجدول، الذي تطلّبه وشي سترته: «إنك كريم! ألم تكن قد وعدتني بأن تأتي لتصطحبني إلى الحفلة، وأن تحضر لي بعض الحلوى». فأجاب الفتى، الذي كان ذا صوت رفيع حاد، رغم طول قامته: «لقد ذهبت إليك يا آنا فيدوروڤنا، ولكنك كنت قد خرجت. وقد تركت بعضاً من أفخر الحلوى لك!».

ـ إنك تجيد انتحال الأعذار دائماً!.. أنا لا أريد حلواك..

فقال: «أرى أنك قد تغيَّرت نحوي يا آنا فيدوروڤنا، وإني لأعرف السبب. ولكنك لست على صواب»، ولم يقو على أن يتمَّ حديثه، إذ إن الانفعال، الذي اختلج في أعماقه، جعل شفتيه ترتعشان بسرعة ودرجة عجيبتين. ولم تنصت إليه آنا فيدوروڤنا، بل راحت تلاحق توربين بعينيها.

وأقبل سيد القصر ـ المارشال الكهل البدين، البهيّ المنظر، العديم الأسنان ـ فتقدّم من الكونت، وتأبط ذراعه، ودعاه إلى حجرة مكتبه ليدخّنا ويشربا كأساً. وما إن بارح توربين القاعة، حتى أحست آنا فيدوروڤنا أنه لم يعد لها ما تفعله هناك، فبارحت القاعة إلى غرفة الزينة، متأبطة ذراع صديقة لها.. عذراء مسنَّة، بارزة العظام!.. وسألتها العذراء: «أظريف هو؟». فأجابتها آنا فيدوروڤنا، وهي تمشي إلى المرآة فتتأمل صورتها: «إنما يضايقني ظرفه!».. وأشرق وجهها، وضحكت عيناها، بل وتضرَّج وجهها. ثم راحت تطوف في الحجرة ـ فجأة ـ على قدم واحدة، مقلِّدة راقصات الباليه اللائي رأتهن في أثناء الانتخابات.. ثم أطلقت ضحكها الذي كان ينبعث من أعماق حلقها، ولكنه كان طروباً عذباً، وثنت ركبتيها، ثم وثبت وهي تقول: «تصوَّري أي رجل هو!.. لقد ذهب به الأمر إلى درجة أن سألني تذكاراً. ولكنه لن يظفر بـ.. شيء.. ما!». وكأنما كانت

تتغنّى بالكلمتين الأخيرتين!

*

كانت في حجرة المكتب ـ حيث اصطحب المارشال توربين ـ زجاجات من مختلف أنواع الڤودكا، والمشروبات الروحية الحلوة المذاق، والشمپانيا، فضلاً عن الشطائر والفطائر والمشهيات. وكان الأعيان الذين راحوا يتمشون في الحجرة، أو جلسوا وسط سحب من دخان التبغ، يتحدَّثون عن الانتخابات. فكان قائد الشرطة الذي انتُخب حديثاً يقول: «أما وقد شرفه مجتمع أعياننا المبجَّل بانتخابه، فما كان له ـ بأي حال من الأحوال ـ أن يتجاوز حدَّه، متحدِّياً المجتمع بأسره...». على أنَّ دخول الكونت قطع عليه الحديث، إذ رغب كل امرئ في أن يتعرف إليه، وظل قائد الشرطة ـ بوجه خاص ـ يضغط يد الكونت طويلاً، ويسأله ملحفاً أن لا يرفض أن يرافقه إلى المطعم الجديد الذي كان قد دعا السادة الحضور إليه عقب الرقص، وحيث كان الغجر يغنّون. فوعده الكونت بأن يلبّي الدعوة، وشرب معه بضع كؤوس من الشمپانيا!

قال الكونت وهو يهم بمغادرة الحجرة: «ولكن، لم لا ترقصون يا سادة؟». فرد قائد الشرطة ضاحكاً: «لسنا راقصين بارعين، بل الخمر أحب إلينا يا كونت.. ثم إنني رأيت كل هؤلاء الشابات منذ حداثتهن يا كونت!.. على أنني أستطيع أن أؤدي خطوات الرقصة الإيقوسية من آن إلى آخر!». فقال توربين: «إذاً، فتعال وارقص دوراً، فإن هذا خليق بأن يبهجنا قبل أن نذهب ونسمع أغاني الغجر!».

وهمَّ ثلاثة، أو أربعة، من النبلاء، الذين كانوا يشربون الخمر في حجرة المكتب ـ منذ بداية الحفلة ـ أن يتبعوا الكونت إلى قاعة الرقص، عندما استوقفهم الشاب ذو الوجه المدرن. وتعرَّض

للكونت وقد غاض لونه، وراح يحبس دمعه بعناء، وهو يقول: «أتظن أن بوسعك أن تصطدم بالناس المحيطين بك، وكأنك في سوق عامة، لمجرد أنك كونت؟».. وأخذ يتنفس بجهد، وهو يردف: «هذه قلة أدب..». ومن جديد، حبست شفتاه المرتجفتان الكلمات، بالرغم مما كان يبذل من عناء. فصاح توربين، وهو يعبس فجأة: «ماذا؟.. ماذا أيها الولد المدلّل؟!». وأمسك بذراعيه، فراح يعصرهما حتى تدافع الدم إلى رأس الشاب من الخوف، أكثر ممّا كان من الاستياء.. وعاد الكونت يصيح به: «أتريد النزال؟.. إنني رهن أمرك!».

وما إن أفلت توربين ذراعي الشاب حتى تلقّفه اثنان من النبلاء، وراحا يجرّانه إلى الباب الخلفي، وهما يقولان له: «هل فقدت رشدك؟.. لا بد أنك ثمل!.. ماذا يحدث لو قلنا لأبيك!». فصاح الشاب بصوته الرفيع: «لا، لست ثملاً، ولكنه ارتطم بي ولم يعتذر!.. إنه خنزير!». ولكنهما لم يصغيا إليه، وسرعان ما حُمل إلى داره، بينما كان قائد الشرطة وزاڤالشيڤسكي يعتذران إلى الكونت قائلين: «لا تستأ يا كونت، فهو ليس سوى ولد صغير. إنه لا يزال يُضرب من أبيه، فهو لم يتجاوز السادسة عشرة.. ما الذي أصابه؟.. وكيف يفعل هذا، وأبوه رجل محترم؟».. فقال الكونت: «لا بأس، ليذهب إلى الشيطان!».. وعاد إلى قاعة الرقص حيث راقص الأرملة الحسناء وهو في مرحه السابق، ثم دوّت ضحكته في أرجاء القاعة، عندما زلق قائد الشرطة - وهو يحاول الرقص - فهوى بكل طوله على الأرض، وسط حشد الراقصين!

5

الأرملة الحسناء

في أثناء وجود الكونت في حجرة المكتب، كانت آنا فيدوروڤنا قد سعت إلى أخيها، وسألته، وهي تتظاهر بعدم الإفراط في الاهتمام: «من كان ذلك الضابط ـ من الفرسان ـ الذي راقصني، يا أخي؟». فبيَّن الفارس المتقاعد لأخته ـ بكل ما أوتي من بيان ـ عظمة ذلك الضابط التابع لكتيبة الفرسان الخفيفة، وأنبأها ـ في الوقت ذاته ـ بأن الكونت ما مكث في البلدة إلاّ لأن نقوده سرقت منه في الطريق، وأنه قد أقرضه مائة روبل، بيد أن هذا المبلغ لم يكن كافياً.. فهل لأخته أن تقرض الكونت مائتي روبل أخرى؟.. على أن زاڤالشيڤسكي سألها أن لا تحكي ذلك لأحد ما، أيّاً يكن الأمر، ولا سيما للكونت نفسه. فوعدت آنا فيدوروڤنا بأن ترسل المبلغ إلى أخيها في اليوم ذاته، ليبقى الأمر سرّاً. بيد أنها شعرت ـ في أثناء الرقصة الإيقوسية ـ بشوق جارف إلى أن تعرض بنفسها على الكونت أي مبلغ يشاء. وفكّرت طويلاً، وقد تضرَّج وجهها، ولكنها ذكرت الموضوع في النهاية ـ وبجهد بالغ ـ على هذا النحو: «أنبأني أخي بأن سوء الطالع حلَّ بك في الطريق، يا كونت، وأنك لا تحمل الآن نقوداً. فإذا كنت بحاجة إلى شيء منها، فهلاّ تقبله مني؟.. إنَّ هذا كفيل بأن يسرّني!».

على أنها لم تكد تقول هذا، حتى انتابها خوف مبهم، وتضرّج وجهها. وغاض من وجه الكونت كل ابتهاج في الحال، وقال في جفاء: «إنَّ أخاك أحمق!.. إنك لتعرفين أن الرجال يتبارزون، إذا أهان أحدهم الآخر، أمّا عندما تهين امرأة رجلاً، فماذا تحسبينه

يفعل؟». واشتد احمرار وجه آنا فيدوروڤنا المسكينة وعنقها، لفرط ارتباكها. وغضّت بصرها، ولم تنبس ببنت شفة. فقال الكونت في صوت خفيض، وهو يميل على أذنها: «إنّه يقبّلها أمام الملإ!». وأردف هامساً، بعد صمت طويل، وهو يشفق على صاحبته من الارتباك: «فاسمحي لي بأن أقبّل يدك.. على الأقل!».

وزفرت آنا فيدوروڤنا زفرة طويلة، وقالت: «ولكن، ليس الآن!».

ـ متى إذاً؟ إنني راحل في صباح الغد الباكر، وأنت مدينة لي بقبلة؟

فقالت آنا فيدوروڤنا، وهي تبتسم: «إذاً، فالأمر مستحيل!».

ـ لن أطالبك بأكثر من أن تتيحي لي لقاءك الليلة لأُقبّل يدك. ولن يعييني انتهاز فرصة للقاء!

سألته: «وكيف؟». فأجاب: «ليس هذا شأنك، فكل شيء ممكن، في سبيل أن أراك.. فهل نحن على اتفاق؟».. وأجابت: «على اتفاق!». وهنا كانت الرقصة قد انتهت، فرقصا بعدها المازوركا، وأبدى الكونت براعة فائقة في اختطاف المناديل، والركوع على ركبة، وصك مهمازيه ـ الواحد بالآخر ـ على طريقة لا يجيدها الراقصون في غير مدينة وارسو، حتى أن المسنّين من القوم، تركوا جميعاً ألعابهم، وتقاطروا على قاعة الرقص ليشهدوا الكونت.. واعترف الفارس المتقاعد ـ وهو أحسن راقصيهم ـ بأن نجمه أفل إلى جانب تألق الكونت!.. وما لبثوا أن تناولوا العشاء، ثم رقصوا رقصة الجد، وأخذ الحفل ينفض بعد ذلك.

*

لم يكن الكونت قد حوَّل عينيه عن الأرملة الحسناء الشابة، فما كان قوله عن استعداده لأن يغوص خلال ثغرة بين الجليد من أجلها محض مجاملة أو تلطُّف!.. وسواء أكان الأمر نزوة، أم غراماً، أم

عناداً، فإنّ كل قوى الكونت العقلية، تركزت ـ في تلك الأمسية ـ على رغبة واحدة.. أن يلتقي بالأرملة، وأن يطارحها الغرام!.. وما إن لاحظ أنَّ آنا فيدوروڤنا كانت تستأذن مضيفتها في الانصراف، حتى هُرع إلى غرفة رئيس الخدم، ثم جرى ـ من دون معطفه المصنوع من الفراء ـ إلى فناء القصر، فاتجه صوب المكان الذي اصطفّت فيه العربات، وصاح: «عربة آنا فيدوروڤنا زايتسيڤا!».. وإذا بعربة مرتفعة، مغلقة، ذات أربعة مقاعد، تتحرك مقبلة صوب المدخل، ومصابيحها متَّقدة. فصاح بالحوذي: «توقّف!». وأسرع صوب العربة، وهو يخوض في الثلج حتى ركبتيه!

سأله الحوذي: «ماذا تريد؟». فأجاب الكونت وهو يفتح باب العربة، ويحاول الصعود إليها وهي سائرة: «أريد أن أجلس داخل العربة. توقّف!.. إنني آمرك، أيها الأحمق!». فصاح الحوذي في مساعده: «توقف يا ڤاسكا».. وجذب أعنّة الجياد، ثم قال للكونت: «ماذا تبغي من الصعود إلى عربات الآخرين؟.. إن هذه عربة مولاتي «آنا فيدوروڤنا»، وليست عربة فخامتك!». فقال الكونت: «اسكت، أيها الغبي!.. هاك روبل وانزل فأغلق الباب!». ولمّا لم يحر الحوذي حراكاً، رفع الكونت سلم العربة بنفسه، وخفض زجاج النافذة، وتحايل على إغلاق الباب. وكانت العربة، ككل العربات القديمة ـ ولا سيما تلك التي تُستعمل فيها أشرطة من القصب الأصفر ـ عابقة برائحة فجّة. كرائحة الوبر المحترق. وكانت ساقا الكونت قد ابتلتا بالثلج حتى الركبتين، فشعر بأنه مقرور، إذ كان نعلاه خفيفين، وسروال الركوب منتفخاً، ومن ثم فقد نفذ برد الشتاء إلى جسمه كله. وكان الحوذي يغمغم، وقد بدا أنه يتهيأ للهبوط من مكانه، ولكن الكونت لم يسمع ولم يشعر بشيء.. كان وجهه يتأجج، وقلبه يخفق سريعاً.. وفي غمرة انفعاله العصبي، أمسك بشريط النافذة

الأصفر، ومال إلى الداخل - حتى لا يُرى من خلالها - وقد انصرف بكل كيانه إلى الترقُّب!.. ولم يطل هذا الترقُّب، فقد انبعث نداء من المدخل: «مركبة زايتسيڤا!»، فحرّك الحوذي أعنة الجياد، وتمايل هيكل العربة على نوابضه المرتفعة، وتتابعت نوافذ الدار المضيئة، والعربة تمر بها.

وهمس الكونت للحوذي، وهو يطل عليه من النافذة الأمامية: «تذكّر أنني سأسوطك إذا قلت لرئيس الخدم إنني هنا. أمّا إذا أمسكت لسانك، فستظفر بعشرة روبلات أخرى!». وما إن أغلق النافذة، حتى ارتج هيكل العربة بشدة، ثم توقّفت. وانكمش الكونت وازداد التصاقاً بالركن، وقد حبس أنفاسه، وأغمض عينيه، واشتد به الخوف من أن يبدِّد شيء ما ذلك الترقُّب الذي كان يؤجِّج عواطفه.. وما لبث باب العربة أن فُتح، فانخفض السلم درجة بعد أخرى، في جلبة. وسمع الكونت حفيف ثوب امرأة، ثم شم عبير الياسمين يملأ جو المركبة فيطغى على الرائحة الممجوجة التي كانت تعبق فيه.. وصعدت الدرج قدمان خفيفتان، سريعتان، ثم ارتمت آنا فيدوروڤنا في صمت إلى جواره، وقد احتك ذيل معطفها بساقه.. وكانت أنفاسها متهدِّجة! وليس بوسع امرئ - حتى هي - أن يجزم بما إذا كانت قد رأته، أو أنها لم تره.. ولكنها أبدت ارتياعاً ضئيلاً عندما تناول يدها، وقال: «الآن بوسعي أن أُقبِّل يدك الصغيرة!».. ولم تحر جواباً، ولكنها أسلمته ذراعها، فراح يغمر الذراع بقبلاته، إلى ما فوق قفازها.

وانطلقت العربة، فقال: «قولي شيئاً!.. أغاضبة أنتِ؟».

فازدادت انكماشاً في ركنها، وهي صامتة، على أن شيئاً ما لم يلبث أن حملها على أن تنفجر بالبكاء فجأة، وتركت رأسها يهوي على صدره، من تلقاء نفسها!!

6

ستيشكا الغجرية

كان قائد الشرطة، المنتخب حديثاً، وضيوفه ـ الفارس المتقاعد وغيره من أعيان القوم ـ قد قضوا وقتاً طويلاً في الإصغاء إلى أغاني الغجر، وفي معاقرة الخمرة، في المطعم الجديد، عندما لحق بهم الكونت، وقد ارتدى معطفاً مبطَّناً بفراء الدب، كان يوماً لزوج آنا فيدوروفنا المتوفى. قال له غجري ذو عينين شديدتي السواد، حولاوين، وقد سارع إلى استقباله عند المدخل، وإلى معاونته على خلع المعطف، وهو يكشف عن أسنانه البيضاء: «الحق أننا كنا ننتظرك بفارغ الصبر، يا صاحب السعادة، فنحن لم نرك منذ سوق لبيدياني.. إنَّ ستيشكا لشديدة التلهف إلى رؤيتك!».

كانت ستيشكا غجرية شابة، رشيقة، مياسة القوام، يتألق وجهها بلون كلون الآجر الأحمر، وقد أوتيت عينين عميقتين، براقتين، تظلّلهما أهداب طويلة. وقد هرعت هي الأخرى لاستقبال الكونت، متمتمة، وهي تبتسم في طرب: «آه، يا كونتي الصغير!.. يا حبيبي! يا جوهرة!... يا للبهجة!».. وجرى إيليوشكا نفسه ـ زعيم الفرقة ـ لتحيَّته، وقفزت العجائز والزوجات والعذارى فأحطن بالضيف، بعضهن يزعمن أنه «إشبين» لهن، والبعض يزعمن أنه قد عقد رباط الأخوة معهن. وقبّل توربين شفاه الشابات، بينما قبّلت العجائز والرجال كتفه أو يده. وابتهج علية القوم بوصول ضيفهم، ولا سيما أن الشراب كان قد بلغ أوجه، وبدأت بهجته تخبو، كما بدأ كل امرئ يشعر بالاكتفاء.. ففقدت الخمر مفعولها المثير للأعصاب،

وأصبحت مجرد عبء يثقل المعدة. وكان كل امرئ قد أفرغ كل ما في جعبته من تهريج، وشرع يسأم صحبة الآخرين.. وكانت الأغاني قد غُنِّيت جميعاً، واختلطت في رأس كل فرد، مخلِّفة ضجة وانحلالاً.. ولم يعد كل أمر غريب، أو متهوِّر، يأتيه أي امرئ بذي بال، بل بدأ يلوح لكل امرئ أن ليس ثمة شيء مستحب أو مطرب فيما كان يصدر.. وشرع قائد الشرطة، الذي استلقى على الأرض عند قدمي امرأة عجوز ـ في حال مثيرة للدهشة ـ يحرِّك ساقيه في الهواء، صارخاً: «شامپانيا!.. لقد أقبل الكونت!.. شامپانيا!.. لقد جاء!.. هيّا، شامپانيا!.. سأملأ حوض الاستحمام بالشمپانيا وأستحم فيها!.. أيها السادة النبلاء، إنني أحب مجتمع طبقتنا الراقية العريقة.. غنِّنا يا ستيشكا».

وكان الفارس المتقاعد قد ثمل هو الآخر، ولكن.. بشكل مغاير، فقد جلس على أريكة في ركن من المكان، ملتصقاً بغجرية حسناء طويلة، تدعى ليوپاشا. وقد راح يطرف بأهدابه ـ وهو يشعر بغشاوة على عينيه ـ ويهزّ رأسه، ويهمس مكرِّراً كلامه مراراً، متوسّلاً إليها أن تهرب معه إلى أي مكان. وكانت ليوپاشا تنصت إليه مبتسمة، وكأن ما كان يقوله قد راق لها. ومع ذلك فقد بدا عليها شيء من الأسى، وهي تنظر ـ من آن إلى آخر ـ نحو زوجها ساشكا الأحول، الذي كان يقف خلف المقعد المواجه لها.. ثم مالت على الفارس المتقاعد، وهمست في أذنه تسأله ـ ردّاً على إعلانه الحب لها ـ أن يبتاع لها شيئاً من العطر والأشرطة.. في الخفاء!

وصاح الفارس المتقاعد، عندما دخل الكونت: «مرحى!».. وكان الشاب الوسيم يذرع القاعة جيئة وذهاباً بخطوات كان يعاني جهداً لكي تكون ثابتة، وعلى سيمائه علامات الضيق والهمّ، وهو يترنَّم بلحن من أوپرا «السيراجليو». وكان ثمة جدّ كهل ـ استدرجه

إلحاح علية القوم عليه كي يأتي لسماع الغجر، مؤكدين له أن الحفل من دونه يفقد قيمته ـ فاستلقى على أريكة لازمها منذ قدم، دون أن يحفل به أحد. وكان ثمة موظف بين الحشد، خلع سترته ذات الذيل الطويل، وجلس فوق المائدة ـ رافعاً قدميه إليها ـ وقد نشر شعره، وأظهر بذلك أنه قد ثمل تماماً. وما إن دخل الكونت المكان، حتى فتح الموظف صدر قميصه، وتزحزح إلى وسط المائدة!

خلاصة القول أنَّ وصول توربين أنعش مجلس الشراب، وتجمعت الغجريات ثانية، بعد أن كنَّ يجسن خلال الحجرة، وجلسن في حلقة.. وأجلس الكونت المغنية الأولى ستيشكا على ركبتيه، وأمر بمزيد من الشمپانيا. وجاء إيليوشكا فوقف أمام ستيشكا حاملاً قيثارة، وبدأ الرقص على أغاني الغجر: «عندما تنطلق في الطريق، أيها الضابط الفارس، أتراك تسمع.. أتراك تعلم؟»، وما إلى ذلك.. وكان غناء ستيشكا مطرباً.. كان الصوت المرنّ الرنان ـ الذي انساب من أعماق صدرها ـ وابتسامتها المرافقة للغناء، وعيناها الضاحكتان الصارختان بالعواطف المشبوبة، وقدمها التي كانت تتحرّك ـ دون وعي ـ حركات رتيبة متَّسقة مع الإيقاع، وصرخاتها الجامحة كلما بدأ المردِّدون يردِّدون مقاطع الغناء.. كل هذه كانت تمس وتراً حسّاساً في القلب، ولكنه نادراً ما يُمسّ!.. كان من الواضح أن الغجرية لم تكن تعيش إلاّ في جوّ أغنيتها.. وكان إيليوشكا يعزف لها على القيثار، وظهره، وساقاه، وابتسامته، وكل كيانه يعبِّر عن انسجام مع الأغنية.. وقد راح يرقب الفتاة في ولهٍ، ويرفع رأسه ويخفضها وقد استغرق في الأغنية بكل انتباهه، وكأنه يستمع إليها لأول مرة. وما لبث ـ عندما بلغ آخر الأنغام المشجية ـ أن اعتدل بقامته فجأة، وكأنه يشعر بأنه أسمى من كل امرئ في الدنيا، وألقى قيثاره عند قدميه في زهو واعتداد، وركله، ودق الأرض بقدمه، وطوّح شعره إلى الوراء، وتلفّت إلى الفرقة الموسيقية وهو

متجهّم. وبدأ كل جسمه ـ من العنق حتى الكعبين ـ يرقص بكل عضل فيه.. وانطلق في الجو عشرون صوتاً عالياً، قوياً، حاول كل منها أن يبعث هتافاً أشد وأعلى من الأصوات الأخرى. وأخذت العجائز يقمن ويهبطن على مقاعدهن، ملوِّحات بمناديلهن، كاشفات عن أسنانهن، تنافس كل منهن الأخريات في صيحاتهن المنغّمة، ذات الإيقاع. وأخذ أصحاب الأصوات الخفيضة المليئة يمدون أعناقهم، وقد مالوا برؤوسهم جانباً، وهم يهتفون، بينما كانوا وقوفاً خلف المقاعد!

وعندما عادت ستيشكا ترفع عقيرتها بالغناء، حمل إيليوشكا قيثاره إلى قربها، وكأنه كان يرغب في مساعدتها، وصاح الشاب النبيل الوسيم قائلاً إنهم بدأوا «البيمول»(*). وعندما حمي وطيس الرقص، وتقدمت ستيشكا تتلوى أمام الكونت، وتنساب مقتربة منه، وكتفاها وصدرها تهتز، وثب الكونت، فخلع سترته، وراح ـ في قميصه الأحمر ـ يخطو معها، بخفة، خطوات متقنة، متزنة، محدثاً بساقيه حركات أخذ الغجر يتبسمون لها بإعجاب، وهم يتبادلون النظرات!.. وجلس قائد الشرطة منتفخاً كالديك الرومي، يدق صدره بقبضته، ويصيح: «ڤيڤا!». ثم لمح ساقي الكونت، فشرع يعبّر عن إعجابه قائلاً إنه لم يتبق له من ألفي روبل سوى خمسمائة، وإنه لعلى استعداد لأن يفعل الكونت بها ما يشاء!.. واستيقظ رب الأسرة الكهل، ورغب في الانصراف، ولكن أحداً لم يسمح له.. وبدأ الشاب الوسيم يغري إحدى الغجريات بأن تراقصه الڤالس. أمّا الفارس المتقاعد، فقد شاء أن يبيّن مدى مودّته للكونت، فنهض واحتضنه، قائلاً: «آه، يا صديقي العزيز.. لماذا تركتنا، هه؟». وصمت الكونت، وقد بدا أنه كان يفكر في مسألة أخرى، بينما

(*) Bémal: خافضة، علامة الخفض في الموسيقى.

استطرد الرجل: «تُرى أين ذهبت؟.. آه، أيها الكونت الخبيث، إنني لأعرف أين ذهبت!».

ولسبب ما، ساءت هذه الألفة توربين، فنظر إلى وجه الفارس المتقاعد في صمت، دون أن يبتسم، ثم رماه فجأة بشتيمة فظيعة، جافية، تألّم لها الفارس، وظل برهة عاجزاً عن أن يقرّر ما إذا كان يعتبر الإهانة مزاحاً أو جدّاً!.. وما لبث أن قرّر أن يحملها على محمل المزاح، فابتسم، وعاد إلى غجريته، مؤكّداً لها أنه لن يلبث أن يتزوّج منها، بعد عيد الفصح!.. وردّد الغجر أغنية بعد أغنية، ورقصوا ثانية، ثم هتفوا للضيوف، وكل واحد من هؤلاء سادر في إيهام نفسه بأنه كان يستمتع بما يرى ويسمع. ولم يكن للشمپانيا حد أو نهاية. وقد شرب الكونت كثيراً، فأخذت غشاوة الخمر تتكاثف أمام عينيه، ولكنه لم يفقد اتزانه قط، بل إنه راح يرقص أحسن من ذي قبل، ويتكلّم بصوت ثابت النبرات، بل وانضم إلى الكورس، فراح يردِّد مقاطع الغناء بإتقان، عندما غنّت ستيشكا أغنية «أرق عواطف الصداقة». وفي أثناء الرقصة، أقبل صاحب المطعم فسأل الضيوف أن يعودوا إلى دورهم، إذ كانت الساعة تقترب من الثالثة صباحاً. وإذا توربين يمسك به من قفاه، ويأمره بأن يرقص الرقصة الروسية. ورفض الرجل، فاختطف زجاجة شمپانيا هدّده بها، حتى اضطره إلى أن يقف على رأسه، وأمره بأن يظل في هذا الوضع بين ضحكات الجميع، ثم راح يفرغ الشمپانيا فوقه!

وبدأ الفجر يتسلل، فإذا الجميع شاحبو الوجه، منهوكو القوى، ما عدا الكونت، الذي لم يلبث أن قال وهو ينهض فجأة: «حسن، لا بد لي من الرحيل إلى موسكو.. هيّا، جميعاً، تعالوا فشيِّعوني.. وسنحتسي معاً بعض الشاي!».. ووافق الجميع إلاّ رب الأسرة الكهل، الذي بقي مستغرقاً في نعاسه، بينما تزاحم الكل في ثلاث زحافات كانت مصطفّة عند الباب، وانطلقوا ناحية الفندق.

7

العرفان بالجميل

هتف الكونت وهو يدخل قاعة الجلوس في الفندق، متبوعاً بضيوفه والغجر: «أعدّوا الجياد!.. ساشكا!.. ليس ساشكا الغجري، وإنما ساشكا تابعي.. قل للمشرف على مركز البريد إنني سأسوطه إذا أعطاني جياداً سيئة! وهاتِ شاياً لنا.. تولَّ تقديم الشاي يا زاڤالشيڤسكي، فإنني ذاهب لأُلقي نظرة على إيلين، وأرى كيف هو حاله».. ومضى في الردهة، نحو غرفة الفارس الأوغلاني. كان إيلين قد فرغ لتوه من اللعب، وخسر آخر كوبك في جيبه، فانكفأ على الأريكة، وراح يجذب شعرة إثر شعرة - من غطائها المصنوع من شعر الخيل - فيرفعها إلى فمه، ويعضها حتى يشطرها، ثم يبصقها!.. وعلى المائدة - التي تناثرت فوقها أوراق اللعب - كانت ثمة شمعتان تكافحان ضوء النهار، الذي بدأ يتسلل خلال النافذة، وقد احترقت إحداهما حتى الورق الذي كان في التجويف الذي انتصبت فيه.

لم تكن في رأس إيلين فكرة واحدة، فقد غشيت حواسه غشاوة كثيفة من شهوة المقامرة.. حتى النّدم، لم يكن يشعر به. وبذل محاولة وحيدة ليفكر فيما ينبغي أن يفعل، وكيف يرحل وهو مفلس، وكيف يسدّد الخمسة عشر ألفاً من روبلات التاج، وما الذي يحتمل أن يقوله قائد كتيبته، وما الذي قد تقوله أمه وزملاؤه.. وشعر بخوف واشمئزاز من نفسه، حتى أنه - رغبة في نسيان نفسه - نهض، وراح يذرع الحجرة، محاولاً أن لا تهبط قدمه، في خطواته، إلاّ حيث تلتحم أخشاب الأرضية، وبدأ - من جديد - يتذكّر بوضوح كل دقيقة

من دقائق اللعب.. تمثَّل بجلاء كيف بدأ يكسب نقوده من جديد، وكيف سحب «تسعة» ووضع «الروا السباتي» على ألفي روبل. ووزع المشرف على البنك الورق، فنال اليمين «دام»، ونال اليسار «آس».. ثم «روا كبّه» إلى اليمين، فإذا كل شيء يضيع. ولو قدّر لليمين أن ينال «ستة» ـ مثلاً ـ وأن ينال اليسار «الروا الكبّة»، لقدر له أن يكسب، وللعب مرة أخرى على أن يكسب الضعف أو ينسحب من اللعب، ولربح خمسة عشر ألف روبل، ولاستطاع أن يشتري من قائد كتيبته جواداً ليّن الظهر، وزوجاً آخر من الجياد، ومركبة خفيفة «فايتون». ثم، ماذا بعد؟.. كان كل شيء يصبح بديعاً، رائعاً!.. وعاد الشاب ينبطح على الأريكة، يلوك شعر الخيل!.. وراح يسائل نفسه: «لماذا تراهم يغنون في الحجرة رقم ٧؟ لا بد أن ثمة شراباً عند توربين، أأذهب وأسكر؟».

*

وفي تلك اللحظة دخل الكونت، فصاح: «ماذا أيها الزميل؟ هل جُرِّدت من كل مالك؟». فقال إيلين لنفسه: «سأتظاهر بالنوم، وإلاّ فسوف اضطر إلى أن أتحدث إليه، مع أنني أريد أن أنام!». غير أن توربين تقدّم منه، وربت رأسه قائلاً: «حسن، يا صديقي العزيز، هل جُرِّدت من كل مالك؟.. هل خسرت كل شيء؟.. أنبئني!».

لم يحر إيلين جواباً، فجذب الكونت ذراعه، وإذ ذاك تمتم إلين ـ في صوت ناعس، غير مبالٍ، مثقل بالهم ـ دون أن يبدل من وضعه: «خسرت.. ولكن، ما شأنك أنت؟». فصاح الكونت: «كل شيء؟». وكان الجواب: «أجل.. وما في ذلك؟.. كل شيء، ففيم يعنيك الأمر؟». فقال الكونت وهو يميل إلى الترفق، تحت تأثير الخمر التي شربها، وقد ظل يربت شعر إيلين: «اسمع، صارحني بالحقيقة كزميل لك.. لقد تملّكني ميل إليك، فقل لي الحق. إذا كنت قد خسرت

نقوداً تمتّ إلى التاج فسأنقذك من مأزقك، فإن الفرصة سرعان ما تفلت.. أكان معك نقود للتاج؟». فقفز إيلين ناهضاً، وقال: «حسن، إذاً.. إذا شئت أن أُخبرك، فلا تتحدث إليَّ، لأنني.. أرجوك، لا تكلمني.. إن الحل الوحيد هو أن أطلق الرصاص على نفسي!».

وكان يأسه صادقاً.. وهوى رأسه على راحتيه، وانفجر باكياً، رغم أنه كان ـ قبل لحظة ـ يفكِّر في الخيل بهدوء.. وقال الكونت: «يا له من مسلك رائع، كمسلك البنات!.. أين الرجل الذي لم يفعل ما فعلته أنت؟.. إنها ليست نكبة كبرى، ولعلنا نستطيع إصلاح الأمر. انتظرني هنا!».

غادر الكونت الحجرة، فسأل خدم الفندق: «أين حجرة السيد لوخنوف؟». وتطوّع خادم بمرافقته إليها. ودخلها الكونت، رغم أن تابع لوخنوف الخاص أخبره بأن مولاه قد عاد لتوّه، وكان يخلع ثيابه.. ووجده الكونت جالساً إلى منضدة ـ وهو في ثوب الغرفة ـ وقد راح يُحصي عدة حزم من الأوراق المالية كانت ملقاة أمامه. وكانت على المنضدة زجاجة من روم الراين، الذي كان جد مولع به، فكان يسمح به لنفسه ـ بعد الكسب ـ على سبيل المتعة!.. وتطلّع لوخنوف في فتور وعبوس ـ خلال نظارتيه ـ إلى الكونت، وكأنه لم يعرفه. فقال هذا الأخير، وهو يخطو إلى المنضدة في إصرار: «أحسبك لا تعرفني!». فأبدى لوخنوف ما ينم عن معرفة، وسأله: «وما الذي تبتغيه؟». فأجاب توربين وهو يجلس على الأريكة: «أحب أن ألعب معك». فهتف الرجل: «الآن؟». وأجاب زائره: «أجل، الآن».

ـ يسرّني أن ألعب معك في وقت آخر يا كونت: أمّا الآن فإنني متعب، وسأخلد إلى فراشي. هل لك في قدح من الخمر؟.. إنه نبيذ مشهور!

ـ ولكنني أريد أن ألعب قليلاً.. الآن!

ـ لست أعتزم اللعب الليلة.. ربما رغب بعض السادة الآخرين، أمّا أنا، فلست أريد.. أرجو أن تعذرني يا كونت!

ـ إذاً، فأنت ترفض؟

وهزّ لوخنوف كتفيه، ليعبّر عن أسفه لعجزه عن التصرف بما يُرضي رغبة الكونت. بينما عاد هذا يسأله: «أترفض، مهما تكن الأحوال؟». ولم يتلق جواباً، سوى الهزّة نفسها. فقال: «ولكنني أرجو هذا، بوجه خاص.. فهل تلعب؟».. وكان الجواب صمتاً. فعاد الكونت يسأل: «هل تلعب؟.. فكّر!». ولم يجب الآخر بغير الصمت ونظرة سريعة ـ من فوق حافتي نظارتيه ـ إلى وجه الكونت، الذي بدأ يتجهّم. فصاح هذا بصوت عال، وهو يدق المنضدة بقبضته، فيقلب الزجاجة، ويريق الخمر: «هل تلعب؟.. أنت تعرف أنك لم تكسب عن حق.. هل تلعب؟ إنني أسألك للمرة الثالثة!»َ. فأجاب لوخنوف، دون أن يتطلع إليه: «قلت إنني لن ألعب.. إنه لأمر عجيب حقّاً، يا كونت. ثم إنه ليس من اللائق إطلاقاً أن تأتي فتسلط سكيناً على حلق رجل!».

وأعقب كلامه صمت، اشتد فيه شحوب الكونت. وفجأة، هوت على رأس لوخنوف ضربة، أذهلت حواسه، فوقع على الأريكة محاولاً أن يمسك بالنقود، وأطلق صرخة ارتياع مدوية، ما كان أحد ليتوقّعها من رجل في مثل هدوئه ورصانته. وجمع توربين ما كان على المنضدة من نقود، ودفع الخادم ـ الذي جرى لمعونة سيده ـ عن طريقه، وغادر الحجرة في خطوات سريعة. حتى إذا بلغ الباب، التفت إلى لوخنوف قائلاً: «إذا شئت ترضية، فأنا في خدمتك!».. وكان كل ما سُمع في الحجرة هو: «لص!.. سارق!.. سأستعدي القانون عليك!».

ولم يكن إيلين قد حفل بوعد الكونت بأن يساعده، فظل راقداً

على الأريكة في حجرته ـ كما كان راقداً من قبل ـ وهو يجهش ببكاء يائس.. ولم يبارحه إدراك حقيقة ما حدث له.. الإدراك الذي استطاعت ملاطفات الكونت وعطفه أن تكشف عنه من بين المشاعر والأفكار والذكريات المتشابكة، التي كانت تملأ رأسه ونفسه.. لقد ضاع كل شيء تماماً ـ شبابه المفعم بالأمل، وشرفه، واحترام المجتمع، وأحلام الحب والصداقة!.. وبدأ نبع دموعه يفيض ويجري باطراد، وأخذت فكرة الانتحار تزداد إلحاحاً عليه، ولم تعد تملأ نفسه اشمئزازاً وجزعاً.

وإذ ذاك، سمع خطوات الكونت الثابتة.. وكانت آثار الغضب لا تزال بادية على وجه توربين، كما كانت يداه تهتزان قليلاً، ولكن عينيه كانتا تفيضان بطرب رحيم، وبرضى عن النفس.. قال وهو يلقي على المائدة عدة حزم من الأوراق المالية: «إليك.. لقد اكتسبناها ثانية!.. تأكد من أن جميع نقودك هنا، ثم أسرع وتعال إلى قاعة الجلوس!».. ثم أضاف: «فإنني راحل لتوي».

وكأنما هو لم يلمح الفرح، والعرفان، والانفعال البالغ، على وجه إيلين، فترك الحجرة وهو يردِّد بالصفير لحناً من ألحان الغجر!

6

نحو موسكو

جاء ساشكا ـ وقد أحاط خصره بحزام عريض ـ فأعلن للكونت أن الجياد معدَّة، ولكنه أصرَّ على وجوب استرداد معطف الكونت ـ الذي قال إن ياقته الفرائية كانت تساوي ثلاثمائة روبل ـ وعلى إعادة المعطف الأزرق، الباهت، الذي كان الكونت يرتديه، إلى الشقي الذي تركه وأخذ معطف الكونت بدلاً منه، في قصر المارشال.. وما عرف حقيقة الأمر، ولكن الكونت قال له أن لا حاجة هناك إلى البحث عن المعطف، ثم سار إلى حجرته ليستبدل ثيابه، بينما استولى الفُواق على الفارس المتقاعد، وهو يجلس إلى جوار فتاته الغجرية.. وصاح قائد الشرطة يطلب ڤودكا، ودعا الجميع إلى أن يرافقوه ليتناولوا الفطور معه، مُمنِّياً إياهم بأن زوجته سترقص لا شك مع الغجر. وكان الشاب النبيل الوسيم مستغرقاً في حديث جدِّي مع إيليوشكا، ليبيِّن له أن ثمة روحاً حقة في أنغام البيانو، وأنه من غير المستحب توقيع الأنغام المنخفضة العميقة على القيثار. أمّا الموظف، فقد جلس واجماً في أحد الأركان، يحتسي الشاي، وقد بدا ـ في ضوء النهار ـ مستحيياً من سكره وتأثير الخمر فيه. وكان الغجر يتناقشون فيما بينهم ـ بلغتهم القومية ـ بصدد الهتاف ثانية لضيوفهم ـ على ما اعتادوا إذا أرادوا أن يختتموا غناءهم ورقصهم ـ فكانت ستيشكا تعارض، قائلة إن «أنباروردي» ـ وهي في اللغة الغجرية ترادف «كونت» أو «أميراً»، أو على الأدق: سيداً عظيماً ـ خليق بأن يغضب لذلك. وكانت آخر جمرات العبث تخمد في

نفوس الجميع، بوجه عام!

قال الكونت وهو يدخل قاعة الجلوس ـ في ثياب السفر ـ وقد تجدّد نشاطه ومرحه، وبدا أكثر وسامة من ذي قبل: «حسن، لنسمع أغنية وداع، ثم ينطلق كل منّا في طريقه!». فشكّل الغجر حلقتهم من جديد، وكانوا على وشك أن يبدأوا الغناء، حين دخل إيلين، وفي يده حزمة من الأوراق المالية، فانتحى بالكونت جانباً، وقال: «لم يكن معي من نقود التاج سوى خمسة عشر ألف روبل، ولكنك أعطيتني ستة عشر ألفاً وثلاثمائة.. فهاك المبلغ الزائد!».

ـ هذا بديع، هاته!

وأعطاه إيلين النقود، ونظر إليه في استحياء، ثم مطّ شفتيه ليقول شيئاً، ولكنه لم يتكلّم، بل تضرّج وجهه، وتبادرت الدموع إلى عينيه، وأمسك بيد الكونت وأخذ يشد عليها. فقال هذا الأخير: «عليك بالرحيل!.. اسمع يا إيليوشكا! هاك بعض المال لكم، على أن ترافقوني بالأغاني إلى خارج البلدة!».. وطوّح بالألف وثلاثمائة روبل ـ التي أحضرها إليه إيلين ـ فاستقرت على القيثار. ومع ذلك، فقد نسي الكونت أن يرد المائة روبل، التي كان قد اقترضها من الفارس المتقاعد، في اليوم السابق!

كانت الساعة قد شارفت على العاشرة، وقد أشرقت الشمس فوق سطوح المنازل، وبدأ الناس يروحون ويغدون في الطرقات، وقد فتح أصحاب الحوانيت الأبواب منذ فترة، وانطلقت عربات أعيان القوم وكبار الموظفين تجوس خلال الشوارع، وأقبلت السيارات على السوق.. ومختصر القول، كان النشاط قد دبَّ في المدينة، حين خرج الغجر ـ بفرقتهم كلها ـ وقائد الشرطة، والفارس المتقاعد، والنبيل الوسيم وإيلين، والكونت ـ في المعطف الأزرق المبطَّن بفراء الدب ـ إلى باب الفندق.. وكان النهار مشمساً، وقد أخذ الجليد في

الذوبان. وأقبلت على الباب ثلاث زحافات كبيرة - من زحافات البريد - تجرُّ كلاً منها ثلاثة جياد عقدت ذيولها.. وصعد إلى الزحافة الأولى: الكونت وإيلين، وستيشكا، وإيليوشكا، وساشكا تابع الكونت. وكان «بلوخر» يهز ذيله، وينبح بالجياد. وصعد بقية السادة إلى الزحافتين الأخريين، ومعهم سائر الغجر نساء ورجالاً. وما إن انطلقت الزحافات حتى بدأ الغجر يعزفون ويغنّون.. واختلط غناؤهم بأجراس الزحافات، فكانت المركبات الأخرى تندفع نحو الأرصفة، مفسحة في الطريق للموكب، الذي اندفع خلال البلدة، ميمّماً شطر أبوابها الخارجية.. ولم تبد الدهشة على أصحاب الحوانيت والمارّة الذين لم يكونوا يعرفون القوم - فما بالك بمن كانوا يعرفونهم ! - إذ رأوا هؤلاء الوجهاء يجوسون خلال الطرقات في وضح النهار، مع الغجريات، ومع السكارى من رجال الغجر، وهم يغنّون.

عندما اجتازوا أبواب المدينة، توقّفت الزحافات، وشرع كل امرئ يودِّع الكونت. واستولى حزن مفاجئ شديد على إيلين - الذي كان قد أسرف في الشراب، وقاد الزحافة بنفسه - فراح يلح على الكونت أن يبقى ليوم آخر، حتى إذا وجد أن الأمر مستحيل، اندفع فجأة إلى صديقه الجديد، فقبّله، ووعده - ودموعه تجري - بأن ينتقل إلى كتيبة الفرسان الخفيفة، التي كان الكونت فيها، بمجرد عودته إلى قيادته. وكان الكونت شديد المرح فوق عادته، فدفع الفارس المتقاعد - الذي ازدادت ألفته في الصباح - وألقى به في بركة من الجليد الذائب.. وأطلق بلوخر على قائد الشرطة، واحتوى ستيشكا بين ذراعيه، وودّ أن يحملها معه إلى موسكو. ثم قفز أخيراً إلى الزحافة، وأجلس بلوخر إلى جواره، وقفز ساشكا إلى جانب السائق، بعد أن كرّر رجاءه للفارس المتقاعد كي يستعيد معطف

الكونت ويرسله إليه.. وصاح الكونت: «انطلق!»، ثم خلع قلنسوته ولوح بها فوق رأسه، وأرسل صفيراً يستحث به الجياد، كما يفعل حوذيّ محفّات البريد، فانطلقت الزحافات.

كان السهل مغطًّى بالجليد، وليس فيه من المناظر ما يدفع الملل، وقد تعرّجت خلاله طريق قذرة يميل لون أديمها إلى الصفرة. وكانت أشعة الشمس المشرقة ـ التي راحت تنعكس على الجليد الذائب، في بريق يعابث العيون في دلال ـ ذات دفء مستعذب، يسري في وجه المرء وظهره. وأخذ البخار يتصاعد كثيفاً من الجياد التي بعث الجهد في أجسادها دفئاً.. وراحت أجراس المحفة تصلصل في مرح. وكان ثمة فلاح يقود محفة مثقلة بالأحمال، فأسرع يدفعها بعيداً عن الطريق، وهو ينثر الماء في أثناء خوضه برك الجليد الذائب بحذاءيه المصنوعين من لحاء الشجر.. وفي محفة أخرى ـ مثقلة بالأحمال أيضاً ـ جلست فلاحة بدينة، ذات وجه أحمر، وقد دست طفلاً رضيعاً في صدر معطفها المصنوع من جلد الغنم، وراحت تستحث جواداً أبيض، دقيق الذيل، مُجهداً.. وخطرت آنا فيدوروڤنا فجأة في بال الكونت، فصاح: «ارجع ثانية!». ولم يدرك الحوذي غرضه، فعاد يصيح: «عد ثانية.. إلى المدينة! أسرع!». واجتازت الزحافة أبواب المدينة من جديد، واندفعت مسرعة إلى الأبواب الخشبية لدار آنا فيدوروڤنا. وارتقى الكونت سلم الدار، واجتاز البهو، ومرق خلال حجرة الجلوس، حتى إذا وجد الأرملة لا تزال نائمة، احتواها بين ذراعيه، ورفعها عن السرير، وقبّل عينيها الناعستين، ثم هرع عائداً. ولعقت آنا فيدوروڤنا شفتيها، وهي وسنانة، وتمتمت: «ما الذي جرى؟».. وكان الكونت قد قفز إلى محفته، وصاح في الحوذي، فانطلقت به المحفة.. وغادر بلدة (ك...) إلى الأبد، وقد خلا فكره من كل شيء عن لوخنوف، والأرملة، وستيشكا، ولم يعد يشغله سوى ارتقاب ما كان ينتظره في موسكو.

9

الكونت الشاب

مضى أكثر من عشرين عاماً، تدفّقت خلالها مياه وفيرة، ومات خلالها أناس كثيرون، كما ولد خلق أكثر.. وشبَّ كثيرون، واكتهل كثيرون.. وتولّد المزيد من الآراء الجديدة، ثم ذوى ومات.. وفني الكثير من القديم الذي كان جميلاً، والكثير من القديم الذي كان رديئاً.. ونما كثير مما كان جميلاً وحديثاً، كما ظهر في دنيا الله أكثر منه ممّا كان فجّاً، وفظيعاً، وجديداً.. وكان الكونت فيدور توربين قد قُتل منذ أمد بعيد، في مبارزة مع رجل أجنبي، كان الكونت قد جلده بسوط الخيل في عرض الطريق، وأصبح ابنه ـ الذي كان يشبهه في تركيبه البدنيّ، كما تشبه قطرة الماء أختها ـ شاباً وسيماً في الثالثة والعشرين من عمره، يخدم في فرقة «الحرس الفرسان». على أن «توربين الصغير» لم يحرز أقل شبه بأبيه، في الناحية الخلقية، فلم يكن به شيء من النزوات الوقحة، المشبوبة، بل المنحطة ـ إن شئت الصراحة ـ التي امتاز بها الجيل الماضي. ولكنه ورث ـ إلى جانب الذكاء، والثقافة، والفطرة، والموهبة ـ حبّاً للثراء والرفاهية، ونظرة عملية إلى الرجال والأعمال.. وكان التعقّل والحكمة هما أكثر صفاته المميزة. وقد مضى الكونت الشاب قُدماً في السلك العسكري، فكان ملازماً أول وهو في الثالثة والعشرين، حتى إذا بدأت الحرب، هداه فكره إلى أن ترقيته تصبح أكثر احتمالاً إذا هو انتقل إلى الجيش العامل، ومن ثم فقد التحق برتبة كابتن بإحدى كتائب الفرسان الخفيفة، وسرعان ما أصبح قائد فصيلة.

في أيار/ مايو سنة ١٨٤٨، كانت كتيبة الفرسان الخفيفة «...» تتحرك خلال إقليم (ك...) في حملة، وقد صدرت الأوامر للفصيلة التي كان يقودها الكونت توربين الشاب ـ بالذات ـ بأن تقضي ليلتها في قرية موروزوفكا، التي كانت من جملة أملاك آنا فيدوروفنا.. وكانت آنا فيدوروفنا لا تزال في قيد الحياة، ولكنها كانت قد بعدت عن الشباب كثيراً، حتى إنها لم تعد ترى نفسها شابة، وهو أمر يصعب على أي امرأة أن تعترف به!.. وكانت قد أصبحت مفرطة السمنة، الأمر الذي يجعل المرأة تبدو أصغر سنّاً، ومع ذلك فقد تخلّلت سمنتها البضّة تغضُّنات عميقة، ناعمة!.. ولم تعد تذهب إلى البلدة قط، فقد أصبح الصعود إلى عربتها جهداً مضنياً لها.. بيد أنها ظلّت طيّبة القلب، حمقاء، كعهدها من قبل.. فقد بات من الممكن للمرء أن يقول الحق، بعد إذ لم يعد جمالها يستهوي المرء!

وكانت ابنتها ليزا.. التي بلغت الثالثة والعشرين من عمرها ـ تعيش معها، وهي حسناء ريفية روسية.. كما كان أخوها ـ صاحبنا الفارس المتقاعد ـ يقيم معهما بعد إذ بدَّد ثروته الصغيرة، عن طيب خاطر، فوجد في دار آنا فيدوروفنا مقاماً في كهولته. وكان شعره قد أصبح أشيب، وقد غاصت شفته العليا وتجعّدت، وإن ظل الشاربان اللذان كانا يعلوانها يلقيان عناية، ويصبغان باللون الأسود.. ولقد انحنى ظهره، ولم تقتصر التغضُّنات والتجاعيد على جبينه وخديه، وإنما شملت أنفه وعنقه كذلك.. غير أن مسلك الفرسان ظل بادياً في حركات ساقيه الضعيفتين الموجوعتين!

جلست الأسرة وأهل البيت ـ في ذلك اليوم ـ في غرفة الجلوس الصغيرة، ذات الباب المفضي إلى الشرفة، وذات النوافذ المطلّة على الحديقة العتيقة ـ المنسَّقة على شكل نجمة ـ وأشجار الموالح فيها. وكانت آنا فيدوروفنا، الشيباء، تجلس على الأريكة في سترة

بنفسجية اللون، وقد أخذت ترتّب أوراق اللعب على منضدة مستديرة من خشب الموغني.. أما أخوها المسنّ، فقد استقر - في سروال أبيض نظيف، وسترة زرقاء - إلى جوار النافذة، وقد راح يجدل حبلاً من القطن الأبيض بمساعدة شوكة خشبية.. وهي ألهوّة علمته إياها ابنة أخته، فأحبها كثيراً، لأنه لم يعد يقوى على عمل شيء آخر، كما أن عينيه كانتا قد ضعفتا فلم تعودا تمكّنانه من قراءة الصحف، وهي هوايته المفضّلة. وكانت بيموشكا - وصيفة آنا فيدوروفنا - تجلس إلى جواره تستذكر درساً، وليزا تساعدها، وتنسج - في الوقت ذاته - جوربين من صوف الماعز لخالها، بإبرتين من الخشب. وكانت أشعة الشمس، الجانحة إلى المغيب، تتسلّل - كعادتها في مثل هذه الساعة - خلال أشجار الموالح، وتلقي أضواء خفيفة على النافذة القصوى وما إلى جوارها. وكان الهدوء يسيطر على الحديقة والحجرة، حتى لقد كان بوسع المرء أن يسمع خفيف جناحي عصفور خارج النافذة، وزفرات آنا فيدوروفنا، وأنين الرجل المسنّ وهو يرفع ساقاً ليسندها إلى الساق الأخرى.

قالت آنا فيدوروفنا، وهي تستريح من ترتيب أوراق اللعب: «كيف يسير النسيج؟.. أريني يا ليزا، فإني أنسى دائماً!».. وسارت إليها ليزا - دون أن تكف عن نسج الصوف - وألقت نظرة على أوراق اللعب، وقالت: «لقد أفسدت نظامها يا أماه!». وعكفت على ترتيبها وهي تقول: «هكذا يجب أن تكون، ولن يعرقل هذا استطلاعك الحظ خلالها!». فقالت الأم: «لا بأس، لا بأس، أيتها الهرة الماكرة! ولكن، أليس هذا وقت الشاي؟». فقالت الفتاة: «لقد أمرت بإيقاد نار السماور(*)، وسأرى ماذا تم. أتريدين أن تتناولي الشاي هنا؟.. هنا يا بيموشكا، أسرعي وانتهي من درسك!». وأسرعت ليزا إلى

(*) Samovar: هو السّماور: وعاء لإعداد الشاي.

الباب، فصاح خالها، وهو ينعم النظر في شوكته الخشبية: «ليزا.. ليزي! أعتقد أنني أفلتُّ غرزة، فالتقطيها لي يا عزيزتي!».

ـ سآتي حالاً.. يجب أولاً أن أعطيهم قمعاً من السكر ليكسروه!

وصدقت في وعدها، إذ ما لبثت أن عادت مهرعة بعد ثلاث دقائق، وقرصت أذن خالها، قائلة وهي تضحك: «هذا جزاء إفلات الغرز!». فقال خالها: «حسناً، حسناً، لا بأس.. أصلحيها.. هناك عقدة صغيرة!». فتناولت ليزا الشوكة، وسحبت دبوساً من شعرها، الذي عبث به النسيم قليلاً، إذ انساب خلال النافذة، والتقطت به الغرزة، وأصلحت الخيط، ثم ردّت الشوكة إلى خالها، قائلة له، وهي تقدِّم له خدها الوردي، بينما كانت تعيد الدبوس إلى شعرها: «الآن، أعطني قبلة مقابل ما فعلت. ستظفر ببعض الروم مع الشاي اليوم، فهو يوم الجمعة كما تعلم!». وسارت إلى حجرة الشاي، ثم صاحت من هناك بصوتها الصافي: «تعال وانظر يا خالي، إنَّ الفرسان قادمون!».. فخفّت آنا فيدوروڤنا مع أخيها إلى حجرة الشاي ـ التي كانت نوافذها تطل على البلدة ـ لترى الفرسان. ولم يكن ما بدا خلال النوافذ كثيراً، بل تمثّل كله في حشد يسير وسط غلالة من الغبار. فقال الرجل المسن لأخته: «من المؤسف أن تكون حجراتنا صغيرة يا أختاه، وإن الجناح الجديد لم يكتمل بناؤه، وإلاّ لاستطعنا أن ندعو الضباط، فإن ضباط الفرسان الخفيفة من أروع الشباب وأبهجهم، وكانت رؤيتهم كفيلة بأن تشرح الصدر!». فقالت آنا فيدوروڤنا: «كم كنت أُسرّ بهذا يا شقيقي، ولكنك تعرف أننا لم نؤت غرفاً كافية. فهناك مخدعي، وحجرة ليزا، وحجرة الجلوس، وهذه الحجرة، وحجرتك.. وهذا كل ما هناك!.. فأين تُرانا كنا ننزلهم؟.. لقد نظف كوخ شيخ القرية لإيوائهم، ويقول ميخائيل ماتڤييڤ إنه أصبح نظيفاً تماماً!».

ـ كان إيواؤهم هنا كفيلاً بأن يمكِّننا من أن نختار زوجاً منهم لك يا ليزا.. فارس رائع من الكتيبة الخفيفة!

ـ لا أريد فارساً من الكتيبة الخفيفة، وأفضل عليه فارساً من «الأوغلان».. ألم تكن أنت من «الأوغلان» يا خالي؟.. لا شأن لي بفرسان الفرقة الخفيفة، إذ يقال إنهم جميعاً فاسدون!

واحمرّ وجهها قليلاً، وأطلقت ضحكة كأنغام الموسيقى. ثم أضافت: «ها هي ذي أوستيوشكا تقبل مهرعة، فلنسألها عمّا رأت». وسألتها آنا فيدوروفنا أن تدعو أوستيوشكا، فلمّا أقبلت هذه، بادرتها قائلة: «لا قِبَل لك بأن تنصرفي إلى عملك، فليس بوسعك أن تستغني عن الجري لتري الجنود.. أين نزل الضباط؟». فأجابت الخادم: «في بيت إيرومكين يا مولاتي. إنهما ضابطان.. ما أملحهما!.. يقال إن أحدهما كونت!». فسألتها آنا فيدوروفنا: «وما اسمه؟». وأجابت الفتاة: «كازاروف، أو توربينوف.. يؤسفني أن نسيت!».

ـ ما أشد غباءك!.. أليس بوسعك أن تنبئينا بشيء ذي قيمة! كان خليقاً بك أن تعرفي الاسم على الأقل!

ـ لا بأس، سأجري إلى هناك ثانية.

ـ أعرف أنك ماهرة في هذا.. لا، دعي دانيل يذهب!.. قل له يا أخي أن يسأل عمّا إذا كان الضابطان في حاجة إلى شيء، فمن الواجب إظهار بعض المجاملة لهما، على أية حال. دعه يقول إن سيدة الضيعة أوفدته للسؤال عنهما!

وجلس الشقيقان المسنّان في حجرة الشاي، بينما ذهبت ليزا إلى غرفة الخدم لتضع السكر الذي تم تكسيره في الصندوق. وكانت أوستيوشكا هناك تحدث الخدم عن الفرسان، فما إن رأتها حتى همست: «يا لهذا الكونت من رجل وسيم يا مولاتي الحبيبة!.. شاب

ذو حاجبين أسودين. ولو قُدِّر لك زوج مثله لكنتما زوجين متلائمين». وابتسمت الخادمات الأخريات محبّذات، بينما تنهدت المربية العجوز، وهي تقوم ببعض التطريز إلى جوار النافذة، وراحت تدعو الله هامسة، بينما قالت ليزا لأوستيوشكا: «إذاً، فقد أحببت الفرسان!.. ما أبرعك في رواية ما رأيت!.. اذهبي وأحضري شيئاً من عصير الآس البرّي، لنعدّ للفرسان شيئاً يشربونه!». وانصرفت حاملة صندوق السكر، وهي تضحك. ولكنّها راحت تقول لنفسها: «ليتني أرى حقّاً ذلك الضابط الفارس.. أهو أسمر أو أشقر؟ وما أحسبه إلا كان يُسر بالتعرّف إلينا.. ولو أنه رحل، فلن يقدّر له أبداً أن يعرف أنني كنت هنا، وأنني فكرت فيه. وكم من أمثاله مرّوا على مقربة مني؟.. مَن ذا الذي يراني هنا سوى خالي؟.. ما من أحد يغتبط إذا ما رأى الطريقة التي أعقص بها شعري، أو الثياب التي أرتديها!». وتنهّدت وهي تتأمل ذراعها البضّة الممتلئة، ثم عادت تفكِّر: «أحسبه طويلاً، واسع العينين، ذا شاربين صغيرين!.. وها أنذي هنا، قد جاوزت الثانية والعشرين، دون أن يقع أحد في حبي، اللهم إلاّ إيفان إيباتيش الذي شوّه الجدري وجهه.. بل إنني كنت منذ أربع سنوات أجمل ممّا أنا عليه اليوم.. وهكذا تمر أيام شبابي دون أن أشرح صدر أحد. أواه، يا لي من فتاة ريفية مسكينة.. مسكينة!».

وأيقظ الريفية المسكينة من أحلامها صوت أمها يناديها لتصب الشاي في الأقداح، فرفعت رأسها مجفلة، وأسرعت إلى حجرة الشاي.. وكثيراً ما تأتي خير النتائج عفواً، بينما تأتي أسوأ النتائج كلّما ازداد المرء جدّاً. وفي الريف قلّ أن يُعنى الناس بتعليم أولادهم، ومن ثم فهم يتيحون لهم ـ دون أن يفطنوا ـ تعليماً رائعاً. وقد كانت هذه حال ليزا. إذ إن آنا فيدوروڤنا ـ بذكائها المحدود، وإهمالها الفطري ـ لم تتح لها تعليماً.. أي أنها لم تعلِّمها الموسيقى، ولا اللغة

الفرنسية العظيمة النفع للفتاة.. ولكنها وقد أنجبتها عفواً ـ من زوجها الراحل ـ طفلة موفورة الصحة والجمال، فقد هيأت لها مرضعة ومربية، وألبستها خير الثياب القطنية الموشّاة بالزخارف، ونعالاً من جلد الماعز، واعتادت أن ترسلها لتتنزّه في الخلاء وتجمع النباتات الفطرية والتوت البرّي.. واستأجرت لها تلميذة من مدرسة الدير لتعلّمها القراءة والكتابة والحساب.. حتى إذا انقضى ستة عشر عاماً، وجدت في ليزا صديقة، وأنيسة رحيمة القلب دائمة الانشراح، وربّة بيت نشيطة. ولمّا كانت آنا فيدوروفنا كريمة النفس، فإنها دائماً ما كانت تؤوي في البيت بعض الأطفال لتربيتهم.. سواء أكانوا من أبناء العبيد أم من اللقطاء. ولمّا بلغت ليزا العاشرة، بدأت تعنى بهم، فتعلّمهم، وتلبسهم ثيابهم، وتصحبهم إلى الكنيسة، وتكبحهم إذا أسرفوا في اللعب المرهق. وعندما كبرت، ظهر على مسرح حياتها الخال الرقيق القلب، الموجوع الساقين، الذي كان بحاجة إلى من يعامله كطفل.. ثم أصبح الخدم والفلاحون يأتون إلى السيدة الصغيرة بمطالبهم العديدة، وبأوجاعهم التي كانت الفتاة تعالجها بحب البيلسان والنعناع والكافور.. وكانت هناك شؤون التدبير المنزلي التي أُلقيت على عاتقها من تلقاء ذاتها.

وما لبثت أن استيقظ في أعماقها حنين لم يلق رضاء.. حنين إلى الحب، لم يجد متنفَّساً له إلاّ في الطبيعة والدين. فأصبحت ليزا فتاة نشيطة، طيّبة، بشوشة، معتمدة على نفسها، طاهرة، عميقة التديُّن.. ومن الصحيح أنها كانت تتألّم ـ بعض الشيء ـ من جراء غرور أنوثتها، إذا ما رأت جاراتها يقفن بجوارها في الكنيسة، مرتديات أحدث أنواع القبعات المجتلبة من بلدة (ك...). وكانت تستاء أحياناً من نزوات أمها العجوز وزمجرتها، إلى درجة البكاء.. وكانت تراودها ـ كذلك ـ أحلام الحب، في أكثر صوره سذاجة وإضحاكاً. ولكن هذه

الأحلام كانت تتبدَّد في نشاطها النافع الذي تحوَّل إلى ضرورة. فلمّا بلغت الثانية والعشرين، من عمرها، لم يكن قد تبقى في نفسها الصافية المطمئنة ـ نفس العذراء التي نمت بدنيّاً ونفسيّاً على أجمل صورة ـ أي أثر للندم أو الحسرة.

وكانت ليزا متوسّطة الطول، أقرب إلى السمنة منها إلى النحول، ذات عينين في لون ثمار البندق، ليستا بالواسعتين، وقد خلق جفناهما السفليان مكحولين قليلاً. كما كان لها شعر طويل الغدائر، ذو لون بني فاتح. وكانت تسير في خطوات واسعة، وهي تتمايل قليلاً كالبطة.. كما يقولون! أمّا وجهها فكان يبدو ـ عندما تكون مشغولة، وغير منفعلة ـ وكأنه يقول لكل من ينظر إليه: «من المبهج أن يعيش المرء في الدنيا، عندما يكون له من يوليه الحب، وعندما يكون له ضمير صاف!».. حتى في لحظات الاستياء، أو الحيرة، أو الجزع، أو الحزن، كانت تتجلى في عينيها ـ بالرغم منها، وبالرغم من الدموع التي تملأ عينيها وحاجبها الأيسر العابس وشفتيها المزمومتين ـ نفس صريحة، لم يفسدها عقل معوج.. كانت روحها الصافية تشع من غمازتي خدَّيها، ومن ركني فمها، ومن العينين المضيئتين اللتين اعتادتا الابتسام والرضى بالحياة!

10

في بيت سيدة الضيعة

عندما دخلت الفصيلة قرية موروزوڤكا، كان الجو لا يزال حارّاً، رغم أن الشمس كانت قد جنحت إلى المغيب.. وعبرت أمام الفرسان ـ في طريق القرية المتربة ـ بقرة جموح شردت عن قطيعها، فراحت تقف وتتلفت من آن إلى آخر، وهي ترسل خواراً، دون أن يخطر لها ببال، إطلاقاً، أن خير ما تفعله هو أن تتنحّى عن الطريق.. واحتشد الفلاحون ـ شيوخاً ونساء وأطفالاً، وخدماً، من دار سيدة الضيعة ـ على جانبي الطريق، وراحوا يتأملون الفرسان في فضول، بينما كان هؤلاء يمسكون بأعنة جيادهم ـ التي كانت تدق الأرض، وتصهل أحياناً ـ وسط عاصفة كثيفة من الغبار. وإلى يمين الفصيلة، كان ثمة ضابطان استويا ـ في غير مبالاة ـ على صهوتي جوادين أسودين بديعين. وكان أحدهما هو الكونت توربين، القائد، أما الآخر، فكان شابّاً في ريعان الصبا، رُقّي حديثاً من مرتبة الطلبة إلى مرتبة الضباط، ويُدعى بولوزوف.

ومن أفضل كوخ في الضيعة، خرج فارس في سترة بيضاء من التيل، فرفع قلنسوته، وسار نحو الضابط. فسأله الكونت: «أين المقر الذي خُصِّص لنا؟». فقال جاويش التعيينات المشرف على مقام الفصيلة، وقد شدَّ جسمه كله: «لقد نُظِّف كوخ شيخ القرية لسعادتكما. وقد أردت أن أنزلكما في دار سيدة الضيعة، ولكنهم يقولون أن ليست هناك حجرات. إن صاحبة الأمر لئيمة!». فقال الكونت وهو يترجَّل أمام كوخ شيخ القرية، ويشدّ ساقيه: «لا

بأس!.. وهل وصلت مركبتي الخفيفة؟». فأجاب جاويش التعيينات، مشيراً بقلنسوته إلى الهيكل الجلدي لعربة ظهرت لدى المدخل الخارجي للكوخ، واندفعت إلى بابه الداخلي الذي اصطف عنده أعضاء أسرة شيخ القرية ليتأملوا الضابط: «ها هي ذي قد وصلت لتوها يا صاحب السعادة». ودفع عجوزاً من الواقفات، وهو يفتح بنشاط باب الكوخ الذي نُظِّف حديثاً، ويخطو جانباً ليفسح في المدخل للكونت.

كان الكوخ كبيراً، واسعاً، ولكنه لم يكن نظيفاً جدّاً. وكان الوصيف الألماني ـ الذي كان يبدو في لباس السيد الراقي ـ يقف في الداخل، يرتّب الثياب في حقيبة كبيرة، بعد أن أقام سريراً حديديّاً، وهيأ الفراش. وهتف الكونت في استياء: «أف!.. يا له من مسكن قذر! أليس بوسعكم أن تعثروا على مسكن أفضل، في منزل أحد السادة، يا ديادينكو؟». فأجاب جاويش التعيينات: «إذا رغبت، يا صاحب السعادة، فسأحاول مرة أخرى في بيت سيدة الضيعة. ولكنه لا يبدو أفضل من الكوخ كثيراً». فقال الكونت: «لا بأس.. انصرف!» واستلقى على الفراش، وقد عقد ذراعيه تحت رأسه. وما لبث أن صاح بوصيفه: «جوهان!.. لقد تركت جزءاً عالياً في الفراش.. كيف لا تتقن إعداد الفراش كما ينبغي؟».فأسرع جوهان كي يسويه، ولكن الكونت قال: «لا، دعه الآن». وأردف في لهجة تنم عن عدم الرضى: «ولكن، أين ثوب الغرفة؟». فناوله الوصيف الثوب، فتأمله الكونت ـ قبل أن يرتديه ـ وقال: «لقد توقّعت هذا. إنَّ البقعة لم تنظف بعد. أفهناك خادم أسوأ منك؟». وجذب الثوب من يد الخادم، وارتداه قائلاً: «قل لي: أتتعمد هذا الإهمال؟.. هل الشاي معدّ؟». فقال جوهان: «لم يكن لديّ وقت لإعداده». فهتف الكونت: «يا لك من بليد!».

وتناول الكونت بعد ذلك رواية فرنسية وضعت خصّيصاً إلى جوار فراشه، فراح يطالع فيها بعض الوقت، في صمت، بينما خرج جوهان إلى الردهة ليعد السماور. ولاح جلياً أن الكونت كان سيئ المزاج، ولعل ذلك كان راجعاً إلى التعب، والغبار الذي حطّ على وجهه، والثياب المشدودة حول جسمه، والمعدة الخاوية. فما لبث أن صاح ثانية: «جوهان! أحضر لي حساباً عن الروبلات العشرة. ما الذي اشتريته من البلدة؟». وتأمل الحساب الذي قُدِّم إليه، وأدلى ببعض ملاحظات نمّت عن عدم اقتناع بالأثمان الباهظة، ثم قال: «قدّم بعض الروم مع الشاي». فقال جوهان: «إنني لم أشتر الروم!». فصاح الكونت: «هذا بديع!.. كم من مرة نبهتك إلى وجوب وجود الروم؟».

ـ لم يكن معي من النقود ما يكفي.

ـ إذاً، فلماذا لم يشتر بولوزوف قدراً منه؟.. كان يجب أن تحصل من خادمه على بعض النقود لشراء الروم!

ـ لست أدري.. لقد ابتاع الشاي والسكر.

ـ يا أحمق!.. اخرج!.. إنك الإنسان الوحيد الذي يعرف كيف يجعلني أفقد صبري.. إنك تعرف أنني أتناول دائماً الروم مع الشاي في الرحلات!

وكان حامل العلم بولوزوف قد أشرف على استقرار الفصيلة، فأقبل بوجه مرح، وقال: «كيف الحال يا توربين؟.. يبدو أن المكان هنا لطيف. ولكني أصارحك بأنني جد متعب، فقد كان الجو حارّاً». فصاح الكونت: «لطيف؟!.. كوخ رطب قذر.. ولا روم بفضل سيادتك، فإن خادمك الغبي لم يشتر شيئاً منه، وكذلك هذا الغبي!.. كان جدير بك أن تتذكّر، على الأقل!».. وخرج حامل العلم إلى الردهة، حيث راح يهمس لتابعه: «ولكن، لماذا نشتري نحن كل

شيء؟.. كأنما أنا المسؤول عن دفع ثمن كل شيء، في حين أن وصيفه الألماني لا يفعل شيئاً سوى أن يدخن غليونه!».. وكان الكونت قد تسلّم - في تلك الأثناء - خطابين من وصيفه، قرأ الأول ثم كوّره وألقى به على الأرض.. وبدا أن الخطاب الآخر لم يخل من شيء لذَّ له، إذ ابتسم وهو يقرأه، فسأله بولوزوف، وقد عاد إلى الحجرة وشرع يعد لنفسه مرقداً على بضعة ألواح خشبية: «ممَّن هذا الخطاب؟». فأجاب الكونت مبتهجاً، وهو يسلّمه الخطاب: «من مينا.. أتريد أن تراه؟.. يا لها من امرأة لطيفة!.. الحق أنها أفضل بكثير من شابات طبقتنا الراقية.. انظر مدى ما في هذا الخطاب من مشاعر وذكاء!.. ليس به من عيب سوى أنها تطلب نقوداً!». فقال الضابط: «أجل، هذا عيب!».

ـ صحيح أنني وعدتها ببعض المال، ولكن هذه الحملة فاجأتنا، كما أن.. ومع ذلك، فسأرسل لها مبلغاً، إذا بقيت في قيادة هذه الفصيلة ثلاثة أشهر أخرى. إنها تستحقه، فهي فاتنة!

كان يراقب وجه بولوزوف وهو يقرأ الخطاب، فما لبث هذا أن قال: «إنه فظيع من الناحية النحوية، ولكنه لطيف جدّاً، ويلوح أنها تحبك حقّاً». فقال الكونت: «إم م م!.. أظنها كذلك! لا يخلص في الحب سوى هذا الصنف من النساء، إذا ما أحبت الواحدة منهن حقّاً!». فسأله الضابط الشاب: «وممَّن كان الخطاب الآخر؟». وأجاب الكونت وقد بدا مستاء: «آه، ذاك.. هناك رجل، وغد، تافه، كسب مني في المقامرة، فهو يذكرني بالدين للمرة الثالثة.. ولست أملك أن أدفعه في الوقت الحاضر!».

وساد الصمت برهة، كان حامل العلم - الذي بدا خاضعاً لتأثير الكونت وسلطانه - يلقي نظرات على أسارير توربين الوسيمة، المكفهرّة.. وما لبث هذا الأخير أن قال، وهو يحتسي الشاي:

«ولكن، أتعرف أن الأمر قد يتحسَّن تحسُّناً جوهريّاً.. فلو أننا حصلنا على ترقية ـ بحكم الأقدمية ـ هذه السنة، واشتركنا ـ إلى جانب ذلك ـ في بعض العمليات، فإنني قد أسبق في الترقية من يتقدّمونني في الحرس». وكان الحديث لا يزال يدور حول هذا الموضوع، عندما أقبل الشيخ دانيل، وأبلغهما رسالة آنا فيدوروڤنا، ثم أردف من تلقاء نفسه: «وقد كُلّفت كذلك بأن أسأل عما إذا كنت ابن الكونت فيدور إيڤانيتش توربين؟».. وكان يعرف اسم الكونت، ويذكر زيارته لبلدة (ك...). وعقب قائلاً: «لقد كانت مولاتنا آنا فيدوروڤنا على معرفة وثيقة به!». فأجاب الكونت: «لقد كان أبي.. وقل لمولاتك إنني جدّ ممتنّ لها، ولسنا نريد شيئاً، ولكن.. قل إننا كلّفناك بأن تسأل عمّا إذا كان من الممكن أن نظفر بغرفة أنظف من هذه، في أي مكان.. في منزل الضيعة، أو أي مكان!».

وقال له بولوزوڤ، بعد انصراف دانيل: «لماذا فعلت ذلك؟ ماذا ينفعنا؟ إننا لن نمكث سوى ليلة واحدة.. وقد يضايقون أنفسهم من أجلنا». فصاح الكونت: «يا لتفكيرك! أعتقد أننا أخذنا حظنا من الإقامة في الأكواخ القذرة!.. من السهل أن يرى المرء أنك لست عمليّاً. لماذا لا نغتنم الفرصة عندما يكون ذلك في وسعنا، فنعيش كالآدميين، ولو لليلة واحدة؟.. إنهم ـ على العكس ـ سيسرّون جدّاً بأن يستضيفونا.. وأسوأ ما في الأمر أن تكون هذه السيدة قد عرفت أبي حقّاً!». وابتسم كاشفاً عن أسنانه اللامعة، وهو يقول: «إنني أشعر دائماً بالخجل من فضائح المرحوم أبي، ففي كل مكان قصة فاضحة، أو دين لم يسدّد. ولهذا أكره أن ألتقي بمعارفه. على أنَّ هذا كان سائداً في أيامه». فقال بولوزوڤ: «هل أخبرتك يوماً بقصة قائد لواء «أوغلاني» يدعى إيلين، التقيت به مرة؟.. لقد كان تواقاً إلى أن يراك، فهو يحب أباك كل الحب!».

ـ أعتقد أنه إمّعة!.. ولكن أسوأ ما في الأمر هم هؤلاء الأكابر الذين يؤكدون لي أنهم كانوا يعرفون أبي، ثم يروون عنه ـ وهم يتظاهرون بالتفكّه ـ قصصاً تجعلني أخجل!.. من الحقيقي أنه كان ذا طبيعة جامحة، وكان يأتي ـ أحياناً ـ أعمالاً غير لطيفة. ولكن هذا كان مسلكاً شائعاً في أيامه. ولو كان في أيامنا، لكان من المحتمل أن يصبح رجلاً ناجحاً كل النجاح، فمن الإنصاف أن نعترف بأنه كان ذا مواهب خارقة!

وإن هو إلا ربع ساعة، حتى عاد الخادم برجاء من مالكة الضيعة أن يتكرم الضابطان فيقضيا الليلة في منزلها.

11

الفارس الكهل

ما إن سمعت آنا فيدوروڤنا أن ضابط فصيلة الفرسان الخفيفة كان ابن الكونت فيدور توربين، حتى استخفّها الطرب، وراحت تقول: «واعجباً!.. يا للفتى الحبيب!.. أسرع يا دانيل، فقل إن مولاتك تدعوهما إلى دارها!». وقفزت مسرعة إلى غرفة الخدم، وهي تصيح: «ليزا!.. أوستيوشكا! يجب إعداد حجرتك يا ليزا، وبوسعك أن تنتقلي إلى غرفة خالك. ولا أرى لديك مانعاً يا أخي من أن تنام الليلة في حجرة الجلوس.. لليلة واحدة!».

ـ لست أحفل يا أختاه، فبوسعي أن أنام على الأرض!

وقالت آنا فيدوروڤنا، وهي تروح وتغدو: «لا بد من أن يكون وسيماً، إذا صح أنه يشبه أباه. لكم أتمنى أن أراه، هذا العزيز!.. يجب أن تتأمليه جيّداً يا ليزا، فلقد كان أبوه وسيماً.. إلى أين تأخذين هذه المنضدة؟.. دعيها هنا. وأحضري سريرين.. خذي واحداً من حجرة رئيس الخدم.. وأحضري الشمعدان البلّوري.. وضعي شمعاً من النوع الجيّد!».. وأخيراً، تم إعداد كل شيء، ونسّقت ليزا الحجرة للضابطين وفق هواها، رغم تدخّل أمها. فنشرت على الفراشين أغطية نظيفة معطّرة، ووضعت شموعاً وقنينة ماء على منضدة قريبة منهما، ونقلت سريرها إلى حجرة خالها. وهدأت آنا فيدوروڤنا بعض الشيء، فجلست في مقعدها، وعادت إلى أوراق اللعب، ولكنها بدلاً من أن تستقرئها الحظ، أسلمت رأسها إلى راحتيها، وقد أسندت مرفقها إلى المنضدة، واستسلمت للتفكير،

وهي تهمس لنفسها: «آه، يا للزمن!.. ما أسرع ما يطير! ألم يكن ذلك منذ أمد بعيد؟ ومع ذلك فإني أكاد أتمثّله الآن!.. كان أرعن!». وتبادرت الدموع إلى عينيها، واستطردت تحدّث نفسها: «وها هي ذي ليزا الآن.. ولكنها ليست كما كنت في سنّها.. إنها فتاة بديعة، ولكنها ليست كما كنت..».

ثم رفعت صوتها قائلة: «ليزا.. يجب أن ترتدي ثوبك «الموسلين» الليلة!». فقالت الفتاة، وهي لا تتمالك نفسها، لمجرد التفكير في أنها ستلتقي بالضابطين: «لماذا يا أماه؟ لا أراك ستدعينهما للجلوس معنا؟.. يحسن أن لا تفعلي يا ماما!».. والحق أن رغبتها في رؤيتهما كانت أقل من توجُّسها من الانفعال الطروب الذي تصوّرت أنه يرتقبها. ولكن آنا فيدوروفنا قالت وهي تربت رأسها: «ربما رغبا هما في أن يتعرفا إلينا يا ليزا!». وقالت لنفسها: «لا، إن شعرها ليس كشعري حين كنت في سنها.. أواه يا ليزا، لكم أتمنى لو أنك..». وكانت تتمنى مخلصة شيئاً ما لابنتها. ولكنها لم تملك أن تتصوَّر أن يكون هذا الشيء زواجاً من كونت، ولم تكن ترغب لابنتها علاقات كتلك التي كانت بينها هي وبين الأب.. ومع ذلك فقد ظلت تتمنى في لهفة شيئاً ما!.. ولعلها كانت تتوق إلى أن تبعث في نفس ابنتها ما خبرته هي مع الأب الذي مات!

وكان الفارس المتقاعد الكهل منفعلاً هو الآخر، لمقدم الكونت، فحبس نفسه في غرفته، ثم خرج بعد ربع ساعة في سترة هنغارية، وسروال أزرق فاتح، ودخل الحجرة التي أعدَّت للزائرين، وقد غشيه سرور على حياء كذلك الذي يغشى الفتاة حين ترتدي ثوب سهرة للمرة الأولى في حياتها. ثم قال: «سأنظر كيف هم فرسان الفرقة الخفيفة اليوم يا أختاه!.. لقد كان الكونت المرحوم فارساً حقّاً، ومثلاً أعلى للفرقة! سنرى!».

*

دخل الضابطان إلى الحجرة التي أُفردت لهما، من طريق المدخل الخلفي، فهتف الكونت وهو يستلقي - بثيابه وحذاءيه - على السرير الذي أُعدَّ له: «هاك! أرأيت؟.. أليس هذا أفضل من الكوخ بصراصيره؟». فأجاب بولوزوف: «هذا أفضل بالطبع، ومع ذلك.. أن نصبح مدينين لصاحبة الزمام..». فقاطعه الكونت صائحاً: «هراء!.. يجب أن يكون المرء عمليّاً في جميع الأمور. إنهم جدُّ مسرورين، وأؤكد لك.. آه، اسمع يا.. اطلب شيئاً نسدله على النافذة، وإلاّ تعرّضنا لتيار هوائي في الليل!».

وفي تلك اللحظة، أقبل الفارس المتقاعد الكهل ليتعرَّف إلى الضابطين. ولم يغفل بالطبع أن يقول إنه كان والكونت المرحوم زميلين - وإن قالها وقد تضرَّج وجهه قليلاً - وإنه نعم بالحظوة لدى الكونت.. بل وأضاف أنه كان أسير فضله مرة أو اثنتين. ولكنه أغفل أن يذكر أي فضل ذلك.. أهو إغفال الكونت أن يرد له المائة روبل التي اقترضها منه، أو هو تعمّده أن يلقي به على الجليد الذائب، أو هو سبابه إياه أمام جمع من الناس في الحفل الراقص!.. وأبدى الكونت الشاب أدباً جمّاً للفارس الكهل، وشكر له المأوى الذي أُتيح له ولزميله. فقال الفارس الكهل: «يجب أن تلتمس لنا العذر، أيها الكونت، إذا لم يكن مأوى فخماً!».. وكاد يلقّبه بصاحب السعادة، وقد نسي عهده بمحادثة ذوي المكانة.. واستطرد قائلاً: «إنَّ بيت أختي صغير، ولكنّا سنسدل على النافذة ستاراً في الحال، وسيصبح كل شيء كما تبتغي». وانحنى مغادراً الحجرة مسرعاً، لا ليأمر بإحضار الستار، وإنما ليدلي بتقرير عن الضابطين.

وأقبلت أوستيوشكا الحسناء بشال سيدتها، فسدت به النافذة، وقالت إنَّ السيدة أمرتها بأن تسأل السيدين عما إذا كانا يرغبان في تناول بعض الشاي.. وبدا أن الوسط المريح قد أثرّ في مزاج

الكونت، فابتسم في طرب، ومازح أوستيوشكا حتى أوشكت أن تقول إنه سافل، وسألها عمّا إذا كانت سيدتها الصغيرة جميلة، وقال ـ ردّاً عن سؤالها إن كانا يريدان شاياً ـ إنَّ لها أن تحضر الشاي، ولكن المهم هو أن تُحضر شيئاً من الڤودكا، وشيئاً يؤكل، إذا لم يكن عشاؤهما معدّاً.

كان الخال الكهل متحمّساً للكونت الشاب، فراح يطنب في امتداح أدبه، وفي إطراء الجيل الجديد من الضباط، قائلاً إنه أرفع من الجيل الماضي بدرجة لا تدع سبيلاً إلى المقارنة. ولم توافقه آنا فيدوروڤنا، فما من رجل يستطيع أن يسمو على الكونت فيدور إيڤانيتش توربين.. وأخيراً، اتخذ غضبها مظهراً جديّاً، وقالت في جفاء: «إنَّ من يغلبك أخيراً، هو المفضَّل عندك يا أخي.. إنَّ الناس أكثر مهارة اليوم بالطبع، ولكن الكونت فيدور إيڤانيتش رقص بإبداع، وكان لطيفاً إلى درجة أنَّ كل امرئ كان متهوِّساً من أجله، مع أنه لم يبد اهتماماً بأحد سواي!.. ومن ثم ترى أنه كان هناك أناس لهم مكانتهم، في الأيام السالفة كذلك!». وهنا بلغها طلب الڤودكا، والمنعشات الخفيفة، فقالت: «أرأيت يا أخي أنك لا تتصرَّف قط التصرُّف الصحيح؟.. كان من الواجب أن تأمر بالعشاء!.. مري بإعداده يا ليزا!».

وأسرعت ليزا إلى المخزن لتحضر بعض الفطريات المخلّلة، والزبد الطازج، وأمرت الطاهية بإعداد بعض الفطائر المحشوَّة. وقالت آنا فيدوروڤنا: «هل لديك شيء من شراب «الشيري» يا أخي؟». فقال: «لا يا أختاه، لم يكن لديّ شيء منه إطلاقاً!.. إنّما الذي لديّ روم يا آنا فيدوروڤنا!». فهتفت: «أوليس الاثنان سواء؟.. أعطهما بعضه.. ولكن، ألا يكون من الأفضل أن ندعوهما إلى هنا يا أخي؟.. إنك تعرف كيف تدعوهما، ولا أظنهما يستاءان!». فقال

الفارس الكهل إنه يشهد بأن الكونت الشاب ألطف من أن يرفض، وأسرع ليدعوهما. فذهبت آنا فيدوروفْنا إلى حجرتها وارتدت ثوباً حريرياً، وقلنسوة جديدة. ولكن ليزا كانت في شغل عن الثياب، فلم تجد وقتاً لتستبدل ثوبها القطني الوردي، ذا الكمين الفضفاضين. فضلاً عن أنها كانت في أقصى درجات التوتّر، وقد تولاّها شعور بأن شيئاً بديعاً في انتظارها، وكأن ثمة غمامة داكنة تخيّم على روحها!.. لاح لها أن الكونت، الفارس الوسيم، لا بد أن يكون مخلوقاً جديداً. ولا ندرك كنهه، ولكنه.. وسيم! لا بد أن تكون أخلاقه، وطباعه، وحديثه، من طراز غير عادي، يختلف عن كل ما صادفت من قبل!.. كل ما يخطر بباله أو على لسانه لا بد أن يكون حكيماً، صواباً.. وكل ما يفعل لا بد أن يكون مشرِّفاً.. وكل مظهره لا بد أن يكون جميلاً!.. أبداً لم يداخلها شك في ذلك. ولو أنه طلب حماماً من البراندي والعطور ـ لا مجرد بعض المنعشات ـ لما دُهشت، ولما لامته، بل لاقتنعت اقتناعاً راسخاً بأن هذا هو الصواب، وأنه ضروري!

وافق الكونت الشاب لفوره عندما أنهى إليه الفارس الكهل رغبة أخته. فسرح شعره بالفرشاة، وارتدى زيّه الرسمي، وأخذ علبة السيجار الذهبية. وقال لبولوزوف: «هيا!». فقال هذا: «من الخير أن لا نذهب في الواقع!». ثم أردف بالفرنسية: «لسوف نكبّدهم الكثير، ليكرمونا». ولكن الكونت أهاب به، قائلاً: «هراء!.. لن يكونوا إلاّ سعداء بنا». ثم عقّب بالفرنسية: «ولقد قمت ببعض تحريات، فعلمت أن هنا ابنة جميلة.. فهيّا بنا!». وهنا قال الفارس الكهل بالفرنسية، لمجرد إشعارهما بأنه هو الآخر كان ملمّاً باللغة الفرنسية، وقد فهم ما قالاه: «معذرة، أيها السيدان!».

12

العذراء والضابطان

تضرّج وجه ليزا وغضّت بصرها ـ وقد خشيت أن تنظر إلى الضابطين ـ وتشاغلت بملء إبريق الشاي، عندما دخل الضيفان الحجرة. أمّا آنا فيدوروڤنا، فكانت على العكس، إذ قفزت وبادرت إلى الانحناء، وشرعت تتحدث إلى الكونت الشاب، دون أن تحوّل بصرها عنه.. فقالت إنه كان ذا شبه فريد بأبيه، وقدّمت إليه ابنتها، ثم راحت تقدّم إليه الشاي، والمربّى، والحلوى المصنوعة في البيت. ولم يبد أحد أي اهتمام بحامل العلم، لتواضع مظهره وحيائه، فسرَّ لذلك كل السرور، إذ كان ـ لوجه الحقيقة ـ يحملق في ليزا، ويتمعّن جمالها الذي أدهشه، كما بدا واضحاً. وكان الخال ينصت إلى حديث أخته مع الكونت، والكلمات تتزاحم على شفتيه، متربّصاً فرصة يروي فيها ذكرياته في الفروسية. وفي أثناء تناول الشاي، أشعل الكونت سيجاراً، فلم تقو ليزا على أن تمنع نفسها من السعال. وكان كثير الكلام، لطيفاً، راح ـ في البداية ـ يروي أقاصيصه في الفترات التي كانت تتخلّل حديث آنا فيدوروڤنا المتدفّق، ولكنه ما لبث ـ في النهاية ـ أن انفرد وحده بالحديث.. شيء واحد أذهل مستمعيه، ذلك أنه كان يستخدم في قصصه كلمات لم تكن تعتبر نابية في الوسط الذي كان ينتمي إليه، ولكنها كانت تبدو ـ في الوسط الذي جلس فيه ـ جريئة أكثر ممّا ينبغي، حتى لقد انزعجت لها آنا فيدوروڤنا، واشتد تضرّج وجه ليزا.. ولكن الكونت لم يلاحظ ذلك، وظل مطمئناً، منطلقاً، متظرّفاً!

وملأت ليزا الأقداح في صمت، ولم تسلّمها إلى يدي الزائرين، وإنما وضعتها على مائدة بالقرب منهما، وهي بعد لم تتغلّب على انفعالها، وقد راحت تصغي إلى ما كان يبدر من الكونت. وما لبث حديثه ـ الذي لم يكن جد عميق بالنسبة إليها ـ وتردّده في الكلام، أن طمأن انفعالها رويداً رويداً. فهي لم تسمع منه الأشياء اللبقة البارعة التي توقعتها في خيالها. وعندما ملأت قدحه بالشاي للمرة الثالثة، التقت عيناها المستحييتان بعينيه، فلم يغض بصره، وإنما ظل ينظر إليها في هدوء، وبابتسامة خفيفة.. فشعرت بشيء من المسلك العدائي نحوه، وسرعان ما تبيّنت أنه لم يكن يختلف في شيء عن الناس الذين اعتادت أن تلقاهم، بل ولم يكن ثمة ما يدعو إلى أن تخشاه!.. ومع أن أظفاره كانت طويلة ونظيفة، إلاّ أنه لم يؤت شيئاً فذّاً من آيات الجمال. وطوت ليزا حلمها فجأة ـ وإن لم تسلم من ألم داخلي ـ وازدادت هدوءاً، ولم يعد يمضُّها سوى النظرات الصامتة، التي شعرت أن حامل العلم كان يوجّهها إليها.. وقالت لنفسها: «لعل فتاي ليس ذاك الضابط، وإنما هذا!».

13

لعبة الترجيح

بعد تناول الشاي دعت السيدة العجوز ضيفيها إلى حجرة الجلوس. واستوت ثانية في مقعدها المألوف، وهي تسأل: «لا أظنك تريد أن ترتاح يا كونت؟». فلمّا تلقت جوابه بالنفي، قالت: «تُرى، ما الذي أستطيع أن أفعله لتسلية ضيفينا العزيزين؟.. أتلعب الورق يا كونت؟.. إذاً، فعليك يا شقيقي أن تهيئ لنا لعبة». فقال الفارس الكهل: «إنك تجيدين لعبة «الترجيح»(*)، فلماذا لا نلعبها جميعاً؟.. أتلعب يا كونت؟.. وأنت الآخر؟».. فأعرب الضابطان عن استعدادهما لأن يفعلا كل ما يروق لمضيفيهم الكرماء!

أحضرت ليزا مجموعة أوراق اللعب القديمة، التي كانت تستخدمها لاستطلاع المستقبل ومعرفة متى يزول تورم وجه أمها، أو متى يعود خالها ـ إذا ما ذهب إلى البلدة ـ أو هل يزورهم أحد من الجيران، أو ما إلى ذلك. وكانت هذه المجموعة أنظف من المجموعة التي كانت أمها تستخدمها لاستقراء الحظ. وتساءل خالها: «ولكن، لعلكما لا تلعبان لقاء مراهنات صغيرة.. إنني ألعب مع آنا فيدوروفنا على أنصاف كوبكات.. ومع ذلك فهي تكسب كل

(*) يتبارى اللاعبون في هذه اللعبة في إعلان الحيل التي تمكّنهم أوراقهم من إتيانها. والذي يذكر أعلى رقم يختار مجموعة الورق التي يستخدمها، ويؤدي الحيل التي أعلنها، وإلاّ دفع الغرامة. واللاعب الذي يعلن أنه «بائس»، يعني أن لا حيل لديه، فإذا قام بحيلة ما دفع الغرامة. واصطلاح «آس وڤاليه على بياض» ـ كما يجيء لاحقاً ـ معناه أن اللاعب يحمل أعلى ورقتين.

أموالي!». فقال الكونت: «أية مراهنات تروق لكم، تسرني!». فقالت آنا فيدوروفنا: «حسناً، إذاً.. فليكن الرهان كوبك ورقياً واحداً، لمرة واحدة، إكراماً لضيفينا!.. فلينازلاني أنا العجوز المسكينة!». وقالت في سريرتها، إذ استولى عليها في شيخوختها شغف بسيط بالمقامرة: «لعلي أكسب منهما روبلاً، أو حوالى الروبل!».

قال الكونت: «إذا شئتم علّمتكم كيف تلعبون «البائس»، فهي طريقة بديعة!». ورغب كل امرئ في أن يتعلَّم الطريقة الجديدة التي شاعت في بطرسبرج. وزعم الخال أنه كان يعرفها، ولكنّه نسيها قليلاً. بيد أنَّ آنا فيدوروفنا لم تستطع أن تفهمها البتة، رغم طول التكرار، حتى اضطرت في النهاية إلى أن تبتسم وتهزّ رأسها وتقول إن كل شيء أصبح واضحاً لها.. ولم يضحك أحد عندما أعلنت ـ في أثناء اللعب ـ أنها «بائس»، مع أنها كانت تمسك في يديها «آس وفاليه على بياض»، وضاعت عليها ست حيل!.. وما لبثت أن ارتبكت، وتبدّت عليها الحيرة والتردّد، ثم قالت إنها لم تألف الطريقة الجديدة. ومع ذلك فقد ظل الكونت مصرّاً على الكسب منها، رغم الغمزات التي راح زميله يزجيها إليه بقدمه، تحت المائدة!

وأحضرت ليزا مزيداً من الحلوى، وثلاثة أنواع من المربّى، ونوعاً خاصّاً من التفاح حفظته منذ الموسم الماضي. ووقفت خلف أمها تراقب اللعب، وتنظر إلى الضابطين ـ من آن إلى آخر ـ مختلسة النظر، بوجه خاص، إلى يدي الكونت البيضاوين ـ بأظفارهما الوردية المعنيّ بها ـ وقد راحتا تتداولان الأوراق برشاقة ومران وثقة!.. ومرة أخرى، خسرت آنا فيدوروفنا، فاشتد استياؤها. وقالت ليزا تسرّي عنها، وتحاول أن تعينها على الموقف السخيف:

«لا تبالي يا أماه، فلسوف تكسبين كل ما خسرته!.. دعي خالي يغش، فهو لن يلبث أن يُفتضح!». فرمقت آنا فيدوروڤنا ابنتها بنظرة مرتاعة، وهتفت: «ليتك تساعدينني، يا ليزا العزيزة!». فأجابت ليزا: «ولكنني لا أعرف هذه الطريقة، أنا الأخرى، وما أرى إلاّ أنك ستخسرين مبلغاً كبيراً، ولن يتبقّى شيء لثوب بيموشكا الجديد!».. فقال حامل العلم، وهو يتطلع إلى ليزا، توّاقاً إلى مجاذبتها أطراف الحديث: «أجل، من السهل أن يخسر المرء ـ بهذه الطريقة ـ عشرة روبلات فضّية!».

وأمرت السيدة العجوز ببعض النبيذ الخفيف المصنوع في البيت، فشربت قدحين، واشتد احمرار لون وجهها، وبدا أنها وطدت العزم على أن تتحمّل أي حظ يصيبها. وأفلتت خصلة من شعرها الأشيب، فلم تحاول أن تردّها إلى مكانها. وما من شك في أن المبلغ الذي خسرته بدا لها كما لو كان بالملايين، فتحمّست لاسترداده. وأخذ حامل العلم يكثر من دفع صاحبه بالقدم، تحت المائدة.. وأخيراً، انتهى اللعب، بالرغم من محاولات آنا فيدوروڤنا الماكرة، بتعمّد الأخطاء في الجمع، كي تزيد من مرّات كسبها. ومع ذلك فقد اشتد بها الجزع إذ بلغت خسائرها أكثر من اثنين وثلاثين من الروبلات الورقية.. ولم يحفل الكونت بجمع أرباحه بل نهض لفوره، وسار إلى النافذة التي كانت ليزا تقف عندها منهمكة في تنسيق بعض المخلّلات للعشاء. وهناك فعل ما كان حامل العلم يحاول طيلة الأمسية أن يفعله دون أن ينجح.. استطاع أن يجاذبها الحديث حول الجو! وفي تلك الأثناء، كان حامل العلم في موقف حرج، فإنَّ آنا فيدوروڤنا بدأت تفرج عن غضبها، في غياب الكونت، وفي غياب ليزا بوجه خاص، إذ كان وجودهما يسرّي عنها!

قال بولوزوڤ، لمجرد أن يقول شيئاً: «لقد كان من المعيب أن

نكسب منك كل هذا، في الواقع.. إنه لمخجل حقاً!». فصاحت: «بالطبع، ما دمتم تبتكرون طرقاً جديدة لا أعرفها.. حسناً، كم بلغ المجموع بالعملة الورقية؟». فقال أخوها الذي أطربه أن كان رابحاً: «اثنان وثلاثون روبلاً ورقياً.. وربع الروبل! هات النقود يا أختاه.. ادفعي!». فصاحت: «سأدفعها كلّها، ولكنك لن تستدرجني ثانية.. إنه مبلغ لن أستردّه ما حييت!». ونهضت مسرعة إلى حجرتها، وهي تتمايل، وعادت بالنقود. واستولى الخوف على بولوزوف خشية أن تعنُف آنا فيدوروفنا معه إذا تحدّث إليها، فتركها في صمت وهدوء، وانضم إلى الكونت وليزا اللذين كانا يتكلّمان عند النافذة.

*

راحت نسمات ليل شهر أيار/ مايو العليلة تداعب - بين آن وآخر - لهب الشمعتين الكبيرتين اللتين انتصبتا على المائدة التي أعدَّت للعشاء، في حجرة الجلوس.. وكان النور يغمر الحديقة التي كانت النافذة تطلّ عليها، ولكنه نور من نوع آخر.. نور القمر الذي أوشك أن يكتمل، وقد راح يسبح فوق قمم أشجار الزيزفون السامقة، وهو يضاعف من تألق السحب البيضاء التي كانت تضفي على وجهه غلالة رقيقة، بين الحين والحين.. وكانت الضفادع تنقّ نقيقاً صاخباً، بجوار البركة التي خلع القمر على أحد جانبيها بريقاً فضيّاً كان يتضح للأنظار عبر الطريق المحفوفة بالأشجار.. وأخذت بعض الطيور ترفرف وئيداً، أو تتواثب، من غصن إلى غصن، في مجموعة من أشجار البنفسج الشذية، التي كانت فروعها تتمايل في دلال نحو النافذة.. قال الكونت لليزا، وهو يجلس على حافة النافذة المنخفضة: «يا له من جو بديع!.. أعتقد أنك تكثرين من الرياضة هنا؟». فأجابت ليزا، وهي لا تشعر بأي خجل من الحديث معه: «أجل. فحوالى السابعة من كل صباح، أُعنى بتفقّد رغبات أمي في

الضيعة، وأصطحب بيموشكا ـ خادمة أمي الخاصة ـ في نزهة على الأقدام». فقال وهو يثبّت نظّارة المونوكل على إحدى عينيه، وينقّل بصره بين ليزا والحديقة: «إنَّ الحياة في الريف تشرح الصدر!.. أولا تخرجين قط في الليل، للنزهة على ضوء القمر؟».

ـ لا، ولكني اعتدت ـ قبل عامين ـ أن أتمشّى مع خالي في كل ليلة مقمرة، إذ كان يعاني من مرض غريب.. لم يكن بوسعه أن ينام عندما يكون القمر بدراً، إذ إن غرفته الصغيرة تطل على الحديقة مباشرة!.. ومع أن نافذتها منخفضة إلاّ أن ضوء القمر ينساب عبرها مباشرة!

وأومأت نحو غرفة خالها، فقال الكونت: «عجيب.. لقد ظننتها غرفتك». وكان جوابها: «لا، فلن أنام فيها سوى الليلة.. فقد خصّصت غرفتي لكما». وهتف الكونت: «أحقّاً هذا؟.. ويلي! لن أغفر لنفسي أن أزعجتك». وترك النظارة الأحادية الزجاجة تسقط على صدره، إظهاراً لاستيائه، وأردف: «لو أنني عرفت بأنني سأزعجكم..». فقالت: «لا إزعاج هناك، بل إنني ـ على النقيض ـ مسرورة، فإن حجرة خالي بديعة، ومشرقة بالضوء، ونافذتها منخفضة، بحيث أستطيع أن أجلس هناك إلى أن يواتيني النعاس، أو أن أهبط إلى الحديقة فأتمشى قليلاً، قبل أن آوي إلى فراشي».

وقال الكونت لنفسه، وهو يعيد النظارة إلى عينه، ويتأملها: «يا لها من فتاة رائعة!». وحاول أن يمس قدمها بقدمه، وهو يتظاهر بإصلاح جلسته على حافة النافذة.. «وما أبرعها إذ أطلعتني على أنني أستطيع أن أراها من الحديقة وهي تجلس في النافذة، إذا شئت!». وخُيِّل إليه أن النصر سهل، ففقدت ليزا في نظره بعض سحرها، وما لبث أن قال، وهو يرسل البصر إلى الطريق المحفوفة بالأشجار: «وما أبهج أن يقضي المرء ليلة كهذه في الحديقة، مع حبيب!». وارتبكت ليزا لهذه الكلمات، ولتكرّر لمسات قدمه

لقدمها. فقالت ـ دون تفكير ـ محاولة أن تخفي اضطرابها: «أجل، فإنَّ المشي تحت ضوء القمر ممتع!». وبدأت تشعر بشيء من عدم الارتياح. وهمت أن تنصرف بوعاء المخللات، عندما انضم إليهما حامل العلم، فشعرت برغبة في أن تتبيَّن أي نوع من الرجال هو الآخر!

قال الشاب: «ما أجملها من ليلة!». فقالت لنفسها: «لا حديث لهما إلاّ عن الطقس!». واستطرد بولوزوف: «وما أبدعه من منظر!.. ولكني أحسبك قد مللته!». فتساءلت: «ولماذا تحسب ذلك؟.. من المحتمل أن يمل المرء ثوباً أو طعاماً طال تعوّده عليه، ولكن.. كيف يمل المرء حديقة غنّاء، يولع بأن يتمشى خلالها.. ولا سيما عندما يكون القمر مشرقاً؟!.. إن البركة تبدو واضحة، خلال نافذة خالي، وسأملي النظر منها الليلة!». فقال الكونت وقد ساءه أن حال مقدم زميله دون أن يستوثق من موعد الليلة: «ولكني لا أظن أن لديكم أية بلابل في هذه المنطقة». فقالت: «لا، غير أنه كانت هنا بعض البلابل منذ عام، ولكن الصيادين وأجراس العربات أخافتها.. ولقد كنت ـ منذ عامين ـ أجلس مع خالي في الدرب المغطّى بفروع الشجر، فتنصتّ إليها لساعتين أو أكثر!».

بعد العشاء ـ الذي راح الكونت خلالها يطري الطعام، ويُقبل عليه، ما بدّد بعض ضيق ربّة البيت ـ تمنّى الضابطان لمضيفيهما ليلة هانئة، وذهبا إلى حجرتهما.. ولقد صافح الكونت الفارس الكهل، ولشدّ ما كانت دهشة آنا فيدوروڤنا عندما صافحها هي الأخرى، دون أن يقبِّل يدها.. كما صافح ليزا، وهو يحملق في عينيها، وعلى شفتيه ابتسامته اللطيفة. وكم أخجلت نظرته الفتاة، في هذه المرة، وجعلتها تقول لنفسها: «إنه مليح الطلعة جدّاً، ولكنه كثير الاغترار بنفسه!».

14

غيرة متمرّد

قال بولوزوف لصاحبه، حين أصبحا في حجرتهما: «ألم تخجل من نفسك؟.. لقد تعمّدت أن أخسر، وظللت أدفع قدمك، تحت المائدة. ألست خجلاً؟ لقد استاءت السيدة العجوز أيّما استياء!». فضحك الكونت من قلبه، وقال: «لكم كانت مضحكة تلك السيدة العجوز!».. وظل يضحك في مرح، حتى أن جوهان ـ الذي كان يقف أمامه ـ أشاح بوجهه ليخفي ابتسامة.. بينما تابع الكونت حديثه وهو يضحك: «وتصوَّر أن يصيبها هذا مع ابن صديق للأسرة!». فقال بولوزوف: «لا، لقد كان تصرفك سيّئاً في الواقع. لقد كنت شديد الأسف من أجلها!». فصاح الكونت: «يا له من هراء!.. وكم أنت ساذج، عديم التجربة!.. لماذا أردتني على أن أخسر؟ ولماذا ينبغي على المرء أن يخسر؟.. لقد ألفت الخسارة قبل أن أتعلم اللعب! ثم إنّ عشرة روبلات قد تكون ذات نفع يا عزيزي. انظر إلى الحياة نظرة عملية، وإلاّ بقيت دائماً في عوز!».

ولزم بولوزوف الصمت، ولا سيما أنه رغب في هدوء يفكر خلاله في ليزا التي تراءت له ذات طهر وجمال غير عاديين. وخلع ثيابه، ثم استلقى على السرير الوثير، النظيف، الذي أُعدَّ له. وقال لنفسه وهو ينظر إلى النافذة التي أسدل عليها الشال بدل الستار، فتسلّل نور القمر خلال النسيج. «أي عبث هذا الشرف والمجد العسكريّان!؟.. إن السعادة في العيش في عش هادئ، مع زوجة حبيبة، عاقلة، ساذجة القلب.. أجل، هذه هي السعادة الحقيقية. الدائمة!». على أنه لم

يفض لصديقه بهذه الخواطر ـ لسبب ما ـ ولم يثر ذكر الفتاة الريفية، رغم أنه كان على ثقة من أن الكونت ـ هو الآخر ـ كان يفكّر فيها!

قال للكونت الذي كان يذرع الحجرة جيئة وذهاباً: «لم لا تخلع ثيابك؟». فأجابه: «لا أشعر برغبة في النوم بعد. تستطيع أن تطفئ الشمعة إذا شئت، وسأستلقي على الفراش بثيابي!». وواصل السير في الحجرة، فقال بولوزوف الذي شعر ـ بعد سهرة الليلة ـ بمزيد من عدم الرضى عن نفوذ الكونت وتأثيره فيه، وخالجه الميل إلى التمرّد على هذا الوضع: «لا تشعر برغبة في النوم بعد؟!». وقال في سريرته، وكأنه يخاطب توربين في العلن: «بوسعي أن أتصوّر ما يدور الآن في رأسك ذي الشعر المنسَّق. لقد رأيت مدى إعجابك بالفتاة، ولكنك غير كفء لأن تفهم مثل هذه الأنثى الساذجة، الطاهرة.. إنما تشتهي امرأة مثل مينا وإشارات الكتف الخاصة بضابط في رتبة كولونيل.. يجب أن أسألك حقّاً عن رأيك في الفتاة». والتفت إليه، ثم عدل عن رأيه، فقد شعر بأنه لن يقوى على أن يتشبث برأيه أمام رأي الكونت عن ليزا إذا كان مخالفاً لما ينبغي، وقد يعجز عن أن يتحاشى موافقته، فقد اعتاد أن يرضخ لتأثير الكونت، رغم أنه كان يشعر ـ يوماً بعد يوم ـ بأن هذا التأثير أصبح يثقله ويضنيه.

قال إذ رأى الكونت يرتدي قلنسوته ويسعى نحو الباب: «إلى أين أنت ذاهب؟». فأجابه: «سأذهب لأتفقد الأحوال في حظيرة الخيل». وهتف الشاب في سريرته: «عجيب!». ولكنه أطفأ الشمعة، وولى وجهه شطر الحائط، محاولاً أن يطرد عن ذهنه أفكاراً سخيفة سُداها الغيرة ولحمتها العداء نحو صديقه.

في هذه الأثناء، كانت آنا فيدوروفنا قد أخلدت إلى مخدعها بعد أن قبّلت أخاها وابنتها ووصيفتها ـ كعادتها ـ ورسمت علامة الصليب على صدر كل منهم.. وكان قد مضى زمن طويل مذ تعرضت السيدة

العجوز لمثل هذا العدد من الانفعالات الشديدة في يوم واحد، فلم تستطع أن تؤدي صلاتها في هدوء، ولم تقو على أن تطرح عنها الذكريات المحزنة، الحيَّة.. ذكريات الكونت المتوفّى، والشاب المتأنق الذي أخسرها في غير إشفاق. على أنها ما لبثت أن نزعت ثيابها، وشربت نصف قدح من «الكافا»(*)، ثم استلقت على سريرها. وتسلّلت قطتها المدلَّلة إلى الحجرة في خفة، فنادتها آنا فيدوروفنا،وشرعت تمسح على ظهرها، وتنصت إلى هريرها. بيد أنها لم تستطع النوم، فقالت لنفسها: «لا بد أن القطة هي التي تستبقيني مسهدة!»، وطردتها من السرير، فقفزت إلى الأرض بخفة، وسارت - وهي تحرك ذيلها المنفوش - ووثبت فوق المدفأة. وأقبلت الوصيفة التي كانت تنام في حجرة آنا فيدوروفنا، فبسطت فراشاً من اللباد على الأرض، وأطفأت الشمعة، وأوقدت فتيلة أمام الأيقونة، وسرعان ما ارتفع غطيطها.. ولكن النعاس لم يوات آنا، فإذ أغمضت عينيها، كان وجه الفارس الشاب يتمثّل لها، ويخيل إليها أنه كان في الحجرة متنكِّراً في أي شيء. وإذ ذاك كانت تفتح عينيها، وتتأمل كل شيء حولها على ضوء الفتيلة.. وأحست بحرارة تدب في جسدها.. ولم تعد تحتمل دقات الساعة التي كانت تعلو المنضدة، ولا غطيط الخادم، حتى أنها أيقظتها وأمرتها بأن لا ترسل غطيطاً!..

وعاودتها الأفكار التي كانت تدور في رأسها حول ابنتها، والكونت الراحل، وابنه الشاب، ولعب الورق.. واختلطت هذه الأفكار جميعاً، فكانت تتمثَّل نفسها وهي تراقص الكونت المتوفّى، وتشعر قبلاته على كتفيها الناصعتين.. ثم تتمثّل ابنتها في أحضان الكونت الشاب.. وراحت تقول لنفسها: «لا، إن الناس اليوم غيرهم بالأمس.. كان الكونت الآخر على استعداد لأن يثب في النار من

(*) Kava: هو فُلفل كاوة، ومُسْكِر كافا مصنوع منه.

أجلي، وكان على حق. أمّا هذا الكونت فينام كالأحمق، سعيداً بأن ربح مني.. فلا غرام يستهويه!.. ما كان أروع الآخر إذا جثا على ركبتيه قائلاً: «ما الذي تريدينني على أن أفعل؟.. إنني على استعداد لأن أقتل نفسي إذا شئت!».. ولو أنني طلبت، لقتل نفسه!».

وفجأة، سمعت وقع قدمين عاريتين في الردهة، ثم اندفعت ليزا ـ وعلى كتفيها شال ـ فارتمت على سرير أمها وهي شاحبة ترتجف!

*

كانت ليزا قد أوت وحيدة إلى الغرفة التي كانت لخالها من قبل، فارتدت سترة بيضاء، ولفت رأسها الكثيف الشعر بمنديل، وأطفأت الشمعة، وفتحت النافذة وجلست على مقعد عندها، مرسلة بصرها إلى بركة الماء التي كانت تلمع في ضوء القمر الفضّي.. وانبعث أمامها ـ فجأة ـ كل ما كان يشغل بالها، وقد تبدّى على ضوء جديد: أمها العجوز الكثيرة النزوات ـ التي أصبح حبها الأعمى لها جزءاً من نفسها ـ وخالها المتداعي اللطيف، ورقيق الدار، ورقيق الضيعة، الذين كانوا يعشقون مولاتهم الصغيرة، والبقر والعجول، وكل هذه الطبيعة التي كانت تموت وتُبعث حية مرات لا حصر لها، والتي نشأت في غمارها، محوطة بخلق تحبّهم ويحبّونها.. كل هذه الأمور، التي اعتادت أن تضفي على روحها إشراقاً وسكينة رقيقة، بدت لها ـ فجأة ـ غير كافية لإرضائها.. بل بدت كئيبة، غير ذات قيمة، وكأنما كان ثمة هاجس يهيب بها: «أيتها الحمقاء الصغيرة!.. لقد عشت عشرين عاماً في السفاسف، تخدمين الآخرين دون أن تدري لذلك سبباً، ودون أن تدركي ما هي الحياة، وما هي السعادة!». وراحت تغوص ببصرها في الحديقة التي أسبغ القمر عليها ضوءه.. تُرى، ما الذي بعث في بالها هذه الخواطر؟.. لم يكن السب حبّاً طارئاً تولاّها نحو الكونت الشاب، كما قد يخيل إلى

المرء، فهي ـ على العكس ـ لم تمل إليه.. وكان من المحتمل أن تكون أكثر استعداداً لأن تميل إلى زميله، لولا أنه كان غير وسيم، وكان ساذجاً، صموتاً، فظلت تنساه ـ على غير تعمُّد ـ وتتذكّر طيف الكونت في غيظ وحنق، إذ أيقنت أنه لم يكن المثل الأعلى الذي اعتادت أن تحلم به.. كان مثلها الأعلى مفرط الجمال في كل شيء، جديراً بالحب في مثل هذه الليلة، وبين هذه الطبيعة، دون أن يصرفها عن جمال ما حولها..

وقد أدت الوحدة التي كانت تعيش فيها من قبل ـ في غياب من يحتمل أن يسترعي انتباهها ـ إلى أن ظلت قوة الحب، التي أودعتها العناية في كلٍ منّا على قدم المساواة، هادئة، ساكنة في صدرها. فعاشت طويلاً في سعادة آسية كان يبعثها الشعور بوجود هذه القوة في أعماقها، وكانت تفتح مغاليق قلبها ـ بين حين وآخر ـ لكي تتأمل كنوزه، حتى تغدق منها على أي امرئ، دون تفكير. فليدعها الله تنعم بهذه النعمة النادرة، إلى نهاية عمرها!.. فمن يدري أنها ليست خير النعم وأقواها، وأنها ليست السعادة الحقة، والمتيسِّرة؟!.. وهتفت الفتاة لنفسها: «أواه، يا إلّهي، أيها الرب.. أمن المحتمل أن أكون قد بدّدت شبابي وهنائي عبثاً، وأنني لن أحظى قط.. لن أحظى قط..؟». وحدّقت إلى أعماق السماء التي أنارها القمر، وغطتها سحب كالعهن المنفوش، حجبت النجوم، وأخذت تسعى نحو القمر. ثم قالت لنفسها: «لو قُدِّر لهذه السحابة الصغيرة أن تصل إلى القمر فستكون هذه إشارة إلى أنَّ ما يجول بخاطري صحيح!». وسبحت السحابة الصغيرة الرقيقة، فغطت الجزء الأسفل من قرص القمر، وإذا بعتمة تدب في الضوء الذي كان يترامى على الحشائش، وعلى قمم أشجار الموالح، وعلى البركة.. وازدادت ظلال الأشجار قتامة.. وسرت خلال أوراق الشجر ريح خفيفة ـ كأنها تُكمل التناسق بين

الظلال القاتمة ـ فحملت إلى النافذة عبير الخضرة المخضلَّة بالندى، والمتربة الرطبة، والبنفسج!

قالت ليزا تواسي نفسها: «لا.. إذا غرّد العندليب الليلة، فستكون هذه إشارة إلى أن كل ما أفكّر فيه هراء، وأن لا داعي إلى أن أيأس!».. وسكنت في جلستها طويلاً، ترتقب شيئاً ما، بينما عاد الإشراق إلى كل شيء، ثم عادت السحب الصغيرة تسبح عابرة أمام قرص القمر، مشيعة العتمة في كل شيء. وكان النعاس قد بدأ يراود أجفان الفتاة، عندما انبعث من لدن البركة شدو العندليب فأيقظها من إغفائها.. وفتحت العذراء الريفية عينيها، وانتعشت روحها مرة أخرى ابتهاجاً بتلك الرابطة الغامضة التي كانت تربط بينها وبين الطبيعة التي استلقت أمامها مشرقة، هادئة.. وأسندت ذراعيها إلى حافة النافذة، وأطلّت!.. وغشي قلبها شعور بأسًى عذب، ناعم.. وملأت عينيها دموع حب طاهر كبير، يهفو إلى الريّ.. دموع مسرِّية، مواسية. وأسندت الفتاة رأسها إلى ذراعيها، وجالت برأسها أدعيتها المفضلة، ثم نامت وعيناها مخضلّتان بالدموع.

وأيقظتها لمسة.. لمسة كانت خفيفة، ولطيفة. واشتد ضغط اليد على يدها. وفجأة، تنبّهت إلى الواقع، فصرخت، وقفزت، وهرعت مغادرة الحجرة، وهي تحاول أن تقنع نفسها بأن الذي كان يقف في ضوء القمر ـ في الحديقة ـ لم يكن الكونت.. بل كان طيفاً!

15

حب وعذاب

والواقع أنه كان الكونت. وعندما سمع صرخة الفتاة، وحشرجة منبِّهة من الحارس الساهر خلف سياج الحديقة - وقد نبَّهته الصرخة - اندفع، عبر الحشائش المندّاة، إلى جوف الحديقة، وقد خامره شعور اللص الذي أوشك أمره أن يُفتضح.. وراح يردِّد لنفسه: «يا لي من أحمق!.. لقد أخفتها!.. كان خليقاً بي أن أتلطَّف في إيقاظها، بأن أتحدث إليها في رفق.. يا لي من جلف!». وتوقف، وأصغى، فإذا الحارس قد ولج إلى الحديقة، وهو يجرّ عصاه خلفه. وأسرع الكونت إلى البركة ينشد مخبأ، فأفزعته الضفادع، إذ قفزت من تحت قدميه إلى الماء.. ومع أن حذاءيه ابتلا، إلاّ أنه جلس القرفصاء، وراح يستعيد كل ما جرى.. كيف بحث عن نافذتها، وكيف رأى - أخيراً - طيفاً أبيض، وكيف اقترب من النافذة ثم ابتعد عنها مراراً، وهو ينصت إلى أقل صوت.. كيف كان يشعر - في لحظة - بيقين من أنها كانت تنتظره، مستاءة من تأخُّره.. ثم يشعر - في اللحظة التالية - بأن من المستحيل أن تكون قد رضيت أن تلقاه بمثل هذه السهولة.. ثم كيف أقنع نفسه - أخيراً - بأن حياء العذراء الريفية هو الذي جعلها تتظاهر بالنوم على حافة النافذة، فسار إليها في عزم.. ثم نكص على عقبيه.. وبعد أن عيَّر نفسه مراراً بالجبن، اقترب في جرأة، ومسَّ يدها!

ومرة أخرى، أرسل الحارس سعالاً أجش، ثم غادر الحديقة.. وأُغلق مصراعا نافذة الفتاة، وسمع رتاجهما يحكم من الداخل..

وكان هذا مثيراً لأساه.. كان على استعداد لأن يضحي بأي شيء في سبيل فرصة تمكِّنه من أن يبدأ من جديد، فلا يتصرَّف بغباء كما فعل.. وراح يقول لنفسه: «فتاة رائعة.. ناضرة.. فاتنة إلى هذا الحد.. ومع ذلك فقد تركتها تفلت من بين أصابعي.. يا لي من وغد أحمق!». وأبى أن ينام، فراح يسير على غير هدى، في الطريق التي كانت تحف بها أشجار الموالح!.. وإذ ذاك، أسبغ الليل عليه ـ هو الآخر ـ منحه الناعمة.. منحة الأسى المستعذب، والشعور بالحاجة إلى الحب!.. وكانت أشعة القمر الواهنة تلقي نقاطاً من الضوء، خلال الأفنان الكثيفة، على الأرض، حيث نمت بعض فروع من العشب، أو تناثرت بعض أغصان ميتة.. وكان ثمة ضوء يسقط على غُصين منحن، فيجعله يبدو وكأنه مكسوّ بطبقة بيضاء.. وكانت أوراق الشجر المفضَّضة تتهامس من آن إلى آخر. ولم يكن ثمة ضوء في المنزل، كما كان الصمت يرين على الكون، فيما عدا صوت بلبل لاح أنه كان يملأ الفضاء المشرق، الساكن، الذي لا نهاية له.. وهتف الشاب وهو يفغم صدره بعبير الحديقة: «أوّاه، يا إلَهي!.. أية ليلة هذه! يا لها من ليلة رائعة!.. ومع ذلك، فإني أشعر بشيء من الحسرة، وكأنني غير قانع بنفسي.. غير راض عن الناس، وغير راض عن الحياة بأسرها!.. يا لها من فتاة حسناء، رائعة!.. لعلها تأذّت مني حقّاً، أو أُصيبت بضرّ!». وهنا اختلطت أحلامه بعضها ببعض، فأخذ يتمثّل نفسه مع الريفية العذراء في الحديقة، في أوضاع عديدة، غريبة. ثم حلّ طيف خليلته «مينا» محل طيف الفتاة، فهتف لنفسه: «يا لي من أحمق!.. لم يكن ينبغي عليَّ سوى أن أحيط خصرها بذراعي، وأقبّلها!».

وعاد الكونت إلى حجرته، وهو في حسرة، فإذا زميله لا يزال مستيقظاً، وإذا به يتقلّب في فراشه، ويلتفت إليه. فسأله: «ألم تنم

بعد؟».. فأجاب بولوزوف: «لا».. وعاد الكونت يقول: «هل أنبئك بما حدث؟». فقال: «هات ما عندك».

ـ لا، يحسن أن لا أخبرك. أو.. لا بأس، سأخبرك!

وابتسم وهو يجلس على حافة سرير صاحبه، وقال: «هل تصدِّق أن السيدة الصغيرة واعدتني على اللقاء!». فقفز بولوزوف من فراشه صائحاً: «ما هذا الذي تقول؟». وأهاب به الكونت: «ألا استمع إليَّ». ولكن الشاب صاح: «ولكن. كيف؟ ومتى؟ هذا مستحيل!».

ـ كان ذلك بينما كنت تجمع الحساب عقب اللعب.. فقد أخبرتني أنها ستجلس على حافة النافذة بالليل، وأن من السهل أن ينفذ المرء من هذه النافذة. أرأيت جدوى أن يكون المرء عمليّاً؟!.. ألم تسمعها بنفسك تقول ـ في أثناء وقوفك معنا ـ إنها ستجلس إلى النافذة بالليل، وتتأمل البركة؟!».

ـ أجل، ولكن هذا لم يكن يعني شيئاً!..

هذا عين ما لم أستطع إدراكه: هل قالت ذلك متعمّدة، أو أنها لم تكن ترمي إلى غاية؟.. من المحتمل أنها لم تكن راغبة حقّاً في أن توافق بهذه السرعة، ولكن الأمر لاح على النقيض. وانتهى أبشع نهاية.. لقد تصرَّفتُ بحماقة!

وابتسم الكونت ازدراء لنفسه، فتساءل بولوزوف: «ماذا تعني؟.. وأين كنت؟». فتناسى الكونت ما حاول أن يوقعه في روع صاحبه، وروى له كل ما حدث، ثم أضاف: «لقد أفسدت الفرصة بنفسي.. كان ينبغي أن أكون أكثر جرأة. ولكني جعلتها تصرخ وتجري مبتعدة عن النافذة».

فابتسم حامل العلم في غير ارتياح، ردّاً على ابتسامة الكونت التي ظلت أمداً ذات أثر كبير فيه، وقال: «إذاً، فقد صرخت وهربت!»..

فقال الكونت: «أجل. ولكن، لقد آن لنا أن ننام!».. وعاد حامل العلم فيمَّم وجهه شطر الحائط، وظل صامتاً عشر دقائق. ولا يعلم سوى الله ما كان يدور في رأسه، ولكنه ـ حين التفت ثانية ـ كان يحمل على وجهه أمارات العذاب، والعزم. فقال فجأة، وبخشونة: «كونت توربين!».. وأجاب الكونت في هدوء: «هل تهذي؟.. ماذا هناك أيها الضابط بولوزوف؟». فصاح بولوزوف: «كونت توربين.. إنك وغد!». وقفز من فراشه مرة أخرى.

16

النهاية

غادرت الفصيلة الضيعة في اليوم التالي، ولم يكن الضابطان قد التقيا بمضيفيهما مرة أخرى، ولم يودّعاهم.. لا ولم يكلّم كل منهما الآخر، بل عقدا العزم على أن يتبارزا في أول مركز تنزل الفصيلة فيه. ولكن الكابتن «شولز» ـ وكان ضابطاً طيِّباً، وفارساً عظيماً، وشخصية محبوبة من كل امرئ في الكتيبة، وقد اختير ليكون شاهد الكونت ـ استطاع أن يسوّي المسألة خير تسوية، فلم يقتصر الأمر على أن الضابطين الفارسين لم يتبارزا فحسب، بل إن أحداً في الكتيبة لم يعلم بالمسألة. وظل توربين وبولوزوف يتبادلان الأحاديث العادية إذا ما التقيا في حفلات العشاء والمقامرة، وإن هما لم يعودا إلى صداقتهما السابقة وودهما القديم!

في العالم آلاخر

1

جرى ذلك في اليوم التالي ليوم عيد القديس «نيكولا»، وكان سادن الكنيسة، «ڤاسيلي أندريتش بريخانوڤ»، قد بقي في المنزل كي يقوم بواجب الضيافة نحو بعض أصدقائه وأقربائه، حتى إذا انصرف آخر هؤلاء الضيوف، أخذ أهبته لزيارة أحد الملاّك، المجاورين، كي يبتاع منه مخزن أخشاب كان يساومه على شرائه منذ زمن بعيد. فقد كان «ڤاسيلي» - إلى جانب وظيفته في سدانة الكنيسة - يشتغل بالتجارة. ومن ثم فقد كان - في ذلك اليوم - شديد اللهفة على أن يبكّر بالخروج لئلا يحرمه المنافسون - القادمون من المدينة - هذه الصفقة الرابحة.

انطلق نيكيتا ليسرج الجواد، إذ كان الوحيد بين الخدم الثمالى الذي لم يكن مخموراً في ذلك اليوم.. كان فيما مضى أسوأ عربيد، إلاّ أنه - بعد أن رهن رداءه ونعليه من أجل الشراب - أقسم ألاّ يقرب كل أنواع الخمور، واحترم قسمه فعلاً طيلة الشهر التالي، وظل مصمّماً عليه في هذه المناسبة الأخيرة، رغم الذي عاناه من إغراء الخمر التي كانت تتدفّق أنّى ذهب خلال اليومين الأولين من أيام العيد.

كان من طبقة الفلاحين الملقّبين بـ«الموجيك».. في نحو الخمسين من عمره، وقد نزح من إحدى القرى المجاورة، حيث لم تكن له أسرة مقيمة، وإنما كان معروفاً لدى الجميع بأنه عاش الشطر الأعظم من حياته متنقلاً بين منازل الآخرين. وكان يلاحقه أينما حل الإعجاب والتقدير لمهارته ومثابرته وقوة بنيته.. ولدماثة أخلاقه ومرح طبيعته فوق ذلك. على أنَّ الاستقرار لم يكن ليطول به في مكان واحد، إذ كان اعتاد أن يسرف في شرب الخمر مرتين أو أكثر في السنة.. وفي تلك المرات، لم يكن الأمر ينتهي به إلى أن يرهن كل متاع يمتلكه، فضلاً عن أنه كان يغدو عربيداً شرساً شديد الرغبة في الشجار والعداوة. وقد

اضطر «ڤاسيلي» نفسه إلى طرده أكثر من مرة. إلاّ أنه كان لا يلبث أن يعيده إلى خدمته، لما لمسه من أمانته، وعنايته بالماشية.. وأهم من كل هذا، لما آنسه من قلة أجره!.. فالواقع أن «ڤاسيلي» كان ينقد «نيكيتا» أجراً.. ولكن هذا الأجر لم يكن ثمانين من الروبلات في السنة، كما جرى عليه العرف لمثل هذا العامل.. وإنَّما كان يعطيه أربعين لا تزيد روبلاً بأي حال. ثم كان ـ إلى ذلك ـ لا يدفع له هذا القدر دفعة واحدة، وإنَّما كان يتفضَّل به عليه قطرة قطرة، على أقساط وآجال.. وكان بعد ذلك كله لا يعطيه الشطر الأكبر منه نقداً، وإنَّما في صورة سلع من متجره يبيعه إياها بالثمن الباهظ.

أما «مارتا» زوجة نيكيتا ـ وهي امرأة خشنة، مشعثة الشعر، برغم أنها كانت جميلة في يوم من الأيام ـ فقد كانت تعيش في المنزل مع ولد صغير وبنتين. ومع ذلك، فما كانت تدعو زوجها أبداً ليأتي ويراها.. لأنها ـ قبل كل شيء ـ كانت تقيم في العشرين عاماً الأخيرة مع صانع براميل، كان في الأصل من طبقة الفلاحين في قرية نائية، ثم جاء ليقيم معها.. ولأنها ـ بعد ذلك ـ كانت تخشى زوجها وتخافه ـ إذا ثمل ـ برغم أنها كانت تتصرَّف معه على هواها حين يكون بوعيه. فقد حدث مرة أنه أكثر من شرب الخمر، وانتهز فرصة سكره، فاعتزم أن ينتقم لنفسه من زوجته عن كل ما صنعت به خلال وعيه. ومن ثم انقضَّ على صندوقها الخاص، وحطّمه، وأخذ كل ما كان به من ثياب فوضعها على كتلة خشبية ثم انهال عليها بالفأس حتى أحالها إلى مِزَق صغيرة مهلهلة.. ومع ذلك فقد كان يسلِّم «مارتا» كل ما يحصل عليه من الأجر. وما من مرة نازع في هذا النظام.. بل إنَّها ذهبت ـ قبيل هذا العيد الأخير ـ إلى متجر «ڤاسيلي»، فأمدَّها هذا الأخير بالدقيق الأبيض والسكر والشاي، وزجاجة كبيرة من الڤودكا، باعتبار أنَّ كل ذلك بثلاثة روبلات. ولمّا كان ما أعطاها إياه يساوي خمسة روبلات، فقد شكر لڤاسيلي كرمه ومعروفه.. إلاّ أن ڤاسيلي ـ في الحقيقة ـ حاسب

نيكيتا على هذه السلع فيما بعد، باعتبار أنَّ ثمنها عشرين روبلاً!

وقد قال ڤاسيلي مرة لنيكيتا: «أي حساب مكتوب تريد أن أقدمه إليك، وأنا أُعطيك ما يتّضح أنه من حقك. إنني لا أفعل ما يفعله بقية التجّار، إذ أترك الدائنين لي ينتظرون، وأشغلهم بالحسابات المفصَّلة عمّا لي في ذممهم وعمّا لهم في ذمتي.. ففي وسع كل منّا ـ أنا وأنت ـ أن يثق في الآخر.. وما دمت تحسن خدمتي، فإنني لا أخذلك أبداً!».. وكان ڤاسيلي ـ في قوله هذا ـ شديد الاعتقاد بأنه يقول الحق، لأنه كان قديراً على الإقناع، إلى درجة تصل به إلى أن يقتنع ـ هو نفسه ـ بأنه لا يخدع خدمه، وإنَّما يصنع معهم معروفاً!

ولقد أجابه «نيكيتا» قائلاً: «نعم. نعم. إنني أفهمك يا ڤاسيلي أندريتش.. إنني أفهمك تمام الفهم، وسأخدمك وأشتغل من أجلك، كما لو كنت والدي».. غير أنه لم يكن غافلاً أو جاهلاً أنَّ ڤاسيلي كان يغشه ويستغله.. كل ما في الأمر أنه كان يدرك أن لا فائدة تُرجى من مطالبة مخدومه بحساب مفصَّل عمّا يستحق من أجر.. وكان ـ في الوقت ذاته ـ يدرك أنه ما من مكان آخر يمكن أن يلجأ إليه. ولذلك كان يفضِّل أن يتحمَّل سوء حاله معه على ما هي عليه، وأن يقنع بما يمكنه أن يحصل عليه منه.

*

فحين أصدر ڤاسيلي إليه الأمر في ذلك اليوم بأن يسرج الجواد، اتّجه للتوّ إلى الحظيرة في مرحه المعتاد، وطبيعته الدمثة. وكان جواداً جميل الشكل، متوسِّط الحجم، خفيض الكفل، أدهم داكن السمرة.. وما إن شعر الجواد بمقدم نيكيتا حتى استقبله بصهيل خافت، عبَّر به عن تحيته.. فأقبل نيكيتا على تنظيفه، ثم أسرجه. وما لبث أن قاده إلى حيث كانت العربة، فشدَّه إليها. وارتقى سلم العربة، وساق الجواد إلى خارج الحظيرة، نحو مدخل الفناء.. وفي تلك اللحظة ارتفع خلفه صوت غلام صغير يصيح: «يا عم نيكيت.. يا عم نيكيت!».

كان هذا الغلام ابن مخدومه.. صبي في السابعة من عمره، شاحب اللون، ضعيف البنية، يرتدي سترة قصيرة من الفرو الأسود، ونعلين أبيضين جديدين، وقبعة أنيقة.. وقد أقبل مندفعاً من داخل المنزل إلى الفناء، وراح يصرخ في توسّل إلى نيكيتا وهو يجري خلف العربة، قائلاً له: «خذني معك!». فأجابه بقوله: «حسن، حسن!.. تعال هنا، إذاً، يا عزيزي!». وأخذ بيده، وأجلسه في العربة، وعيناه تتألّقان بالفرح، وانطلق به إلى عرض الطريق.

كانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر، والجو مدلهمّ عاصف، ومقياس الحرارة يشير إلى عشر درجات فقط فوق درجة التجمُّد، وقد اكتست السماء بطبقة سوداء كثيفة من السحب المنخفضة.. وكان المرء إذا ما خطا نحو الشارع، خطوة واحدة، يشعر بالريح تغدو أشدَّ قوة، والصقيع يهوي في كسف فيجتاح أسطح المباني، ويصفع وجوه العابرين. فما أسرع ما لوى نيكيتا عنان جواده وعاد بعربته إلى الفناء. وما إن توقَّف بها عند مدخل البناء، حتى خرج ڤاسيلي أندريتش، ولفافة من التبغ بين شفتيه، ومعطف من فرو الشاة فوق كتفيه، وقد زرّره بإحكام، ولفّه عند خاصرته بحزام. واندفع بخطوات متسعة، عنيفة الوقع فوق الثلج الذي راح ينسحق تحت صريف نعليه المصنوعين من الجلد السميك المبطَّن باللباد، حتى إذا نفث آخر الأنفاس من لفافته، ألقى عقبها وداسه، ثم نظر إلى العربة وهو ينفخ دخان التبغ خلال شاربيه. وإذ رآها على أهبة الاستعداد للرحلة، رفع ياقة معطفه وطوّق بها عنقه ووجهه، حتى لاصق فراؤها وجنتيه.. وإذ ذاك لمح ابنه الصغير جالساً في مؤخر العربة، فهتف قائلاً له: «إذاً، فقد فعلتها أيها القرد الصغير؟».

كان ڤاسيلي في تلك اللحظة منتعشاً بما احتساه من النبيذ مع ضيوفه، لذلك فقد كان أكثر استعداداً لأن يستشعر الرضى عن نفسه، وعن كل ما فعله في حياته. وقد أبهجه ـ في تلك اللحظة ـ منظر ابنه

الصغير الذي قرّر أن يجعله وارثه، فراح يرمقه في ازدهاء عظيم.

وعلى عتبة الباب، خلف ڤاسيلي، وقفت زوجته النحيلة الشاحبة اللون «ڤاسيليا أندريتشا»، وقد لفت رأسها وكتفيها بدثار من الصوف، فلم يعد يبدو منها سوى عينيها. وإذ خطت في حذر خارج عتبة الباب، قالت: «أليس من الأفضل أن تأخذ نيكيتا معك؟». فلم يجبها وإنَّما زمجر مغضباً، مستاء من كلماتها، وبصق على الأرض.. وحينئذ استرسلت قائلة في لهجة بادية القلق: «أنت ترى أنك مسافر ومعك نقود.. فضلاً عن أن حالة الطقس تزداد سوءاً»، فانفجر ڤاسيلي قائلاً، وقد توترت شفتاه غيظاً: «ألست أعرف الطريق؟.. إذاً، فما حاجتي إلى دليل أصحبه معي؟».

وأجابته زوجته ڤاسيليا، وهي تلوي الدثار لتحمي الجانب الآخر من وجهها: «خذه معك من أجل خاطر السماء.. أتوسَّل إليك!». فصاح فيها قائلاً: «بالله! لماذا تلاحقينني هكذا؟.. أين عساي أجد له مكاناً في العربة؟». فقال نيكيتا في اغتباط: «أنا مستعد لأن أذهب».. فأجاب ڤاسيلي: «حسن.. أحسب أن من الواجب أن أطيِّب خاطر السيدة.. ولكن عليك أن ترتدي ثوباً أفضل من هذا، يدفِّئك أكثر.. لا بد من سترة رسمية غير هذه!».. وابتسم وهو يغمز بعينه نحو سترة نيكيتا الفرائية، التي كانت ـ في الواقع ـ مهلهلة تتخلّلها فجوات عند إبطيها وعلى قفاها وحول جانبيها، فضلاً عن أنها كانت ملطّخة بالشحم، متلبّدة، ممزَّقة الأطراف.

*

ما إن انطلق نيكيتا ليستبدل ثيابه، حتى تبعه ڤاسيلي بقوله: «لا تتأخر طويلاً في ارتداء بذلتك الرسمية الجديدة من فضلك!».. فمضى نيكيتا قفزاً في نعليه العتيقين إلى جناح الخدم، الواقع في نهاية الفناء.. ثم اندفع إلى داخل الكوخ وهو يصيح: «يا عزيزتي أرينشكا، أعطيني بذلتي من الصوان، فإنني ذاهب مع السيد!». وانتزع حزامه الذي كان

معلَّقاً على وتد بالحائط.. وكانت الطاهية ـ في تلك اللحظة ـ تعدّ الشاي لزوجها بعد أن نعمت بقيلولة هنيئة.. فلمّا سمعت صوت نيكيتا بادرته بالتحية في بشاشة. وإذ سرت إليها عدوى تسرُّعه وعجلته، بدأت تجري هنا وهناك في حيوية وخفة وضوضاء، كما كان هو يفعل. وأخذت من الصوان بذلة قديمة، باهتة حائلة اللون، وإن لم يكن بحالها بأس، وراحت تنفض الغبار عنها وتنظّفها.. وبينذاك، راح نيكيتا يقول لها: «أنت أنسب مني للذهاب مع السيد!».. ولم يكن يعني ما يقول حقّاً، وإنما كان ذلك جرياً على عادته أن يقول كلاماً حسناً لكل من يصادفه.. ثم راح يلف الحزام حول وسطه ويضغط عليه ضغطاً عنيفاً ليحبك أطرافه، وانطلق يقول له: «أنت يا هذا!.. لا ينبغي لك أن تنفلت إلى الخارج هكذا!».. حتى إذا اطمأن إلى حسن هيئته، التقط قفازيه أخيراً من على أحد الرفوف وقال: «أنا مستعد الآن!». فصاحت الطاهية قائلة: «ولكنك نسيت قدميك، فإن هذا الحذاء قبيح».

فوقف نيكيتا وكأنه فوجئ بملاحظتها، وقال: «نعم». إلاّ أنه ما لبث أن أتى حركة تدل على أنه غيَّر فكره، وقال: «كلاّ». فلسوف ينطلق بدوني، لو أنني فعلت ذلك. وعلى أية حال، فلن أكون بحاجة إلى أن أمشي طويلاً». ثم خرج مسرعاً إلى الفناء.. فما إن رأته سيدته ـ حين وصل إلى العربة ـ حتى بادرته بالقول: «ولكن، ألن يصيبك البرد بهذه البذلة الخفيفة يا نيكيتا؟». فأجابها: «كلاّ بالتأكيد، كيف يصيبني البرد والجو دافئ جدّاً!».. ثم راح يسوّي القش في مقدمة العربة بطريقة تسمح بأن يدسَّ فيه قدميه.

وجلس «ڤاسيلي» في مقعده، فملأ بظهره العريض ـ ذي الدثارين من الفرو ـ مؤخر العربة كله، ثم قبض على عنان الجواد وجذبه به.. في حين قفز «نيكيتا» إلى مقدّم العربة، في اللحظة التي بدأت فيها تنطلق، وجلس منحنياً إلى الأمام بميل إلى اليسار، وهو يعتمد في جلسته على قدم واحدة.

2

انطلق الجواد الوديع يجرُّ العربة وهو يصدر صريفاً خافتاً حين يخب في منحنى على الطريق المعبَّد المغطَّى بالثلج. وفجأة صاح ڤاسيلي: «ويحك! لماذا قفزت يا هذا؟».. فقد لمح أحد المارة يحاول أن يدفع بنفسه أمام الجواد في الاتجاه الخاطئ بالنسبة إلى العابرين. وصاح: «أعطني السوط يا نيكيتا!».. فقفز العابر بعيداً عن طريقه.. بينما أسرع الجواد كل الإسراع.. إلاّ أنه ما لبث أن عاد إلى الخبب مرة ثانية.

كانت «كريستي» - قرية ڤاسيلي - قرية صغيرة، لا تضم أكثر من ستة منازل. فما إن وصلت العربة أمام كوخ الحدّاد، في نهايتها، حتى أدرك الراكبان أن الريح أقوى ممّا كانا يتوقعان، وأن الثلج في الطريق أشد تراكماً عن المألوف، حتى لقد أصبح سطحه أعلى قليلاً من مستوى الأرض التي على جانبيه، وإن أبرزه ذلك للعين.. وكان الثلج يدور كالدوّامة في الوادي كله، وتتسع دائرته حتى يمتد قطرها إلى الأفق البعيد، في حين أن غابة «تلياتنسكي» - التي كان من الممكن رؤيتها كلها في العادة - لم تعد تبدو أكثر من كتلة من الظلمة ملتفّة بالثلوج. وكانت الريح تهب من اليسار فتطيح بناصية الجواد إلى الناحية الأخرى من عنقه، وتدفع بذيله الطويل الذؤابة نحو خاصرته.

أمّا نيكيتا، فحين صفعته الريح - وهو جالس في الجانب المعرض لها من العربة - راح يرفع ياقة بذلته ضاغطاً إياها حول وجنتيه وأنفه.. وما لبث ڤاسيلي أن قال: «إنَّ الجواد لن يستطيع السير طويلاً اليوم، فالثلج شديد التراكم على الأرض». ثم استرسل قائلاً وهو يفخر بجواده هذا: «لقد قدته ذات مرة إلى «باستيتينو» في نصف ساعة».

فقال نيكيتا وقد حالت ياقته العالية بينه وبين سماع ما قال سيده:

«ماذا تقول؟». فصاح ڤاسيلي رافعاً صوته: «أقول إنني قدته إلى «باستيتينو» في نصف ساعة». فردّ نيكيتا: «إنه لأمر يستحق الفخر بالتأكيد.. وإنه لجواد رائع!».

وصمتا برهة.. إلاّ أنَّ ڤاسيلي كان ميّالاً إلى الثرثرة، فما لبث أن قال بصوت عالٍ: «ما رأيك؟.. لقد قلت لزوجتك، في ذلك اليوم، ألاّ تدع صانع البراميل يشرب الشاي كله».. وكان موقناً بأنَّ نيكيتا سيشعر بالزهو إذ يوجه إليه الحديث من ذي حيثيّة مثله، كما هزّه الطرب جدّاً بمزحته عن صانع البراميل، غير مدرك أن هذا الأمر لم يكن ذا أهمية عند نيكيتا.. على أن هذا الأخير لم يسمع كلمة واحدة مما قال سيده - في الواقع - بسبب عنف صوت الريح.. فما كان من ڤاسيلي إلاّ أن كرّر مزحته بأعلى صوته. فلمّا فهم نيكيتا قصده، أجاب: «كان الله في عونها، يا ڤاسيلي أندريتش!.. إنني لا أتدخَّل في أي شأن من شؤونها.. فقد أتاحت لي بمسلكها سبيلاً إلى لومها. ولكنها ما دامت تحسن معاملة الولد، فلن أقول إلاّ.. كان الله في عونها!».

عند ذاك قال ڤاسيلي محوّلاً مجرى الحديث: «هل أنت مزمع على أن تشتري جواداً في الربيع؟». فأعاد نيكيتا ياقته إلى الخلف قليلاً، ومال ناحية مخدومه، وقد سرّه موضوع الحديث الجديد، فأراد أن يستوعب كل كلمة منه. وأجاب يقول: «إنني لأرجو أن يكون في إمكاني أن أشتريه.. فإن ابني الصغير يكبر سريعاً، ويجب أن يتعلّم الزراعة والفلاحة. إلاّ أنني بدّدت كل مالي». فقال ڤاسيلي: «لو أنك ابتعت جوادي الصغير الخفيض الكفل، فلن أطلب في مقابله ثمناً فادحاً».

وكان ڤاسيلي، وهو يقول ذلك، مغتبطاً، رائق المزاج، وقد عاودته غريزته الغالبة التي تستغرق كل ملكاته.. وهي غريزة المساومة وإبرام الصفقات. فأجابه نيكيتا: «أفضِّل أن تقرضني خمسة عشر روبلاً، وتدعني أذهب وأشتري واحداً من سوق الخيل!».

خطوات واثقة



دون تو ارك، 200 د.إ/ر.س



سوبرجا، 245 د.إ/ر.س



ترافيل، 170 د.إ/ر.س



بالديوم، 295 د.إ/ر.س

أضغط هنا للدخول للموقع

أحذية للنساء   احذية للرجال

مرحبا بك في نمشي، وجهتك الاولى للتسوق عبر الانترنت. يقدم نمشي تشكيلة واسعة من الازياء والاحذية والاكسسوارات من العلامات التجارية العالمية والمحلية بالاضافة الى الماركات الحصرية الغير متوافرة بالاسواق. يمنح نمشي عملاءه تجربة تسوق سهلة وممتعة وذلك من خلال مواكبة آخر صيحات الموضة العالمية وعرض المنتجات من أشهر الماركات العالمية اضافة الى توفير خدمات عملاء من أعلى المستويات. يوفر نمشي خدمة التوصيل المجاني لجميع دول الخليج العربي ولبنان و خدمة استبدال المشتريات مجانا خلال 14 يوما.

نمشي

WWW.NAMSHI.COM

التوصيل مجانا

الدفع نقدا عند الاستلام

استبدال مجاني

تسوق الآن



توصيل مجاني لباب بيتك

تخفيضات كبيرة وعروض مميزة

وسائل دفع متعددة منها الدفع عند الإستلام

أستبدال مجاني خلال 14 يوم

% منتجات أصلية 100

نمشي

@THEBEST4YO

أفضى بذلك إذ كان عالماً، كل العلم، أن الجواد الصغير الخفيض الكفل ـ الذي كان يعنيه ڤاسيلي ـ لم يكن يساوي في السوق أكثر من سبعة روبلات، في حين أن ڤاسيلي لن يبيعه إياه حتى يقسم أنه يساوي على الأقل خمسة وعشرين روبلاً، ثم يحتجز لذلك نصف أجره في عام كامل، حتى يستوفي ثمن الجواد.. ولكن ڤاسيلي استرسل في لهجته المتظرِّفة المنمّقة: «إنه لجواد رائع، وأريد أن أؤدي لك خدمة، وأرعى مصلحتك كما أرعى مصلحة نفسي.. فيشرّفني أن بريخانوڤ لا يمكن أن يغش أحداً، وأنني لأفضِّل الإفلاس على أن أفعل ذلك.. نعم. بشرفي إنه لجواد رائع». فقال نيكيتا وهو يزفر: «إنني لمتأكد من هذا».

*

ولمّا وجد أنه من العبث أن يحاول الإنصات أكثر من ذلك، طوى ياقته مرة أخرى، وغطّى وجهه وأذنيه.. وران السكون بينهما ـ بعد ذلك ـ نصف ساعة كاملة. وراحت الريح تعصف بشدّة، فوضع نيكيتا وجهه بين قفازيه، ولم يسعه إلاّ أن أحنى ظهره، وغطّى فمه بياقة سترته، اتقاء لأذى البرد القارس، الذي كان يصفعه في شدة وعنف.

على أن ڤاسيلي ما لبث أن سأل نيكيتا: «ما رأيك، أنذهب من طريق «كاراميشيڤو» أم نسلك الطريق المباشر؟».. وكان الذهاب من طريق «كاراميشيڤو» هو الأبعد والأكثر وعورة، إلاّ أنه كان عامراً بالعلامات المنصوبة الدالة على الاتجاه. أمّا الطريق المباشر، فمع أنه كان أقصر بكثير من الأول، إلاّ أنه كان خالياً من العلامات، ومن ثم لم يكن مطروقاً أو مستحبّاً من أغلب المسافرين. ولذلك فقد فكر نيكيتا بعض الوقت ثم قال أخيراً: «إن طريق «كاراميشيڤو» أطول، ولكن السير فيه أيسر وأسهل».

قال ڤاسيلي، وقد كان يميل إلى الطريق الأقصر: «ومع ذلك، فلو أننا ذهبنا في الطريق المباشر، فما علينا حينئذ إلاّ أن نبلغ المنحنى، ثم

نمطلق بعد ذلك دون خوف.. ولسوف يكون رائعاً أن نعبر خلال الغابة». فقال نيكيتا: «كما تريد!». ثم طوى ياقته مرة أخرى.

وبناء على ذلك، سار ڤاسيلي في الطريق الذي أراده.. حتى إذا قطع منها نحو أربعة كيلومترات، استدار إلى اليسار، حيث كانت تنتصب سنديانة يافعة العمر سامقة الجذع، تحطمت فروعها وانسحقت أوراقها الذابلة - التي كانت لا تزال عالقة بها - تحت وطأة الريح المجنونة التي راحت في ارتدادها تلطم أوجه المسافرين، وقد بدأ الثلج يتساقط. فما كان من ڤاسيلي إلاّ أن أرخى العنان لجواده، ونفخ أوداجه، ثم ترك الأنفاس تخرج لاهثة من تحت شاربيه.. في حين كان نيكيتا قد أسلم نفسه لسنة من النوم.. وهكذا انطلقت بهما العربة في صمت وسكون. إلاّ أنَّ ڤاسيلي ما لبث - بعد نحو عشر دقائق - أن صاح منزعجاً.. فانتفض نيكيتا فاتحاً عينيه، وهو يهتف قائلاً: «ماذا هناك؟».

ولم يجبه ڤاسيلي، وإنَّما استدار لينظر خلفه، ثم عاد يتطلّع أمامه.. وكان الجواد يخب في سيره والعرق يتفصّد متبخّراً من جانبيه. فعاد نيكيتا يسأل مرة أخرى: «ماذا هناك؟».. فصاح ڤاسيلي في اغتياظ، وهو يقلّد صوت خادمه قائلاً: «ماذا هناك؟.. ليس هناك إلاّ أنني لا أتمكن من رؤية أية علامات الآن. ولا بد أننا ملنا عن الطريق». فقال نيكيتا: «انتظر لحظة إذاً حتى أذهب وأرى»..

وقفز من العربة بخفة، وهو يسحب السوط من تحت كومة القش. وسار أولاً نحو الأمام، ثم اتجه إلى اليسار.. إلاّ أن الثلج كان بعيد الغور، حتى أن رجليه راحتا تغوصان فيه إلى الركبتين.. ومع أنه ظل يتحايل على السير، وهو يتكئ على مؤخر السوط، فقد فشل في أن يجد مواطئ لقدميه.. واختفت معالم الطريق، فما وسعه إلاّ أن استدار راجعاً.. وما إن لمحه ڤاسيلي حتى هتف متسائلاً: «ماذا رأيت؟».. فأجابه قائلاً: «لا طريق في هذا الجانب. فلأحاول الجانب الآخر!».

فقال له ڤاسيلي: «هناك شيء أسود يبدو أمامنا، فاذهب وانظر ما هو!».

وذهب نيكيتا إلى حيث أشار ڤاسيلي.. إلاّ أنه تبيَّن ألاّ شيء هناك سوى رقعة من الأرض السوداء تهتزّ فيها بعض أعواد قمح الشتاء.. فاستدار عائداً نحو العربة مرة أخرى، واعتلى مقعده وهو ينفض الثلج عن ردائه وحذائه.. ثم قال في حزم: «يجب أن نتّجه يميناً، فقد كانت الريح إلى يسارنا منذ لحظة، ولكنّها الآن تهبّ رأساً في وجوهنا».. ثم ختم قوله بلهجة الواثق المصمِّم: «نعم.. يجب أن نتّجه إلى اليمين!».. وقد سمع ڤاسيلي قوله بعناء، ثم لوى رأس الجواد في الاتجاه الذي أشار إليه.. ومع ذلك فقد سارا شوطاً بعيداً، وما من طريق ظهرت أمامهما.. إذ كانت الريح قد طمست كل علامة يمكن السير على هداها، وقد ازداد انهمار الثلج فغطّى الغابة برمّتها..

فجأة صاح نيكيتا: «جيّد.. لقد ضللنا الآن تماماً، يا ڤاسيلي أندريتش!».. إلاّ أنه ما لبث أن صاح مرة أخرى: «ولكن ما هذا؟». وراح يشير إلى شيء بدا مرتفعاً فوق رقعة الثلج، فأوقف ڤاسيلي - في الحال - جواده الذي أصبح الآن ينضح بالعرق، ويحرّك جنبيه البدينين في صعوبة، وقال: «نعم. ما هذا؟». فأجاب نيكيتا: «إنَّ معناه أننا في أملاك زاخاروڤيتش.. وإذاً، فهنا قد وصلنا». ولكن ڤاسيلي قال: «كلاّ، بالتأكيد». فقال نيكيتا في إصرار: «بل هو كما أقول.. ويمكنك أن تدرك هذا من صوت العجلات، فإنها تدرج فوق حقل من حقول البطاطا.. انظر إلى براعم البطاطا النابتة في جذورها!.. أجل، هذه هي مزارع زاخاروڤيتش».

وقال ڤاسيلي: «حسن، فماذا نفعل الآن؟». فأجاب نيكيتا قائلاً: «يجب أن نواصل السير ناحية اليمين، ولسوف نصل بالتأكيد إلى مكان أو إلى آخر. فإذا كنا لم نصادف زاخاروڤيتش، فلن نلبث أن نصل إلى مزرعة أحد المستأجرين».

*

ووافقه ڤاسيلي، فقاد الجواد في الاتجاه الذي أشار إليه.. حتى بلغ بالعربة دغلاً من الأعشاب المنبسطة فوق رقعة خشنة من الأرض التي جمّدها الصقيع.. ثم إذا بالعربة تدرج مرة أخرى فوق حقل من أعواد الحنطة التي تنمو في فصل الشتاء وبواكير فصل الربيع، خلال العشب الذابل وعيدان القش المنتصبة فوق ركام الثلج، وهي ترتجف مذعورة في مهب الريح.. وقد اشتد انهمار الثلج، وبلغ الإرهاق بالجواد مبلغاً شنيعاً، فابيضّ جنباه، وراحت أبخرة العرق تتصاعد من كل بدنه، وهو يلتقط أنفاسه في لهاث متقطّع، ولا يكاد يقوى بعد على نقل قوائمه.. ثم ما لبث فجأة أن تعثّر وكبا، ثم غاص في حفرة أمامه، وحينئذ راح ڤاسيلي يستنهضه.. إلاّ أن نيكيتا قفز في هذه اللحظة صائحاً: «لماذا نقف هكذا؟ هيّا!.. فلنرفعه من كبوته!».

وقفز من العربة، واتّجه نحو الجواد يربته في تشجيع وتحنان، قائلاً: «يا عزيزي، يا حبيبي!».. واستدار إلى العربة، وراح يدفعها محاولاً إخراجها من الحفرة بساعديه.. في هذه الأثناء، تمكّن الجواد من النهوض بنفسه، ثم راح يزحف متقهقراً إلى أن بلغ نهاية الحفرة التي كان من الواضح أنها محفورة بيد إنسان.. وحينئذ سأل ڤاسيلي: «أين نحن الآن؟». فقال نيكيتا: «يجب أن نعرف ذلك.. فلنتقدَّم قليلاً، ولسوف نصل إلى مكان ما..».

وهنا أشار ڤاسيلي إلى شيء أسود يلوح خلال الثلج أمامهما، وقال متسائلاً: «أليست تلك غابة جوڤيا تشكنسكي؟». فأجابه نيكيتا قائلاً: «قد يكون ذلك.. فهيّا بنا ننظر ما هنالك».

وبالفعل، كان ما رآه ڤاسيلي رقعة من الأرض ترفرف خلالها أوراق العنب الذابلة، ما يدل على أن المكان لم يكن غابة موحشة، وإنَّما هو موضع للسكنى. ومع ذلك، فقد تردّد كل منهما في الكلام، إلى أن تمّ التأكُّد من ذلك، إذ لم يكد الاثنان يتقدَّمان عشرين قصبة ـ بعد الحفرة

التي كان الجواد قد تردّى فيها ـ حتى لاحت الحقيقة في وضوح أمام أعينهما، وقد صدق حدس فاسيلي، فلم تكن تلك التي وصلا إليها غابة، وإنما عريش متشابك الفروع من الأعناب التي لا تزال تعلق بها بضع أوراق ذابلة ترتجف على عساليجها، فيرتفع لها حفيف كفحيح الأفاعي تحت وقع الريح التي كانت تعزف خلالها وتنوح. وهنا، رفع الجواد فجأة قائمتيه الأماميتين، ثم جذب مؤخرته في أثرهما، وما لبث بعد ذلك أن استدار نحو اليسار في سهولة واضحة، وراح يخب مرة أخرى في الثلج الذي بلغ ركبه.. وإذاً، فقد كانت تلك هي الطريق من جديد..

صاح نيكيتا قائلاً: «أخيراً.. ها نحن قد بلغناها، ولكن الله وحده يعلم إلى أين نتّجه».

أمّا الجواد، فلم يتردّد، وإنّما انطلق للتوّ في الطريق المغطّى بالثلج، حتى إذا قطع نحو مائة قصبة، ارتفعت ـ أمام الراكبيْن ـ حوائط مخزن غلال غائص في تلال الثلج الذي كان يتراكم على سقفه كقطع السحاب.. فلما اجتازت العربة هذا البناء، ابتدأ الطريق يلتف قليلاً إلى ناحية اتجاه الريح، ثم إذا بشارع قصير يبدو بين بناءين.. ووضح ـ بما لا مجال للشك فيه ـ أنه شارع قرية من القرى.. وفي أقرب فناء من أفنية منازله، ظهر حبل مشدود، يحمل صفّاً طويلاً من الملابس المنشورة، وهي ترتجف وتتطاير في ذعر وحيرة أمام لطمات الريح.. وقد تميز منه، خلال الضوء الخافت، قميصان أحدهما ناصع البياض والآخر أحمر اللون، وسروالان، وغلالة امرأة.. وكان القميص الأبيض يلوح بذراعيه المتدلّيين في استغاثة وجنون.

3

عند مدخل الشارع القصير، كانت الريح في أعنف شدتها والثلج يتساقط على أرضه تساقطاً لا هوادة فيه.. إلاّ أن العربة ما إن دلفت إلى الساحة، التي تتوسط القرية، حتى بدا كل شيء هادئاً ودافئاً وبهيجاً.. وأقبل من أحد الأفنية كلب يعدو وينبح، كما أقبلت ـ من فناء آخر ـ امرأة عجوز، تهرول، وقد لفّت رأسها بمنديل، وراحت تتطلع نحو القادمين. ومن وسط القرية جاء صوت فتيات في أحد المنازل يمرحن ويغنين.. فقال ڤاسيلي: «لا بد أن هذه هي جريشكينو».

والواقع.. كانت تلك هي جريشكينو.. وبذلك اتضح للراكبين أنهما إنما تركا الطريق إلى يمينهما، وسارا نحو ثمانية فراسخ مبتعدين بزاوية عن الاتجاه الصحيح.. وما لبثا أن أبصرا رجلاً مديد القامة، يبرز في عرض الطريق صائحاً: «من أنت يا هذا؟». فلمّا وقعت عيناه على ڤاسيلي، تقدَّم نحو العربة وانحنى مزكماً أنف نيكيتا برائحة الڤودكا، قائلاً لڤاسيلي: «إلى أين يأخذك الله في هذه الساعة يا ڤاسيلي أندريتش؟».. وحينئذ تبيَّن لهذا الأخير أنه أحد أصدقائه، ويدعى «إيزاي»، وكان معروفاً بأنه أسوأ لصوص الخيل في المنطقة كلها. فأجابه ڤاسيلي: «لقد كنا نحاول أن نصل إلى جوڤيا تسكنسكي».

فقال «إيزاي» متعجِّباً: «أي طريق ذاك الذي اتخذتماه إذاً؟».

فغمغم ڤاسيلي وهو يدفع بالجواد قائلاً: «ما جدوى الكلام؟».. وعندئذ نظر «إيزاي» في خبث إلى الجواد، ومرّر يده على كفله قائلاً: «هل ستقضيان الليل هنا؟». فأجابه ڤاسيلي: «كلا، يا صديقي، سنواصل الرحيل في الحال».

قال إيزاي: «أرى أنَّ من الأفضل أن تبقيا الليلة. ولكن من هذا؟..

يا لله! أليس هذا هو نيكيتا ستيڤانتش!». فأجاب نيكيتا: «نعم. ليس غيره.. ولكن، أرجوك أن تخبرنا، أيها الأخ، كيف نتجنَّب أن نضل طريقنا مرة أخرى؟». فأجابه إيزاي قائلاً: «كيف تتجنَّبان أن تضلا طريقكما مرة أخرى؟.. سيرا على طول الطريق، ولا تحيدا إلى اليسار، وإنّما استمرا حتى تصلا إلى قرب قرية عظيمة، فحيدا نحو اليمين».

وقال نيكيتا: «ولكن أين المنحنى بقرب تلك القرية؟.. أهو طريق الصيف أم طريق الشتاء؟».. فأجابه قائلاً: «طريق الشتاء، ولسوف تجدان هنالك سنديانة عتيقة فارعة الطول.. فإذا وصلتما إليها فحيدا عندها».

وفي الحال أدار ڤاسيلي رأس الجواد ليعود به إلى الطريق مرة أخرى.. وبدا أن الثلج قد كفّ عن السقوط، والريح قد خفّت.. ولكنهما لم يكادا يبلغان الخلاء حتى اكتشفا أنَّ العاصفة لم تكن قد خفّت، كما توهّما، وإنما ـ على العكس ـ اشتدّت وازدادت عنفاً وعزيفاً.. ولولا العلامات القائمة على جانبي الطريق لراحا يتخبَّطان في الغابة مرة أخرى..

بل إنَّ هذه العلامات ذاتها لم تلبث أن تعذّر تبيُّنها، إذ بدأت الريح تطمس معالمها.

وقطّب ڤاسيلي جبينه، وهو ينحني إلى الأمام كي يتبيَّن مكان العلامات.. إلاّ أنه ـ مع عجزه عن ذلك ـ أطلق العنان لجواده أكثر من ذي قبل، واثقاً من حدسه.. وانطلق الجواد مائلاً ناحية اليسار أو ناحية اليمين حسب انعطافات الطريق، وهو يتحسَّسها بحوافره، ولا يخطئها.. ملتزماً العلامات التي بقيت واضحة على الرغم من عنف الريح وتساقط الثلوج.. وظل منطلقاً على هذا النحو، إلى أن حدث بعد حوالى عشر دقائق أن لاح فجأة أمامه شيء أسود يضطرب في دوّامة هائلة من الثلج الذي تدفعه الريح.. وسرعان ما ظهر هذا الشيء معترضاً طريق الجواد، وقد ارتطمت به قائمتاه الأماميّتان، فإذا هو

عربة تحمل جماعة من المسافرين، وقد ندّت عنهم صيحات مختلطة تصرخ في صخب: «خذ حذرك يا هذا! انظر أمامك!».. وسارع ڤاسيلي فحاد بالجواد عن طريق العربة، وحينئذ تبيَّن أنَّ بها ثلاثة فلاحين من «الموجيك»، وامرأة عجوز، وكان واضحاً أنهم ضيوف عائدون بعد أن قضوا أيام العيد في إحدى القرى.. فلمّا حاذاهم ڤاسيلي بعربته، سألهم بصوت عال: «من أي بلد أنتم؟». ولكنه لم يستطع تمييز إجابتهم.. بيد أنه سمع أحدهم يصيح إلى زميل له كان يهوي بالغصن على الجواد قائلاً له: «اعترض طريقهما!». ومرة أخرى، صاح ڤاسيلي: «أظنكم عائدين بعد قضاء فترة العيد؟». ولكنه لم يسمع إلاّ واحداً منهم يصرخ في زميله: «إنهما يسبقاننا!.. اعترضهما يا سيمكا!».

وهكذا راحت العربتان تتسابقان.. تبطئان، ثم تسرعان.. وتتوقفان، ثم تنطلقان، حتى بدأت عربة الفلاحين أخيراً تهن وتتداعى، وبدأ جوادهم الضامر الصغير ينوء بحمله، وهو يحاول عبثاً أن يروغ من ضربات الغصن الذي كان يهوي على جنبيه، فراح يتخبّط في تلال الثلج التي كانت تغوص فيها قوائمه، وأنفاسه تنطلق لاهثة من فتحتي أنفه المنتفختين، وأذناه منتصبتان، مشدودتان إلى الخلف من فرط الإرهاق والهلع.. فصاح نيكيتا قائلاً: «إنهم لسكارى، وهذا ما تفعله الخمر بالناس!».

وسرعان ما وهنت قوة الجواد المُتعب، وضاقت خطواته فتخلّف بعربته.. وظل تهدُّج أنفاسه يتردّد بضع دقائق، كما أخذت صيحات الفلاحين تخفت وهي تغيب شيئاً فشيئاً، حتى طواها صوت العاصفة أخيراً.. ولم يعد يمكن سماع نأمة سوى عزيف الريح، وصرير العجلات وهي تقرقع فوق أرض الطريق.

والواقع أنَّ هذا السباق المرتجل مع العربة الأخرى أبهج ڤاسيلي

وأنعشه، حتى لقد قاد الجواد ممتلئ النفس بثقة لم تكن له في يوم من الأيام.. وترك الأمر كله لفطنة الجواد الأريب، دون أن يهتم بمراقبة علامات الطريق. أمّا نيكيتا، فقد أسلم نفسه ـ كعادته ـ لإغفاءة.. إلاّ أنَّ الجواد ما لبث أن توقّف وقفة عنيفة مفاجئة، حتى كاد أن يلقي نيكيتا من مقعده فوق العربة.. وحينئذ صاح ڤاسيلي قائلاً: «لقد أخطأنا الطريق مرة أخرى». فقال نيكيتا منتفضاً مذعوراً: «وكيف عرفت ذلك؟». وكان جواب ڤاسيلي: «لم تعد ثمة علامات تُرى!».

قال نيكيتا في إيجاز: «حسن، ما دمنا قد فقدناها، فلأبحث عنها مرة أخرى!».. ثم نزل من العربة، وراح يشق طريقه بين الثلوج، وهو يقفز قفزاً على عقبي قدميه..وظل يفعل ذلك وقتاً طويلاً، فكان يختفي حيناً، ثم يظهر حيناً آخر.. وأخيراً ارتد في يأس، واعتلى مقعده على العربة وقال: «ليس هنالك من طريق.. لنتقدّم بالعربة فلا بدّ أنه أمامنا».. وكان الظلام قد اشتد، فقال ڤاسيلي متأوِّهاً: «ليت في استطاعتنا أن نسمع أولئك الفلاحين!». فقال نيكيتا: «لن يلحقوا بنا، فقد تخلَّفوا عنّا مسافة طويلة».. وصمت هنيهة ثم أضاف قائلاً: «لعلهم ضاعوا مثلنا!».

وقال ڤاسيلي متسائلاً: «ولكن.. في أي طريق نحن؟».. فأجابه نيكيتا في لهجة الناصح: «اترك الأمر للجواد، فلعله يسلك الطريق الصحيح!».. ثم مدّ يده قائلاً: «ناولني العنان». ولكن ڤاسيلي لم يناوله أياه.. ربما لأنَّ يديه ـ على الأقل ـ كانتا نصف متجمِّدتين في قفازيهما. فأخذ نيكيتا العنان، ولكنه تركه مرسلاً في أصابعه، غير محاول أن يشد عليه، وقد أطربه ـ في الواقع ـ أن يختبر ذكاء جواده العزيز.. وقد كان على حق، فإن الحيوان الفطِن ما لبث أن نصب أذنيه ناحية اليمين، ثم نصبهما ناحية اليسار، وإذا به يستدير ويعود أدراجه.

صاح نيكيتا في زهو وظفر قائلاً: «إنه ليعرف جيّداً ما ينبغي عليه أن يفعل!.. فانطلق يا صديقي! انطلق ونحن معك!».. وأصبحت الريح في ظهريهما مرة أخرى، وقد بدا لهما الجو أكثر دفئاً.. واستمر نيكيتا في زهوه بالجواد، قال: «انظر ماذا يفعل بأذنيه، ومنخريه!.. إنه يستطيع أن يشم بهما رائحة الطريق على بعد فرسخ!». وفعلاً، لم ينقض نصف الساعة، حتى بدأ يلوح أمامهما، على البعد، شيء أسود كالغابة أو القرية.. كما بدأت علامات الطريق تظهر عن يمينهما. فتساءل نيكيتا فجأة: «أليست تلك هي جريشكينو مرة أخرى؟».

كانت حقّاً هي جريشكينو كما حدس، وقد بدا عن يسارهم المخزن والثلج المتراكم على سطحه، وعلى مسافة منه بدا مرة أخرى حبل الملابس المحمَّل بالقمصان والسراويل.. وكانت لا تزال ترفرف وترتجف أمام لطمات الريح!.. وللمرة الثانية، راحا يدلفان إلى شارع القرية، وقد أخذ كل شيء يبدو لهما في داخلها هادئاً ودافئاً وبهيجاً، وبدأت آذانهما تلتقط أصوات المرح والغناء المنبعثة من المنازل، وراح الكلب ينبح كما فعل في المرة الأولى.. وإذ كان ظلام الليل قد اشتد عن ذي قبل، فقد أصبحت الأنوار أكثر تألُّقاً في إحدى النوافذ.. وأدار ڤاسيلي رأس الجواد ناحية كوخ كبير ذي طابقين سقفه من القرميد، وأوقف العربة عند عتبته.. واقترب نيكيتا من النافذة المُضاءة، المجلَّلة بالثلج المتألق في وهج النور، ودق لوح الزجاج بمؤخر سوطه، فصاح صوت من الداخل، قائلاً: «مَن هناك؟».

أجاب نيكيتا قائلاً: «إنه السيد بريخانوڤ، من كريستي، أيها الأخ.. أرجوك أن تسمح لنا بالدخول».. وسمعا حركة شخص يبتعد عن النافذة، ثم ـ بعد نحو دقيقتين ـ صوت الباب الداخلي وهو يُفتح،

وصرير مزلاج الباب الخارجي. وما إن انفرج قليلاً حتى ظهر فلاح عجوز، فارع الطول، ذو لحية بيضاء، أمسك بالباب نصف مغلق خلفه ـ كي يمنع الريح من أن تتسرّب إلى داخل الكوخ ـ وقد ألقى على كتفيه معطفاً من الفراء، فوق جلباب أبيض ممّا يُلبس داخل البيت.. وخلفه شاب يافع في قميص أحمر وحذاءين طويلين..

لم يكد الفلاح العجوز يراهما حتى بادر قائلاً: «كيف حالك يا أندريتش؟». فأجابه ڤاسيلي: «لقد ضللنا الطريق يا صديقي.. كنّا نحاول الذهاب إلى جوڤياتشكنسكي، فوصلت بنا العربة إلى هنا.. ثم واصلنا المسير، ولكنّا ضللنا الطريق مرة أخرى». فقال العجوز: «ولكن، كيف حدث أن سرتما في اتجاه خاطئ؟».. ثم وجّه كلامه إلى الشاب ذي القميص الأحمر، قائلاً: «اذهب يا پيتروتشكا وافتح باب الفناء».

وحين انطلق الشاب في مرح ليفتح باب الفناء، صاح ڤاسيلي قائلاً: «كلاّ. كلاّ. لن نقضي الليل هنا». فأجابه العجوز متسائلاً: «ولكن أين يمكنكما أن تذهبا الآن!؟.. لقد خيَّم الظلام، ومن الأفضل لكما البقاء». فقال ڤاسيلي في لهجة المتعجِّل: «كان يسرُّني كل السرور أن أفعل ذلك، ولكني لا أستطيع، فأنت تعرف أن العمل لا ينتظر».

وقال العجوز: «لا أقلَّ إذاً من أن تدخلا فتستدفئا ببعض الشاي». فأجابه ڤاسيلي قائلاً: «نعم، ربما نفعل ذلك.. فإنَّ الليل لن يغدو ـ على أي حال ـ أشدَّ ظلاماً ممّا هو عليه الآن، ولسوف يطلع القمر بعد قليل.. هل ندخل وندفئ أنفسنا بعض الشيء يا نيكيتا؟». فقال نيكيتا وقد كان يرتجف من البرد: «نعم!».

ودخل ڤاسيلي إلى الكوخ في صحبة الرجل العجوز، في حين دفع نيكيتا العربة إلى داخل الفناء، بعد أن فتح پيتروتشكا له الباب. ثم

ساق الجواد وأوقفه تحت مظلة هناك، فما إن دلف به حتى ارتفع صياح ديك ونقنقة دجاجات كانت جاثمة في أحد الأركان، وقد راحت ترفرف بأجنحتها، وتصيح وتقفز هنا وهناك ضاربة الداخلين بمخالبها، واندفعت بعض الأغنام في فزع وهي تسحق بحوافرها الروث المغطى بالثلج، وراح كلب يهرّ ويزمجر في غضب. ثم لم يلبث أن انطلق ينبح في وجه القادمين المتطفّلين.. فالتفت نيكيتا حوله يتأمل هذه الثورة التي أثارها قدومه، وقال كلمة لكل من هؤلاء الثائرين يهدّئ بها خواطرهم.. ثم التفت أخيراً إلى الكلب، وهو يقول ملوِّحاً بيديه: «ها قد انتهينا الآن، فاسكت يا مجنون!.. اسكت ولا تزعج نفسك هكذا بغير موجب.. لسنا لصوصاً!».

قال پيتروتشكا وهو يدفع العربة تحت المظلة بيديه القويّتين: «إنهم مستشارونا الثلاثة اليقظون؟».. فقال نيكيتا متسائلاً: «مستشاروكم الثلاثة؟». فأجابه پيتروتشكا وهو يبتسم: «نعم، فإنك تجده مكتوباً في كتاب «پولسون»(*). «حينما يتسلّل لص إلى المنزل.. الكلب ينبح قائلاً بلغته الخاصّة: اصحوا!.. والديك يصيح قائلاً: قوموا!.. أمّا الهرّة فإنها تروح تنظّف وجهها، كأنما تقول: ثمة ضيف مُقبل، فلنستعد للقائه!».

وقد كان پيتروتشكا ذا نزعة أدبية، وكان يحفظ عن ظهر قلبه الكتاب الوحيد الذي يمتلكه، وهو أحد مؤلفات «پولسون».. فقال: «هذا حقّ صراح». وقال پيتروتشكا: «ولكني أراك متجمِّداً من البرد.. فتعال الآن إلى الداخل كي تصيب بعض الشاي».. ثم عبرا الفناء، وولجا إلى داخل الكوخ.

(*) جون أولاف پولسون (١٨٥١ - ١٩٢٤): كاتب وأديب نرويجي شهير. من مؤلفاته «المحتالون» و«عائلة المفتاح».

4

كانت العائلة، التي أوى ڤاسيلي وخادمه نيكيتا إلى منزلها، من أغنى عائلات القرية.. إذ كانت تمتلك ما لا يقل عن خمسة فدادين من الأرض، وتستأجر قدراً آخر يدرّ عليها ريعاً سخيّاً. وكانت حظائرها تشتمل على خمسة خيول، وخمسة ثيران، وثلاث أبقار، وقطيع من عشرين رأس غنم.. وكان المنزل يضم بين جدرانه اثنين وعشرين نفساً.. أربعة أبناء متزوّجون، وستة أحفاد - كان أحدهم وهو پيتروتشكا متزوّجاً - واثنان من أبناء الأحفاد، وثلاث يتامى، وأربع من زوجات الأبناء مع أطفالهن.. فضلاً عن ولدين كانا يعملان في موسكو، وثالث كان في الجيش.. إلاّ أنه لم يكن بالمنزل - في تلك الساعة - غير العجوز وزوجته، والابن الثاني والد الأولاد المتزوجين، وأكبر الولدين اللذين كانا يعملان في موسكو - وقد جاء في العيد - والزوجات والأولاد العديدين وأحد الجيران الثرثارين.

تلك كانت إحدى العائلات النادرة الشاذّة، التي ظلت تعيش متجمّعة في بيت واحد، برغم ما كان ناشباً بين نسائها من أسباب النزاع والشقاق العميق الجذور، الذي لا يفتأ ينشب عادة بين كل النساء، والذي كان من شأنه أن يؤدي في آخر الأمر إلى تدمير العائلة وتحطيم كيانها.

كان ثمة مصباح، ذو غطاء زجاجي، يعلو الخوان الذي يتوسّط ردهة الكوخ، ويلقي ضوءاً ساطعاً على آنية خزفية مصطفّة فوقه، وزجاجة ڤودكا تحيط بها ألوان شتى من الطعام. وفي أحد الأركان كانت ثمة أيقونات مزينة بالرسوم على جانبيها.. وفي مكان الشرف من المائدة جلس ڤاسيلي - وقد خلع معطفه وبدا في سترته السوداء

الداخلية ـ وراح يعبث بشاربيه، وهو يدير بصره في أنحاء الكوخ، ويتفرّس في الجالسين حوله بعينين ثاقبتين برّاقتين كعيني الصقر.. وفي المقعد التالي له، جلس العجوز الأصلع ذو اللحية البيضاء وهو رأس العائلة.. وكان يلبس قميصاً أبيض اللون مصنوعاً باليد في المنزل. وجلس بعده الابن الذي جاء من موسكو بمناسبة العيد، وكان معتدل القامة، عريض المنكبين، يلبس قميصاً أبيض يشبه قميص أبيه، ولكنه من نسيج أجمل وأجود.. وإلى جانبه جلس أخوه الذي يصغره. وكان ـ هو الآخر ـ عريض المنكبين.. وكان أكبر المقيمين بالمنزل من الأبناء.. وتلاه الجار الثرثار.. وهو فلاح نحيف البنية أحمر الشعر.

كان القوم يتناولون العشاء ويشربون الڤودكا، وقد أوشكوا على أن يشربوا الشاي حين وصل القادمان. وكان الإبريق (السماور) موضوعاً فعلاً على النار، والماء يغلي فيه.. وبعض الأطفال يحيطون بالموقد، أو يجلسون على بعض الأرائك في أطراف الردهة، في حين كانت المرأة العجوز واقفة خلف المقعد الذي يجلس عليه ڤاسيلي، وقد ملأت التجاعيد وجهها حتى الشفتين.. فلمّا دخل نيكيتا إلى داخل الكوخ، كانت تتأهب لأن تقدم إلى ضيفها بعض الڤودكا في قدح من الزجاج السميك، وهي تقول له: «لا ينبغي لك أن ترفضه يا ڤاسيلي أندريتش.. فإنك لفي أشد الحاجة حقّاً إلى شيء ينعشك أيها السيد العزيز!».

وأهاجت رائحة الڤودكا نيكيتا وهزّته هزّاً عنيفاً، خصوصاً أنه كان شديد الإحساس بالبرد والجوع.. وإذ كان ينفض الثلج العالق بثوبه توقّف لحظة أمام الأيقونات وعيناه تستطلعان الجالسين، ثم ركع ورسم علامة الصليب ثلاث مرات.. وعاد بعد ذلك إلى مضيفه فحيّاه، ثم حيّا الجالسين حول المائدة، والمرأة الواقفة بجانب الموقد.. وراح ينزع عنه معطفه، دون أن ينظر إلى المائدة، فنفضه،

وعلّقه فوق المشجب القريب.

واقترب ـ أخيراً ـ من المائدة، فلمّا قدموا له الڤودكا كاد أن يتناول الزجاجة ويرفعها إلى فمه، لولا أن وقعت عيناه ـ في تلك اللحظة ـ على ڤاسيلي، فعادت به الذاكرة في الحال إلى نعليه المرهونين، كما تذكر ابنه الذي وعده بأن يشتري له جواداً في الربيع.. وهكذا انتهى به الأمر إلى أن نحّى عنه الزجاجة وهو يتنهَّد، وقطّب حاجبيه قائلاً: «إنني لا أشربها.. أشكرك شكراً جزيلاً. ثم ألقى بنفسه على مقعد بقرب النافذة. فقال الأخ الأكبر متسائلاً: «ولكن لماذا؟». فأجاب نيكيتا دون أن يرفع عينيه: «لأنني لا أشربها.. لا أشربها!».

وهنا قالت العجوز العطوف: «لا بأس، هات إبريق الشاي إذاً.. سأُحضر لك بعض الشاي، لأنك لا بد متجمّد من البرد.. لماذا تأخّرتن في إعداد الإبريق يا نسائي الطيِّبات؟». فأجابت إحداهن وهي تمسح بقطعة من القماش إبريق الشاي المغطّى قائلة: «لقد انتهينا من إعداده!».. ثم رفعته ببعض الجهد، ووضعته على المائدة.. وكان ڤاسيلي ـ في ذلك الوقت ـ يقصّ على مضيفه كيف ضلَّ وخادمه طريقهما وهاما على وجهيهما في الغابة، وكيف تقابلا مع الفلاحين السكارى، وكيف عادا إلى القرية مرتين.. فقالت العجوز في لهجة اقتناع: «ولكن، أليس من المستحسن أن تقضيا الليلة هنا؟.. سوف تعد النسوة لكما الفراش». فقال زوجها: «نعم، ينبغي أن تبيتا هنا هذه الليلة!».

وبادره ڤاسيلي قائلاً: «كلاّ، كلاّ.. قطعاً لا أستطيع ذلك يا صديقي الفاضل، فالعمل هو العمل.. وتأخير ساعة معناه ضياع سنة كاملة». ثم راح يقص قصة مخزن الخشب، والمنافسين القادمين من المدينة الذين قد يسبقونه إلى الفوز بالصفقة.. والتفت إلى نيكيتا قائلاً: «هل نذهب الآن؟». ولم يجب نيكيتا، وإنما بدا منهمكاً بعض الوقت في

نفض الثلج عن لحيته وشاربيه. ثم غمغم أخيراً في عبوس: «سوف يكون من الفظيع أن نضل الطريق مرة أخرى.. أليس كذلك؟»".

وكان سرّ عبوسه في الواقع أنه كان شديد اللهفة إلى احتساء الڤودكا، وكان الشيء الوحيد الذي خفّف عنه فرط لهفته هو ارتقاب الشاي الذي لم يكونوا قدّموه إليه بعد.. إلاّ أن ڤاسيلي أجابه في إصرار: «ولكن، لا بد لنا أن نصل إلى غايتنا.. ولا يمكن أن نضلّ الطريق بعد ذلك.. فما علينا إلاّ أن نسلك طريق الغابة رأساً إلى مقصدنا!».

قال نيكيتا وهو يتناول كوب الشاي الذي يُقدَّم إليه في تلك اللحظة: «حسن، فأنت الذي تقرِّر يا ڤاسيلي أندريتش.. إن كان لا بد لنا من الذهاب، فلنذهب.. هذا كل ما في الأمر!». فقال ڤاسيلي: «اشرب الشاي إذاً، ولنسرع!».

*

لم ينبس نيكيتا بكلمة أخرى، وإن هو هزَّ رأسه في استياء واستنكار. ثم صبَّ الشاي بعناية في القدح، وبدأ يدفئ - في البخار المتصاعد - أنامله المتورِّمة من البرد القارس. وقال وهو يقضم بأسنانه قطعة من السكر، وينحني لمضيفه: «أتمنى لكم الصحة جميعاً!».. ثم صبَّ الشراب اللذيذ في جوفه. وهنا قال ڤاسيلي متأوِّهاً: «ليتنا نجد من يقودنا إلى منحنى الطريق!».. فقال الأخ الأكبر: «هذا يمكن تدبيره، ففي إمكان پيتروتشكا أن يسرج جواداً ويذهب معكما إلى أبعد من ذلك».

فقال ڤاسيلي للتوّ: «أسرجه إذاً أيها الأخ، ولك أفضل شكري». فأجابته العجوز المضيافة: «ولك أنت يا سيدي الفاضل.. فقد سررنا كل السرور برؤيتكما».

وتناول پيتروتشكا قبعته وهرول خارجاً.. وبينما كان يعدّ جواده

وجواد الضيف، استأنف أصحاب الدار حديثهم الذي كانوا فيه قبل مجيء ڤاسيلي ومرافقه، وقد بدا أن الرجل العجوز كان يشكو إلى جاره ـ الذي كان هو الآخر رب عائلة ـ من تصرُّف ابنه الثالث، إذ لم يرسل إليه هدية العيد في هذا العام، بينما أهدى زوجته شالاً فرنسياً.. وراح الشيخ الشاكي يقول في مرارة: «إنَّ شباب هذه الأيام قد خرجوا عن الولاء لوالديهم». فأجابه الجار: «هذا صحيح.. ولم تعد لنا حياة معهم، فإنهم ليزدادون وقاحة.. انظر إلى ديموتشكين الذي كسر ذراع أبيه في ذلك اليوم؟!.. لم تعد لنا حياة معهم».

وظل نيكيتا منصتاً، وهو ينقل عينيه من واحد إلى آخر، وقد تملّكته رغبة جارفة في أن يساهم في الحديث.. إلاّ أنه كان منهمكاً كل الانهماك في احتساء الشاي، فلم تعد لديه فرصة للكلام، واكتفى بأن كان يهز رأسه في موافقة واستحسان بين لحظة وأخرى.. وسرى الدفء في جسده واعتدل مزاجه، بينما استمر الحديث طويلاً حول هذا الموضوع، وما يستتبعه من شر التسبُّب فيما يصيب الأُسر من التفكّك والانقسام، وقد بلغ من اهتمام الحاضرين بالموضوع، وتشبّثهم به، أنه كان من العسير صرفهم عنه، فراح الحديث يتشعّب بهم، ويتطرق إلى ما ظهر في سماء هذه الأسرة ذاتها من خصام بات يهدّد العائلة كلها بالتصدُّع، بسبب السلوك الذي نحا إليه الابن الثاني لرب الأسرة، وهو الذي كان جالساً في هذه اللحظة بين الحاضرين، وقد غرق في كآبة وصمت.. وكان من الواضح أن موضوع الخلاف جوهري جدّاً، وأنَّ الأدب وحده هو الذي منع العائلة حتى الآن من الخوض فيه أمام الغرباء.. إلاّ أن الشيخ لم يستطع أن يمسك طويلاً عن البوح به، فانفجر ـ آخر الأمر ـ والدمع في عينيه، قائلاً إنه طالما ظل على قيد الحياة، فلن يسمح أبداً بوقوع الفرقة أو الانفصال بين أفراد عائلته، وإنه سيحفظ وحدة بيته إلى آخر

رمق فيه من أجل مجد الخالق.. لأنه إذا سمح لأحد أبناء هذا البيت بالانفصال عن الأسرة فسيتبعثر كله وينفرط عقده.

وقال الجار موافقاً على قوله: «نعم. هذا ما حدث لبيت ماتثيف.. فقد كان يوماً ما بيتاً عامراً، ولكنه تشتّت وتفرّق.. وما من واحد من أبنائه أصاب شيئاً إلاّ بدّده، فانهار البيت من أساسه». فالتفت الشيخ إلى ابنه وقال له: «هذا ما أظنك تريده بنا؟».. ولم يحر الابن جواباً. وسكت الجميع سكوتاً مطبقاً، إلى أن ارتفع بعد قليل صوت پيتروتشكا، وقد فرغ من إسراج الجواد، وعاد يقول باسماً: «هذا يذكّرني بحكاية قرأتها في كتاب پولسون، عن أب أعطى ولده حزمة حطب ليكسرها مجتمعة فعجز... حتى إذا فرّقها وأعطاه واحدة منها، كسرها كلها فرعاً بعد آخر،.. وهكذا الحال في موضوعنا»..

وسكت پيتروتشكا قليلاً، ثم نهض وأردف: «ولكنني على تمام الاستعداد للرحيل الآن!». فقال ڤاسيلي: «ما دمت مستعدّاً، فهيّا بنا.. أمّا عن الانفصال الذي يشغل بالك أيُّها الجد الطيب فلا تدعه يقلقك كثيراً.. إنك أنت الذي أقمت هذا البيت، فينبغي إذاً أن تكون أنت صاحب الأمر والنهي فيه.. فإذا وجدت الأمر يستلزم عرضه على القاضي، فاعرضه عليه، ولسوف يحكم لك بما يريحك ويرضيك!». فهتف الشيخ في حزن عميم: «ولكن أن يتصرّفوا هكذا؟!.. نعم، لا حياة لنا معهم.. فإنها لمن أعمال الشيطان كلها!».

وأمّا نيكيتا، فكان قد احتسى قدحه الخامس من الشاي، وتطلع منتظراً قدحاً سادساً، إلاّ أن الشاي كان قد نضب في الإبريق، ولذلك فإن ربة البيت لم تمد يدها إليه بما يريد.. في حين كان ڤاسيلي قد ارتدى معطفه الفاخر المصنوع من الفراء.. وإذ رأى نيكيتا أنه لا بد ـ والأمر كذلك ـ من الرحيل، وقف وأعاد ما تبقى من السكر في

الوعاء، ومرّ بطرف ردائه على وجهه ـ الذي بدأ العرق يتفصّد منه ـ وراح يرتدي سترته.. وزفر زفرة عميقة، ثم تقدّم بالشكر إلى مضيفيه، واستدار مغادراً الغرفة، الدافئة المضيئة الممتلئة بالأنفاس، إلى البرد القارس والظلام الدامس.. واجتاز عتبة الغرفة إلى الفناء الغارق في العتمة، حيث كان پيتروتشكا ينتظره، وقد تلفّع بدثار سميك من فراء الشاة، ووقف بجانب جواده يتغنى باسماً بمقطوعة من أشعار پولسون، يقول في مطلعها:

«العاصفة الهوجاء تحجب وجه السماء..
«والريح القاصفة تقذف بالثلج المتساقط..
«وهي كوحش ضارٍ تصرخ حيناً..
«وكطفل ـ حيناً آخر ـ تنشج وتنتحب»..

وأومأ نيكيتا برأسه مستحسناً، وهو يرفع العنان، بينما أقبل العجوز إلى مدخل الدار، ممسكاً بيده مصباحاً يحاول أن ينير به لڤاسيلي طريقه إلى العربة، إلاّ أن ضوء المصباح راح يلهث متقطّع الأنفاس من فرط ما كان يناله من لطمات الريح.. فقد بدا واضحاً أن العاصفة كانت ـ حتى في داخل الفناء ـ أسوأ ممّا كانت في أي وقت من الأوقات!.. وحينئذ قال ڤاسيلي في نفسه: «لعلنا لن نصل أبداً.. وعلى أية حال، هناك عمل ينبغي لي أن أفكر فيه.. فلا بد من الذهاب».. بينما كان العجوز يقول في نفسه إن من الأفضل للضيفين ألاّ يذهبا. ولكنه كان قد بذل جهده ـ فعلاً ـ ليثنيهما عن عزمهما، ويقنعهما بالعدول عن مواصلة رحلتهما.. ومن ثم فلا فائدة من الإلحاح.. أمّا پيتروتشكا، فلم يكن يخطر بباله مطلقاً أي خطر، إذ كان يعرف الطريق وكل أرجاء المنطقة المجاورة تمام المعرفة، كما أنه كان يألف الزوابع والأعاصير والثلوج.. وأمّا نيكيتا، فلم تكن لديه أي رغبة في مواصلة الرحلة. إلاّ أنه كان قد اعتاد منذ زمن طويل ألاّ يكون له الخيار في أمر، وأن يقنع بطاعة الآخرين وخدمتهم.

5

اجتاز ڤاسيلي عتبة الباب، واتخذ طريقه في العتمة حتى بلغ العربة، فركبها وهو يقبض على عنان الجواد.

وانطلق الثلاثة من فناء الدار إلى شارع القرية، واجتازوا أطرافها، مندفعين في الطريق ذاته الذي كان ڤاسيلي ونيكيتا قد سلكاه من قبل.. ومروا ـ بعد ذلك ـ بعرائش الكرمة، التي تنبعث من أعماقها همهمة غامضة وهسيس غريب.. وهنالك غاصوا ـ مرة أخرى ـ في بحر من الجليد الذي كان ينهمر فوقهم ومن تحتهم.. وكانت الريح تهب في عنف، حتى لقد كانت تميل بالعربة على جنبها، وتدفع بالجواد فينطلق في خطوات أوسع من خطواته المعتادة.. وبينذاك، كان پيتروتشكا يطلق صيحات الفروسية والحث على الإسراع والاندفاع، وهو يقود فرسه القوية في مقدمة الركب، بينما يتبعها الجواد ويكاد أن يلتصق بها.

وبعد عشر دقائق من السير تقريباً، لوى پيتروتشكا عنان فرسه حائداً بها قليلاً إلى الخلف، وهو يصيح لمرافقيه ببعض كلمات.. إلاّ أنّ ڤاسيلي ونيكيتا لم يستطيعا أن يسمعا ما قال، وإن هما حدسا أنه يريد أن يخبرهما بأنهم وصلوا إلى منحنى الطريق، فقد رأياه ينعطف هناك إلى اليمين.. وأصبحت الريح ـ التي كانت تلطمهم من الجنب ـ تسفعهم في وجوههم، في حين أن ثمة شيئاً قاتماً أصبح في إمكانهم أن يروه بين الثلوج عن يمينهم، وكان ذلك هو العلامة التي تدل على نقطة المنحنى.

وصاح پيتروتشكا: «امضيا في أمان الله!». فأجابه ڤاسيلي: «نشكرك.. نشكرك يا پيتروتشكا».. وصاح الشاب مرة أخرى: «إنَّ

العاصفة التي تجتاح سطح الأرض تحجب السماء».

قال عبارته ثم اختفى.. ومضت بهما العربة في طريقها.

ولكي لا يبدّد نيكيتا الدفء الذي اكتسبه من أقداح الشاي التي احتساها في الدار، دثَّر نفسه بردائه ولفّه لفاً محكماً حول جسمه، وحدب كتفيه حتى غطت لحيته القصيرة ما كان مكشوفاً من مقدّم رقبته، وجلس في صمت مطبق، مصوِّباً عينيه إلى الأمام عبر الطريق المغطّى بالضباب.. وكانت علامات الطريق لا تفتأ تلوح بين فينة وأخرى، فكان إمكان رؤيتها دليلاً على أنهما لا يزالان في الاتجاه الصحيح.. فأرخى ڤاسيلي عنان الجواد، تاركاً إياه يقود نفسه.. إلاّ أنَّ «براوني» - رغم الاستراحة الطويلة في القرية - راح يخب على كره منه.. حتى أن ڤاسيلي كان كثيراً ما يقسره قسراً على أن يواصل السير في طريقه، وهو يعد علامات الطريق قائلاً: «ها هي ذي علامة عن يميننا.. وهذه ثانية.. وهذه ثالثة.. وها هي ذي الغابة في مواجهتنا!».

وهكذا راح يحدِّث نفسه، وهو يتفرَّس في شيء ما كان يبدو داكناً أمام عينيه.. إلاّ أنَّ ما تراءى له على البعد غابة مترامية الأطراف، ما لبث أن اتّضح أنه مجرّد دغل صغير.. فلمّا تجاوزاه بخمسين ياردة أخرى، حدّق ڤاسيلي منعماً النظر، فأخذه العجب، وصدمته المفاجأة، إذ لم تعد ثمة غابة، ولا علامة من علامات الطريق يمكنه أن يراها.. على أن ڤاسيلي ما لبث أن قال في نفسه، وهو منتعش الإحساس بما احتسى من الشاي والڤودكا: «لا بأس.. فلسوف نبلغ الغابة عمّا قليل!».

وراح يهز عنان الجواد مرة أخرى، والجواد الطيّع لا يجد مناصاً عن أن يمتثل لمشيئة سيّده، فيمضي إلى حيث ساقه متهادياً مرة ومنطلقاً مرة أخرى، وهو يعلم كل العلم أنه كان يسير في الاتجاه

الخاطئ.. وهكذا مضت عشر دقائق أخرى، دون أن تبدو الغابة أمام العربة.. وأخيراً قال ڤاسيلي: «لقد ضللنا الطريق مرة أخرى!».

*

وهبط نيكيتا من العربة في صمت مطبق، وثنى أطراف سترته التي كانت تلتصق بجسمه حيناً، وتتطاير في الهواء حيناً آخر.. وراح يتخبّط ضارباً بقدميه فوق الثلوج.. وما لبث أن عاد آخر الأمر، وتناول العنان من ڤاسيلي، وقال في لهجة جازمة، وهو يميل بالجواد إلى ناحية اليمين: «يجب أن نتجه يميناً».. فأجابه ڤاسيلي: «حسن جدّاً.. إذا لم يكن بد من أن نتجه يميناً، فلنتجه يميناً!».. ثم شبك يديه المخدَّرتين ـ من البرد ـ فوق كمي سترته.

على أنَّ الجواد لم يتقدّم خطوة واحدة، برغم كل ما بذله نيكيتا وهو يحثه ويجذب عنانه.. بينما كان الثلج يتراكم بغزارة، والعربة تتحرك في لجته وهي ترتج وتترنح مع كل دفعة من دفعات الجواد.. وما لبث نيكيتا أن أهوى بالسوط على ظهر الجواد الطيِّع، الذي لم يكن قد تعود الضرب، فقفز إلى الأمام، وراح يخب في بحر الثلوج لحظة.. ثم عاد فتخاذل، وراح يترنّح في سيره نحو خمس دقائق أخرى.. وكان الظلام قد اشتد، والثلج ماض في سقوطه حتى لم يعد في وسع الراكبين أن يريا رسن الجواد، وكانت العربة آنذاك تتأرجح بهما، ثم ما لبثت أن توقّفت وجمدت. وأجفل الجواد فجأة، إذ إنه اشتم رائحة شيء أمامه.. فألقى نيكيتا العنان، وقفز في خفة من العربة كي يقترب من رأس الجواد ويتبيَّن ما دهاه. ولكنَّه لم يكد يخطو خطوة واحدة حتى انزلقت قدمه وسقط في هوة فتحت فاهها أمامه، وراح يتدحرج في منحدرها وهو يصرخ ويحاول عبثاً أن يتوقّف في اندفاعه، حتى غاصت قدماه في لجة ثلجية عميقة عند القاع.. وانهارت فوق رأسه أكوام الثلج المتراكمة على جنبات الهوة، والتي

حاول التشبث بها في أثناء سقوطه، وقد غطّاه ركامها حتى قفاه.

وراح نيكيتا يحاول دفع الثلج عن ياقة سترته وهو يقول متأفِّفاً: «ما هذا؟ ما هذا؟».. بينما انطلق ڤاسيلي يناديه: «نيكيتا.. نيكيتا!».. إلاّ أن هذا الأخير لم يحر جواباً، إذ كان واضعاً كل همّه في أن يخلص نفسه من ركام الثلج المنهار عليه، وهو يبحث ـ في الوقت ذاته ـ عن السوط الذي سقط منه وهو يتدحرج في المنحدر. فلمّا وجده، آخر الأمر، بدأ يحاول أن يتسلق جدار الهوة، ولكنه تبيَّن ـ بعد الجهد ـ أن الأمر مستحيل، وأنه كلّما كرّر محاولته كلما كان ينحدر إلى أعمق ممّا كان. وأخيراً اضطر إلى أن يبحث ـ في القاع السحيق ـ عن منفذ يخرج منه.. وبعد طول العناء، وجد على بعد بضع ياردات، من البقعة التي سقط فيها، مكاناً استطاع أن يتسلق عنده، زاحفاً على أطرافه الأربعة، نحو الاتجاه الذي قدّر أن يكون الجواد واقفاً فيه.. ومع أنه لم يكن يرى شيئاً، فقد استطاع أن يسمع صيحات ڤاسيلي، وصهيل «براوني» الذي راح يحتفي بعودته.. فأجابهما صائحاً: «ها أنذا مقبل!.. ها أنذا مقبل!.. لماذا تثيران الضجيج من أجل ذلك؟».

وراح يقترب منهما.. إلاّ أنه لم يتمكن من رؤية الجواد إلاّ بعد أن صار ملاصقاً له. وكان ڤاسيلي واقفاً بجانبه في الظلام وقد تجمَّد من البرد، فبادره قائلاً في غضب: «كيف، بحق الشيطان، تسعى هكذا إلى حتفك بظلفك؟.. هيا بنا نعود، أو ـ على الأقل ـ نحاول أن نرجع إلى جريشكينو». فأجاب نيكيتا قائلاً: «لسوف أكون سعيداً جدّاً بهذا، ولكن في أي طريق نذهب؟.. لو أننا سقطنا في هذا المنحدر ـ الذي سقطت فيه ـ فلن نخرج منه إلى الأبد.. وقد تحققت بنفسي من ذلك الآن!».. فقال ڤاسيلي: «ولكنَّنا لا نستطيع أن نبقى هنا.. ويجب أن نذهب إلى أي مكان!».

لم يقل نيكيتا كلمة، وإنما جلس على حافة العربة وخلع حذاءه،

ونفض الثلج الذي انحشر فيه وتراكم عليه.. وبينذاك، سكت ڤاسيلي، وقد قرّر أن يترك الأمر كله لنيكيتا. فلمّا انتهى هذا من لبس حذائه مرة أخرى، دسَّ قدميه في العربة، وارتدى قفازيه، وأمسك عنان الجواد، وأدار عنقه في محاذاة الخندق في حذر.. على أنَّ الجواد أجفل ـ مرة أخرى ـ ولمّا يقطع أكثر من مائة ياردة، إذ اعترضهم خندق آخر.. ونزل نيكيتا من العربة ثانية، وراح يتحسّس بين الثلوج. وغاب بعض الوقت، ثم برز ـ أخيراً ـ في الاتجاه المضاد للعربة، وصاح قائلاً: «هل أنت هناك يا أندريتش؟.. لا طريق في هذه الناحية.. والظلام حالك.. وثمة خنادق كثيرة تحيط بنا.. فعلينا أن نحاول العودة ضد اتجاه الريح».

إلاّ أنهما ما إن سارا في هذا الاتجاه بعض الوقت حتى توقّفا مرة أخرى. ونزل نيكيتا يتحسّس الطريق فوق الثلوج، ثم عاد فركب العربة.. وعاود النزول منها.. وهكذا حتى تقطّعت أنفاسه ـ في النهاية ـ من فرط العناء. فسأله ڤاسيلي قائلاً: «ماذا حدث؟».فأجاب: «لا شيء.. إلاّ أن التعب أنهكني.. كما أنهك الجواد». فقال ڤاسيلي: «وما العمل إذاً؟».

وغاب، وعاد ـ بعد لحظة ـ وصاح قائلاً، وهو يسير أمام الجواد: «اتبعني!».. فتبعه ڤاسيلي، الذي كان قد كفّ عن إصدار الأوامر، وراح يذعن لتوجيهات نيكيتا في تواضع جمّ.. وصاح هذا مرة أخرى قائلاً: «في هذا الاتجاه.. سر خلفي!». ثم استدار استدارة تامة نحو اليمين، ممسكاً «براوني» من رأسه، وجاذباً إياه نحو كومة الثلج.. وأجفل الجواد ـ في أول الأمر ـ ثم اندفع إلى الأمام محاولاً القفز فوق الكومة.. إلاّ أنه، إذ أخفق في محاولته، غاص في الثلج حتى طوقه.. فصاح نيكيتا بڤاسيلي أن يساعده، وراح يبذل كل قوته في مساعدة الجواد على سحب العربة من الثلج.

*

وبذل الجواد مجهوداً كبيراً، ولكنه فشل ـ آخر الأمر ـ في تخليص نفسه.. ومن ثم توقّف متخاذلاً، معبّراً عن حنقه واستيائه من الموقف كله. ولكن نيكيتا راح يدفعه من ناحية، وڤاسيلي يدفعه من الناحية الأخرى.. وظل الجواد يهزّ رأسه لحظة، ثم ما لبث أن نهض فجأة، واندفع إلى الأمام في محاولة أخرى.. وحينئذ صاح نيكيتا مشجّعاً إياه، قائلاً له: «مرحى!.. ها أنت ذا لا تريد أن تدفن هذه المرة. هيّا!.. ابذل جهدك!».. ودفع الجواد نفسه مرة ثانية، ثم ثالثة.. حتى أزال كومة الثلج من حوله.. ثم انتصب بعد ذلك ينفض نفسه، ويهز جسمه كله وهو يتنفّس تنفُّساً عنيفاً.. بينما راح نيكيتا يدفع العربة قليلاً إلى الأمام. أمّا ڤاسيلي فقد كان التعب قد نال منه تحت وطأة رداءيه الثقيلين، فما كان منه إلاّ أن توقّف عن أي عمل، وجلس في العربة مرة أخرى، وهو يغمغم قائلاً: «فلأسترح قليلاً». وراح آنذاك يحلّ عقدة المنديل الذي كان قد ربطه حول عنقه قبل أن يغادر العربة. فقال له نيكيتا: «استرح.. فليست بنا حاجة إلى الاستعجال.. ولسوف أقود أنا الجواد!».

وتقدّم بالعربة نحو عشر ياردات، عبر منحدر اعترضها، ثم ارتفع بها في مستوى الطريق مرة أخرى.. وهناك ما لبث أن توقّف.. ولم يكن توقّفه ـ هذه المرة ـ في المنحدر ذاته، حيث كان الثلج يتجمع منحدراً من الربى ويتراكم حتى ليوشك أن يغمرهما إلى رأسيهما ويدفنهما في لجته.. بل إنّ توقفه جاء ـ مصادفة ـ في الجانب المحمي من الريح من الخندق، فبدا أن شدة الريح قد خفت بعض الشيء.. إلاّ أن ذلك لم يستمر طويلاً، فما لبثت العاصفة أن انطلقت من عقالها وازداد عنفها عشرة أضعاف، وراح الإعصار يزمجر ويحوّم حولهما، مرسلاً زئيراً أكثر رهبة وأشد هولاً من أي وقت مضى.. وقد لطمت إحدى هبات الريح المجنونة جانب العربة، بينما كان ڤاسيلي

يغادرها ليقترب من نيكيتا ويتشاور معه فيما يفعلانه بعد ذلك.. وحينئذ بسط «براوني» أذنيه في يأس وهزّ رأسه في إعياء واستياء. فلما انكسرت حدة العاصفة بعض الشيء بادر نيكيتا فخلع قفازيه، ثم فرك يديه وراح يفك عنان الجواد من السرج..

وسأله ڤاسيلي: «لماذا تفعل ذلك؟».. فأجاب قائلاً: «لأن ليس ثمة شيء آخر يمكننا عمله.. إنني متعب جدّاً الآن». فقال ڤاسيلي: «ألسنا مزمعين إذاً على أن نحاول التقدّم أي مسافة أخرى؟». وأجابه نيكيتا: «كلاّ. لأننا لم نفعل سوى أن أرهقنا الجواد في غير جدوى.. إن «براوني» على استعداد لمواصلة الرحيل، ولكنه لم يعد يستطيع أن يقف على قوائمه.. فليس من حل آخر إلاّ أن نقضي الليل هنا!».

قال عبارته، وكأنما كان يقترح أن يبيتا ليلتهما هذه في فندق، ثم راح يحل حزام الجواد.. فصاح ڤاسيلي قائلاً: «ولكننا سنموت من البرد القارس هنا..»، فقال نيكيتا: «حسن!.. وماذا لو حدث ذلك؟.. إننا لن نستطيع أن نتفادى حدوثه!».

6

بدا ڤاسيلي في غاية الدفء، في رداءيه الثقيلين، ولا سيما بعد الذي بذله من المجهود في دفع الجواد لإخراجه من كومة الثلج التي كان قد غاص فيها.. ومع ذلك، فقد أحسَّ بأنفاس الصقيع تلسع ظهره، حين أدرك أن عليهما أن يقضيا الليل في ذلك المكان. ولكي يهدِّئ من روعه جلس في العربة، وأخرج عود ثقابه وعلبة لفائفه، بينما فك نيكيتا عنان الجواد، ورفع سرجه، وهو يحدِّثه في مرح قائلاً له: «دعني أخرجك من أحزمتك وأربطتك ها هنا.. ولسوف أُعطيك بعض التبن لتنعم بوجبتك!».. ولكن «براوني» لم يبد شعوراً بكثير من الارتياح ممّا فعله نيكيتا، بل ظل متبرِّماً، وقد وقف وذيله يتطاير في اتجاه الريح، وراح - في كل لحظة - يبدل قوائمه، ويلقي بثقل جسمه على العربة، ثم يحك رأسه في كم نيكيتا.. وكأنما لم يكن يريد أن يبدو فظّاً في التعبير عن شعوره نحو ما أبداه نيكيتا من عطف عليه، فدسَّ خطمه في حفنة التبن التي ألقاها أمامه.. إلاّ أنه ما لبث أن عاد إلى إبداء تبرُّمه، وأشاح بوجهه عن التبن، وتركه للريح تحمله في لحظة، وتعصف به في دوامتها.

وعندئذ قال نيكيتا: «ماذا لو رفعنا إشارة استغاثة!».. ثم أدار العربة قليلاً باتجاه الريح، وربط خيمتها بحزام الجواد، ورفعه إلى الأعلى، مسنداً إياه إلى اللوحة الأمامية للعربة.. ثم استطرد قائلاً: «الآن، إذا مرّ أي إنسان في هذا الطريق فسوف يعرف مكاننا إذ يرى الخيمة، فيأتي وينبش عنا، ويخرجنا.. لقد تعلَّمت هذه الحيلة من العجائز!».. ثم ضرب أحد قفازيه بالآخر ولبسهما.

وفي الوقت ذاته فك ڤاسيلي أزرار سترته الفرو، وجعل من

أطرافها ستاراً في وجه الريح، وراح - خلف هذا الستار - يحاول إشعال عود في إثر عود من الثقاب ليشعل لفافته، إلاّ أن يديه كانتا ترتعدان ارتعاداً شديداً من البرد.. وبعد عناء شديد، اشتعل آخر الأمر عود منها، وظلَّ مشتعلاً لحظة وجيزة، بدا في أثنائها على ضوئه رداؤه المصنوع من الفرو، ويده يتلألأ في سبابتها الخاتم الذهبي، والقش المغطّى بالثلج يبرز من تحت الغرارة.. وقد نجح هذه المرة في إشعال اللفافة وأخذ منها نفسين في نهم، وابتلع الدخان، ثم نفخه مرة أخرى خلال شعرات شاربيه.. وكان على وشك أن يأخذ نفساً ثالثاً حين أطاحت الريح بالطرف المشتعل من اللفافة وألقت به في القش!

على أن هذا القدر اليسير من الدخان ترك فيه أثراً منعشاً، فقال في شجاعة: «إذا كان يتحتّم علينا أن نقضي الليلة هنا، فلا بأس، فلنفعل ذلك. هذا كل ما في الأمر». ثم وجّه كلامه إلى نيكيتا قائلاً: «انتظر قليلاً، فلسوف أرفع راية!». والتقط المنديل الذي كان قد حلّه من حول رقبته، وخلع قفازيه، ثم ارتقى اللوحة الأمامية للعربة، وبسط نفسه على أطراف أصابع قدميه ليدرك حزام الجواد المربوط في عريشها، وعقد طرفي المنديل عند نهايتيه.. وفي الحال بدأ المنديل يخفق بشدة ويصفق في مهب الريح.

ونزل ڤاسيلي وهو يختال زهواً بما فعله، ويتبجّح قائلاً: «أليس هذا ذكاء مني؟».. ثم التفت إلى نيكيتا قائلاً له: «والآن، لو أمكننا أن ننام معاً، فلسوف يكون ذلك أفضل طريقة لاكتساب الدفء.. ولكنني أخشى ألاّ يكون ثمة مكان لنا معاً!».. فأجابه نيكيتا: «لا بأس في ذلك، فسأجد مكاناً لنفسي.. إلاّ أنني يجب أن أغطّي الجواد أولاً، لأنه يتصبَّب عرقاً وقد نال منه الجهد.. انتظر قليلاً!».. وولج العربة، فجذب الغرارة من تحت ڤاسيلي وطواها، ثم أزاح السرج عن ظهر

الجواد، وغطّاه بالغرارة، وهو يقول له: «سوف تكون بذلك أكثر دفئاً أيها الغر الصغير».. ثم اتّجه إلى ڤاسيلي قائلاً له: «سآخذ المئزر إذا كنت لا تحتاج إليه الليلة.. وهات بعض القش أيضاً!».

وحين أخذ ما أراد، ذهب خلف العربة، وحفر حفرة غطاها بالقش، ثم جذب قلنسوته فوق عينيه، ولفّ سترته لفاً مُحكماً حول جسمه، ثم تلفَّع بالمئزر فوق كل ملابسه، واستلقى مقرفص القدمين فوق القش، وأسند ظهره إلى مؤخر العربة محتمياً به من الريح والثلج.

وهزَّ ڤاسيلي رأسه في استياء من تصرُّفات نيكيتا، ثم راح يعدُّ عدَّته لقضاء الليل. فعمد - أول كل شيء - إلى تسوية ما تبقى من القش في العربة، جاعلاً إياه أكثر كثافة وسمكاً حيث كان يزمع أن يريح فخذه.. ثم نزع قفازيه، ونام جاعلاً رأسه في أحد أركان العربة، قرب اللوحة الأمامية لها حتى تحميه من سفع الريح.

*

بيد أنه مع ذلك لم يشعر بالنعاس، ولم يأنس من نفسه أية قابلية للنوم. فانطلق يفكّر.. اتّجه تفكيره - أول ما اتّجه - إلى الشيء الوحيد الذي يستحوذ على كل طموحه وزهوه، ومثله الأعلى، وغرضه الأوحد، وسعادته في الحياة.. وهو جمع المال!.. فراح يستعرض الوسائل التي أمكن لبعض من يعرفهم من الأغنياء أن يجمعوا بها أموالهم، والمشاريع التي كانوا يستغلون فيها هذه الأموال.. ثم انتقل إلى التفكير في الأساليب التي يمكنه هو أن يحذو فيها حذوهم، فيجمع قدراً من المال فوق ما جمع.. وبدا له أن شراء غابة «جوڤيا تشكنسكي» يعتبر أمراً ذا أهمية عظمى، إذ داعبه الأمل في أن صفقة كهذه قد تدر عليه عشرة آلاف روبل.. وقد راح يحصي - بعملية حسابية أجراها داخل عقله - قيمة الأخشاب التي رآها في الخريف.. وعلى أساس الخمسة فدادين التي كان قد عاينها، راح يحسب قيمة

المساحة كلها.. واستطاع ـ بعد طول حساب ـ أن يقدّر قيمة الغابة كلها بحوالى اثني عشر ألفاً من الروبلات.. إلاّ أنه عجز عن أن يصل بالذاكرة وحدها إلى رقم دقيق.. فاسترسل يقول لنفسه: «لا بأس.. فإنني لن أقدِّرها بأكثر من عشرة آلاف ـ بل ثمانية آلاف ـ وهذا على أي حال سيكون محلاً للمساومة بالنسبة إلى مثل هذه المساحات غير المحدودة.. ولسوف أدسّ في يد المسّاح مائة روبل، أو ربما مائة وخمسين.. وفي مقابل هذا يبخس المقياس عشرة أفدنة على الأقل. نعم. إنَّ المالك سوف يكون سعيداً بأن يبيع الغابة بثمانية آلاف روبل.. ومعي ثلاثة آلاف منها».

وهنا تحسَّس للتوّ حافظة نقوده داخل صداره، ثم عاد يقول في نفسه: «ولكن أين مالك الغابة؟.. لا بد أن يكون لها مالك أو على الأقل حارس.. ولا بد أن يكون مقيماً في جهة ما من هذه المنطقة.. ولا بد أن كلبه قد سمعنا.. تبّاً لهذه الحيوانات اللعينة، التي لا تنبح حينما يُراد منها أن تفعل ذلك!».. وأزاح ياقة سترته عن أذنه وراح ينصت.. ولكنه لم يسمع سوى أزيز الريح، وخفق المنديل فوق العريش، ووقع الثلج وهو يصفع جوانب العربة.. فغطى أذنه مرة أخرى، واسترسل في تفكيره ساخطاً لما أصابهما.. ثم حدّث نفسه مواسياً: «ألسنا سنبقى هنا إلى صباح غد؟.. لا بأس.. معنى هذا أننا أضعنا يوماً واحداً فقط. وفضلاً عن ذلك، فإن أولئك المنافسين لي في الصفقة لن يصلوا أيضاً.. لن يأتوا في مثل هذا الجو العاصف!».

وهنا تذكَّر ڤاسيلي فجأة أنَّ الجزّار سيسدّد له في التاسع من الشهر مبلغاً من المال هو ثمن الكباش التي سبق أن اشتراها منه.. فقال في نفسه: «يجب أن أعود لأقبض هذا المبلغ، إذ لا ينبغي أن يغلبني في الثمن، في حين أن زوجتي لا تعرف كيف تساوم.. والحقيقة أنها لا تعرف كيف تتكلّم مع أي شخص!».. وتذكّر ارتباكها وهي تحادث المأمور حين زارهم ـ في اليوم السابق ـ بمناسبة العيد، فاسترسل في

تفكيره قائلاً: «إنها امرأة.. هذا كل ما في الأمر بالنسبة إليها. وفوق ذلك، فماذا رأت هي قبل أن أتزوَّجها؟.. لقد كان أبوها مزارعاً بسيطاً. وكان كل ما يمتلكه قطعة أرض صغيرة.. أما أنا، فأي شيء لم أنله في خمسة عشر عاماً؟.. لقد ملكت حانوتاً، وفندقين، ومطبخاً، ومخزن غلال، ومزرعتين مستأجرتين، وداراً ذات سقف من الصاج، ومتجراً في مبنى الدار ذاته».. وانتفخت أوداجه تيهاً وزهواً، وهو يقول لنفسه: «إن البون شاسع بيني وبين أبيها.. وفي الواقع، من هو أهم رجل في الإقليم كله؟.. إنه ڤاسيلي أندريتش بريخانوف، من دون شك!».

ثم إنه تساءل قائلاً: «لماذا؟».. وأجاب نفسه قائلاً: «لأنني أحصر كل همي في العمل، وأبذل فيه كل جهدي.. فلست من أولئك الذين ينامون في أسِرَّتهم، ويبدّدون الوقت في العبث.. كلاّ، فأنا لا أنام الليل كله.. وإذا كان هنالك ضرورة للخروج، فإنني برغم كل الظروف أخرج، وأنجز عملي.. إنهم يعتبرونني مجنوناً ويسخرون من انكبابي على جمع المال.. ولكن لا بأس».. وأهاب بنفسه في حماسة: «ڤاسيلي، استمر في عملك بكل جهدك، ولو أدى ذلك إلى إصابة رأسك بالصداع.. ولو وجدت من الضروري أن تقضي ليلتك في العراء كما تقضي هذه الليلة، فهذا أفضل من أن تهدر الوقت.. ولا يهم حتى إذا كنت تعجز عن النوم!».

وهنا قال في زهو: «إنَّ مجرد التفكير على هذا النحو دليل على العبقرية في حدّ ذاتها».. واستطرد قائلاً: «إنَّ بعض الناس يعتقدون أنَّ الثروة تأتي للإنسان بطريق الحظ.. هراء، فليس ثمة إلاّ «ميرونوف» واحد في المليون.. وإنَّما عليك أن تعمل باجتهاد، وسيعطيك الله الباقي بعد ذلك.. وإذا لم يهبك إلاّ الصحة والعافية، فهذا حسبك!».

وأثار حماسته مجرّد خطور هذه الفكرة في باله ـ أنه قد يغدو يوماً ما

مليونيراً مثل ميرونوف ـ حتى أنه ودّ لو أن ثمة شخصاً يبادله الحديث في هذه اللحظة.. غير أنه لم يكن ثمة أحد.. وأثار انتباهه عنف هبوب الريح وهي تلطم لوحة العربة الأمامية، وتصفع عريشها بما تحمله من ركام الثلج، فهتف قائلاً: «يا للسماء، ما أشد هبوبها!.. إنها لتجرف معها كتل الجليد بكمية هائلة، حتى ليوشك أن يغمرنا ويغطينا، ولسوف نعجز عن أن نخرج أبداً من طوفانه عند الصباح!».

*

ولم يكن باستطاعته أن يرى شيئاً ـ في الدوامة المحمَّلة بالثلج الأبيض المتراكم ـ إلاّ رأس «براوني» وذيله الأسودين، والغرارة (الجوالق) التي كانت تغطّي ظهره.. وكانت الريح ترفع أطراف الغرارة إلى أعلى ـ من آن إلى آخر ـ بينما تحوم الكتلة البيضاء حول العربة من كل جهاتها، فكانت تبدو ـ في لحظة خاطفة ـ ثم لا تلبث أن تختفي في غمرة الظلام.

واسترسل ڤاسيلي في التفكير قائلاً لنفسه: «لقد كنت غبيّاً إذ استمعت إلى نيكيتا.. كان ينبغي علينا أن نواصل السير مرة أخرى، حتى نتمكّن من قضاء ليلتنا في مكان ما.. كان يجب أن نعود إلى جريشكينو مرة أخرى، وأن نستقر في مكان مسقوف.. ومع ذلك، فها نحن هنا، وعلينا أن نظل ملتصقين بهذا المكان حتى الصباح؟.. ما الخير في هذا؟ إنَّ الله يعطي المجتهدين، ولكنه لا يعطي العابثين ولا الكسالى القاعدين، ولا الحمقى.. والآن، لأدخن ثانية!».

وضبط جلسته، وأخرج لفافة، واستدار ليحمي شعلة عود الثقاب من الريح بطرف ثوبه.. ومع ذلك، فقد وجدت الريح منفذاً وراحت تطفئ أعواد الثقاب تباعاً. وأخيراً، بذل كل جهده كي يبقى واحداً منها مشتعلاً، وقد أفلح في أن يشعل منه لفافته، ففرح بذلك جدّاً، وواصل التدخين.. ومع أنَّ الريح استنفدت قدراً كبيراً من الدخان، فقد اجتهد في أن يفوز بثلاثة أنفاس، ابتهج بها كل الابتهاج، فاتخذ

وضعاً مريحاً في جلسته، وأحكم ثيابه حول جسمه، وانطلق مرة أخرى يفكّر ويستعرض الأمور، إلى أن شعر فجأة - ودون تمهيد أو إنذار - بأنه فقد وعيه، وراح في غيبوبة تامة.

بعد لحظات، أحس كأنَّ شيئاً صدمه فجأة، فتنبَّه وأفاق من غيبوبته.. لعلّه «براوني» يجذب القش من تحته.. أو قد يكون ذلك شيئاً ما حدث في داخله.. المهم أنه أفاق، وكان قلبه يخفق خفقاناً عنيفاً، وفي سرعة هائلة، حتى أنه أحسَّ أن العربة ذاتها تهتزّ من تحته. ففتح عينيه.. وبدا له المنظر من حوله كما كان عليه من قبل، فيما عدا أنه برز أكثر وضوحاً، وأوفر ضوءاً، فقال في نفسه: «لا بد أنه الفجر.. وبعد قليل سوف يطلع الصباح».. ولكنه فطن إلى أن ازدياد الضوء قد لا يعني إلاّ طلوع القمر، فنهض مرة أخرى، ونظر إلى الجواد.. وكان في هذه اللحظة واقفاً ومؤخرته في مهب الريح، وجسمه كله ينتفض من البرد، وقد تراكم الثلج على ظهره، وأفلت حزام ذيله متدلّياً نحو خاصرته.. أمّا نيكيتا فكان لا يزال نائماً في الوضع ذاته الذي كان قد غطى به رأسه.. وقال ڤاسيلي في نفسه، وهو يشرف عليه من العربة: «إنَّ الفلاح لا يؤثر فيه الثلج أبداً، بالرغم من رثاثة ملابسه!».

وفكّر لحظة في أن ينزع الغرارة عن ظهر الجواد ويغطي بها نيكيتا، إلاّ أنَّ الجو كان شديد البرد، حتى لقد أحس بأنه عاجز عن أن يفعل ذلك، فضلاً عن أنه خشي أن يموت الجواد من البرد لو نزع عنه غطاءه.. وحينئذ قال في نفسه حانقاً: «لماذا، بالله، أخذت نيكيتا معي؟ لقد كان ذلك من جراء حماقتها..» وكان يعني بذلك زوجته. ثم عاد إلى وضعه الأول محتمياً بلوحة العربة الأمامية.. واسترسل في تفكيره قائلاً لنفسه: «لقد قضى عمّي ليلة كهذه تحت وابل الثلج، ومع ذلك لم يصبه أي سوء!».. إلاّ أنه ما لبث أن خطر بباله خاطر آخر فهمهم قائلاً: «وكذلك سيباستيان، أخرجوه من الثلج، ولكنه

كان قد مات، إذ تجمَّد حتى غدا كالجيفة من فرط البرد!».. وهنا ندَّت عنه آهة مكبوتة وقال في ندم مؤلم: «ماذا لو كنّا بقينا في جريشكينو!».

ثم إنه أحكم لفّ ردائه حول جسمه، بحيث لم يدع مجالاً لأقل قدر من الدفء يذهب هدراً.. وأغمض عينيه محاولاً أن يستغرق في النوم مرة ثانية.. إلاّ أنه ـ بالرغم ممّا بذل من جهد في هذا السبيل ـ أخفق في اجتلاب النعاس إلى عينيه.. وألحّت عليه اليقظة أكثر من ذي قبل، فراح ـ مرة أخرى ـ يُجري في عقله إحصاءات وحسابات، متعلقة بالعمل، ويحصر ديونه التي لم يسدّدها بعد.. ومرة أخرى راح يثني على نفسه، ويزجي إلى نفسه التهنئة على ما نال من مكانة ملحوظة بين الناس.. ومع ذلك، فقد كان هذا التفكير ذاته مشوباً بنوع من الخوف الدفين والأسف البالغ على أنه لم يقض الليلة في جريشكينو.

وراح يتقلّب من جنب إلى جنب، عساه يستشعر الراحة في نومته، أو يجد وضعاً أفضل من سواه وأقل تعرُّضاً لهبوب الريح، إلاّ أنه عبثاً كان يحاول.. وأخيراً نهض مرة أخرى، وغيَّر الوضع كله، وأحكم لفَّ قدميه، وأغمض عينيه، وحاول أن ينام نوماً مريحاً، ولكنَّ قدميه ـ اللتين كانتا مضغوطتين في نعليه الطويلين ـ بدأتا تؤلمانه، في حين كانت الريح تتسرّب إلى بعض أنحاء جسمه، فتؤذيه أذًى بالغاً. فما لبث أن قفزت إلى ذهنه مرة أخرى ـ وقد تملّكه الضيق والغيظ ـ فكرة أنه كان من الممكن، في هذه اللحظة، أن يكون نائماً في فراش دافئ في جريشكينو.. فنهض وأعاد إحكام ردائه حول جسمه، ثم استلقى في وضع آخر بدا له أكثر ملاءمة.. وبعد لحظة خُيِّل إليه أنه يسمع صوت ديكة تصيح من بعيد، فأزاح ياقة سترته في اختلاجة فرح، وراح يرهف السمع. وبالرغم من كل ما بذل من الجهد في الإنصات لم يستطع أن يسمع إلاّ أزيز الريح خلال عريش العربة، وصوت

اصطفاق المنديل، ووقع الثلج على جوانب العربة..

أمّا نيكيتا، فقد ظلَّ مقرفص القدمين - في الوضع ذاته الذي نام عليه في أول الليل - فلم تصدر عنه حركة واحدة، بالرغم من أنَّ ڤاسيلي ناداه أكثر من مرة.. فانفعل في حنق، وقال في نفسه: «يبدو أنه لا يشعر بأي تعب في نومته».

*

الخلاصة أنَّ ڤاسيلي نهض ثم نام عشرين مرة، على الأقل. وقد خُيِّل إليه أن الليل سرمدي لن ينتهي أبداً.. وفي إحدى المرات قال في نفسه: «لا بد أنَّنا اقتربنا من الصباح الآن!.. فلو أنني تأكدت من أننا نقترب من الصباح لكان هذا أدعى إلى أن تبدو الأمور أفضل، ولسوف نستعد عندئذ لإسراج الجواد كي نواصل رحلتنا».. ولكنه - في أعماق نفسه - كان يدرك أنه لا يمكن أن يكون الصباح قد اقترب بعد.. وكان جزعه يزداد عنفاً، وأعصابه تشتد توتّراً، حتى لقد راح يخادع نفسه ويصدق أن الفجر على وشك الانبلاج.. وأخيراً انتهى به الأمر إلى أن فك أزرار ثوبه الفرو في حذر، ودسَّ يده في داخله، وراح يتحسَّس بأصابعه حتى وصلت إلى جيب صداره. وبكثير من الجهد أمكنه أن يخرج ساعته الفضيّة المنقوش عليها باقة أزهار.. ثم حاول أن ينظر فيها، ولكنّه عجز عن أن يرى أي شيء دون أن يستعين بقبس من النور، فاستلقى مرة أخرى على مرفقيه كما فعل حين أراد التدخين، ثم أخرج علبة الثقاب وراح يحاول إشعال عود منها.. وإذ كان قد تدرَّب في المرات السابقة على هذا الأمر، فقد أشعل عود الثقاب قريباً من ميناء الساعة، وعلى ضوئه نظر فيها، وكاد ألاّ يصدِّق عينيه!.. لقد كانت الساعة الواحدة وعشر دقائق! وإذاً فقد كان الليل بطوله أمامه!

وشعر كأنَّ الصقيع قد تسرَّب إلى ظهره، فقال وهو يئنُّ من شدّة الألم: «آه من ذلك الليل الطويل الذي ليس له آخر!». ثم تكوّر في

ركن العربة وهو يزرّر رداءه ويعيد حبكه حول جسمه، وراح ينتظر بكل ما لديه من صبر وجلد.

فجأة، خلال عزيف الريح التي كانت تولول وتنوح في نغمة رتيبة، سمع صوتاً جديداً يصدر عن كائن حيّ، وقد راح يعلو ثم يعلو حتى بلغ حده الأقصى، ثم بدأ يخفت رويداً رويداً حتى انقطع واختفى.. ولم يكن ثمة شك في حقيقة هذا الكائن الذي يصدر عنه الصوت.. كان ذئباً، ولا بد أنَّه كان قد ابتعد جدّاً حتى تلاشى صوت عوائه بين طيّات الريح.. وأزاح ڤاسيلي ياقة سترته عن أذنه وراح يرهف السمع.. وكان «براوني» - في الوقت ذاته - يفعل مثله، وقد نصب أذنيه إلى أقصى مداهما، فلمّا انقطع العواء، بدّل قوائمه، ونخر في توجّس وقلق.. أمّا ڤاسيلي فقد وجد أنَّ النوم أصبح بعد هذا أكثر استحالة من أي وقت مضى، وعبثاً حاول أن يهدّئ أعصابه لحظة واحدة.. وكلما حاول أن يعود إلى التفكير في أعماله وحساباته وشهرته وعبقريته وماله وثروته، كلما ازدادت سيطرة الرعب عليه.. وبدأ يحس بالرعدة تسري في أنحاء بدنه، وإن لم يعلم - على وجه التحقيق - أكان ذلك من البرد، أم من شدة الخوف.. وقد حاول أن يغطي نفسه وينام كما كان يفعل من قبل، ولكنه وجد الأمر مستحيلاً. ولم يستطع أن يبقى ساكناً ولو للحظة واحدة، وإنَّما شعر على العكس بأنه يجب أن ينهض وأن يفعل أي شيء كي يبدِّد الخوف الذي كان مسيطراً عليه، وكان يشعر بأنه لم تعد له قوة إزاءه، وقد انهارت مقاومته تحت وطأته، فأخرج علبة لفائفه وعلبة عيدان الثقاب مرة أخرى، إلاّ أنه لم يكن قد بقي من عيدان الثقاب إلاّ ثلاثة، وكان الثلاثة من نوع رديء.. ومن ثم فإنها لم تشتعل.. فانفجر يشتم ويلعن، وهو يلقي علبة عيدان الثقاب بعيداً، وأوشكت علبة اللفائق أن تلحق بها، لولا أنه كبح يده، وأدخل العلبة في جيبه. ودفعت به نوبة الضجر والتململ هذه إلى أن ينهض من مكانه وينزل من العربة،

ثم يقف مولياً ظهره للريح، وهو يشد حزامه حول خصره.. ثم بدا كأنما طرأت على ذهنه فكرة جديدة مفاجئة، فهتف قائلاً: «لماذا بالله ننام ها هنا منتظرين الموت حتى يأتي إلينا؟.. لماذا لا أركب الجواد وأنطلق به؟»).

وخطر نيكيتا بباله، فأجفل قليلاً، ثم عاد يقول: «وماذا لو مات؟.. ماذا يمكن أن تكون قيمة حياته بالنسبة إليه؟.. إنه لن يخسر كثيراً لو أنه فقدها.. أمّا أنا فإنَّ أمامي الشيء الكثير الذي أكسبه لو أنني احتفظت بحياتي».

وعلى ذلك حلّ رباط الجواد وألقى الرسن فوق رقبته، وحاول أن يمتطيه، إلاّ أنَّ رداءه الفرو وحذاءيه أثقلته فاعتلى العربة، وحاول أن يمتطي الجواد من فوقها، ولكن العربة ظلت تتأرجح تحت ثقله، ففشل مرة أخرى. وأخيراً ـ وللمرة الثالثة ـ جرَّ الجواد، وأوقفه بجانب العربة، واعتلى حافتها في حذر، ثم ألقى بنفسه على الجواد، فإذا هو ممدّد على ظهره بالعرض، ووجهه إلى أسفل، فراح يدير جسمه إلى الأمام حتى أصبحت ساقه فوق الجواد. وبعد عدة محاولات، أمكنه أن يجلس على ظهره، وقد استقرَّ مقدم حذاءيه في ركاب السرج.. غير أنَّ اهتزاز العربة ـ حين تأرجحت تحت ثقل ڤاسيلي ـ أيقظ نيكيتا، فنهض من رقدته. وبدا لڤاسيلي أنه يقول شيئاً، فصاح به قائلاً: «اسمع أيها الأحمق.. لقد كنت أنت السبب في وقوعنا في هذه الورطة، دون داع ولا سبب!».

ثم طوى الأطراف المتدلّية من سترته تحت ركبتيه، وأدار عنان الجواد وابتعد به عن العربة في الاتجاه الذي حدس أن يكون به مسكن مالك الغابة أو حارسها.

7

لم تكن صدرت عن نيكيتا إلى هذه اللحظة حركة واحدة منذ استلقى مقرفص القدمين خلف العربة وغطى نفسه بالمئزر.. فإنه ـ ككل الذين يعيشون على صلة مباشرة بالطبيعة، ويألفون شظف العيش ـ كان صبوراً جلداً، وكان في إمكانه أن يجلس الساعات، بل الأيام الطوال، دون أن يصيبه التعب، أو يفقد زمام أعصابه.. وقد سمع سيده يناديه مرتين، إلاّ أنه لم يجبه، لسبب واحد، هو أنه لم يشعر بالميل إلى الحركة، ولم يجد داعياً لأن يكلف نفسه عناء رفع صوته!.. ومع أنه كان عند بدء رقاده مكتمل الدفء بفعل ما احتساه من أقداح الشاي، وبفضل المجهود الذي بذله في مكافحة أكوام الثلج، فإنه كان يعلم تمام العلم أن هذا لن يستمر طويلاً، وأنه سرعان ما سيفقد قواه ويغدو عاجزاً عن تجديد طاقة الدفء لديه بالحركة والنشاط.. إذ كان يشعر، في تلك اللحظة، شعور الجواد الذي توقف عن السير، وتملّكه الإحساس بأنه أصبح عاجزاً كل العجز عن المضيّ في السير ولو خطوة أخرى، بالرغم من السياط القاسية التي تنهال على ظهره.. مؤكداً بذلك لسيده أنه ما من عمل آخر يمكن أن ينتظر منه ما لم ينل راحته ويتناول طعامه..

وفوق ذلك كله كانت إحدى قدمي نيكيتا قد تجمّدت داخل حذائه البالي، حتى أن أصبعها الأكبر فقد كل إحساس.. وغدا جسده كله مثلجاً، وقد راح البرد يتسرَّب إليه ويزداد قسوة عليه.. حتى لقد بدأت تراوده حينئذ فكرة ملحّة بأنه سيموت في هذه الليلة. ومع ذلك، فإنه لم يشعر إزاء هذه الفكرة بأي انزعاج، ولا داخله أي خوف: وذلك لأنَّ حياته لم تكن راحة مستمرة أو عيداً متواصلاً، بل

كانت ـ على العكس ـ حياة رقّ دائمة، وكان قد بدأ يكل ويتعب منها.. ولأنه ـ إضافة إلى كل السادة الذين خدمهم في حياته، أمثال ڤاسيلي أندريتش ـ كان على الدوام يشعر بخضوعه للسيد الأعظم الذي خلقه وأرسله إلى هذه الحياة، وكان يعلم أنه ـ بعد الموت ـ سيبقى خادماً لهذا السيد، وأنَّ هذا السيد سيكون رحيماً به عطوفاً عليه.. فانطلق يفكر قائلاً في نفسه: «هل يساورني الأسف إذ أترك هذه الحياة التي عرفتها واعتدت عليها؟.. كلاّ، فلا جدوى من الأسف.. وحتى لو كان من المحتم أن أذهب، فلن أملك فراراً من هذا، والأفضل لي أن أعدَّ نفسي للحياة الجديدة التي تنتظرني!».

واسترسل نيكيتا في تفكيره، مستعرضاً خطاياه، متذكِّراً عربدته في ساعات سكره، والمال الذي بدّده على الخمر، وإهاناته لزوجته، وإغراقه في الأيمان الكاذبة، وإهماله الذهاب إلى الكنيسة، وعدم مراعاته للأيام المقدَّسة.. وغمغم قائلاً: «لقد كانت تلك خطايا من غير شك.. وما كنت لأنكر هذا في يوم من الأيام.. ولكن أليس الله هو الذي خلقني هكذا؟.. ومع ذلك، فما الذي سيحدث لي بسبب هذه الأيام يا ترى؟».

وانتقل فجأة من التفكير فيما عساه يحدث له في تلك الليلة إلى التفكير ـ دون أي سبب أو تمهيد ـ في خليط من الذكريات التي ازدحمت على رأسه في غير رابط أو اتفاق.. فخطرت بباله ذكرى وصول «مارتا»، ثم صورة العمال وهم يسكرون، وقد رفض هو مشاطرتهم الشراب.. ثم انتقل به التفكير إلى رحلة هذه الليلة، وإلى كوخ «تاراس»، والحديث الذي دار فيه عمّا يهدّد العائلة من تشتّت وانقسام.. ثم تمثّل ولده الصغير، و«براوني» الذي كان ينعم ـ ولا شك ـ بالدفء، تحت الغرارة التي تغطي ظهره.. ثم سيده ڤاسيلي، الذي كانت العربة تحدث صريراً تحته وهو يقفز ويستدير.. ثم راح يقول لنفسه: «لقد كان أمامي قدر كبير من الشاي لأشربه في تلك الدار..

وكنت متعباً، ولم أكن راغباً في أن أترك مثل تلك الحياة الطيبة لكي آتي وأموت في هذه الحفرة.. ومع ذلك فقد أراد هو غير ذلك!».

وقد طافت بمخيلته كل هذه الذكريات في وقت واحد، واختلطت في رأسه، ثم راح في غفوة أيقظه ڤاسيلي منها، حين هزّ العربة - وهو يحاول امتطاء الجواد - هزّاً عنيفاً حتى لقد استدارت، وصدمت نيكيتا في ظهره بإحدى عجلاتها، وبذلك اضطرته كارهاً إلى أن يغيِّر وضعه.. فمدَّ قدميه بشيء من الصعوبة، ونفض عنهما الثلج، ثم نهض قليلاً. وحينئذ شعر بألم شديد في جسده.. وإذ أدرك - لأول وهلة - ما اعتزم ڤاسيلي أن يفعله، رجاه أن يترك له الغرارة التي تغطي ظهر الجواد، فلن يعود هذا في حاجة إليها، في حين أن في إمكانه هو أن ينتفع بها.. وراح يصيح ملحّاً على ڤاسيلي ليعطيه إياها، إلاّ أنَّ هذا الأخير اختفى تحت وابل الثلج دون أن يكترث به!.. فلمّا وجد نيكيتا أنه أصبح وحيداً، راح يفكّر فيما يحسن به أن يفعله. وشعر بأنه لم تعد لديه القوة الكافية لأن يقوم باحثاً عن منزل يقضي فيه ليلته، في حين أصبح مستحيلاً عليه أن يستعيد المكان الذي كان راقداً فيه، إذ كان الثلج قد غطّاه وأخفى معالمه.. وحتى لو انتقل إلى داخل العربة، فقد لا تتحسَّن حاله، إذ لم يكن لديه الكفاية من الأغطية، ولم تعد سترته ولا لباسه الفرو كافيين لتدفئته..

وأحسَّ نيكيتا أنه يعاني سكرات الموت، فصاح هاتفاً: «يا إلّهنا الحبيب.. يا ربَّنا الذي في السموات!».. وشعر في هذه اللحظة بأنه لم يكن وحيداً، وإنما كان الله معه، يسمعه ولن يتخلى عنه، فأحسَّ بالراحة تتسرَّب إلى نفسه، وزحف إلى داخل العربة والمئزر لا يزال مغطِّياً رأسه، واستلقى حيث كان سيده مستلقياً.. إلاّ أنه لم يستشعر الدفء في ذلك المكان، فراح - في البداية - يرتجف، ثم ما لبث أن بدأ يفقد وعيه. فاستسلم، وقد سيطر عليه الإحساس بأنه يموت أو يستغرق في النوم.. فأعدَّ نفسه لكل من الحالتين!

8

كان ڤاسيلي في تلك الأثناء يستعمل كعبي حذائه، والطرف الفائض من الرسن، ليحثَّ الجواد على الإسراع في الاتجاه الذي حدس - لسبب أو لآخر - أن تكون الغابة وحارسها فيه. وراح الثلج يعمي عينيه، والريح تهاجمه وكأنها تصارعه وتصده كي توقفه.. إلاّ أنه ظل يستحثّ الجواد، وهو لا يفتأ ينحني إلى الأمام ليطوي أطراف ثوبه ويثنيها فيما بين ركبتيه والسرج المجلَّل بالثلج.. وكان الجواد - في هذه الأثناء - يتحرك بمشقة، ولكنه كان وديعاً، ذلولاً بطبعه، فمضى يبذل كل جهده في التقدم نحو الاتجاه الذي يقوده إليه سيده.

وظل ڤاسيلي - فترة بدا له أنها خمس دقائق - متّجهاً إلى الأمام، دون أن يكون في وسعه أن يبصر إلاّ رأس الجواد وأذنيه، وبحراً شاسعاً من الثلج الأبيض.. ودون أن يسمع غير صفير الريح وهي تمرق بين أذني الجواد وحول ياقة ثوبه الفرو.. وما لبث أن لاح شيء أسود أمام عينيه فجأة، فبدأ قلبه يخفق بالأمل، واتّجه نحوه، وقد خُيِّل إليه أنه أبصر - فعلاً - في معالمه جدران بيوت تتكوّن منها قرية.. إلاّ أن ما رآه لم يكن ثابتاً أمام باصرتيه، وإنما كان دائم الحركة والتأرجح من جانب إلى آخر.. وما لبث أن تغيَّرت هيأته، فإذا به دغل مستطيل من «الأفسنتين»، الذي نبتت سيقانه على حرف أخدود، وبرزت فوق مستوى الثلج، والريح تلطمها بعنف فتميلها وتمرق مولولة بينها.

ما إن تحقق ڤاسيلي من ذلك حتى تولّته رجفة، وانهال على الجواد يدفعه ويحثّه على العدو، دون أن يفطن إلى أنه قد حاد عن اتجاهه السابق، وسار في طريق ينحرف عنه، وهو يظن أنه لا يزال ماضياً في

ما يتوهّم أنه الطريق نحو كوخ حارس الغابة.. وعلى الرغم من أن الجواد ظل يحاول أن يحيد إلى اليمين، فإنه ما لبث أن اتّجه ـ مرة أخرى ـ نحو اليسار. وللمرة الثانية، لاح شيء قاتم أمام ڤاسيلي، فملأ قلبه بالفرح، إذ أحس ـ في هذه المرة ـ إحساساً محقَّقاً بأنَّ ثمة قرية سوف يصل إليها أخيراً.. إلاّ أنه ما لبث أن اتّضح له أن ذلك الشيء لم يكن ـ هو الآخر ـ إلاّ حرف أخدود اكتست قمته بالأفسنتين، والريح ـ كما رأى في المرة السالفة ـ تولول بين سيقانه الجافة، فامتلأ قلبه بالرعب. وكان هذا الدغل من الأفسنتين يشبه الدغل الأول في كل شيء، إلاّ شيئاً واحداً.. هو أنه كانت ثمة آثار خفيفة على الثلج لحوافر جواد بجوار الدغل الثاني.. وأسرع ڤاسيلي فانحنى إلى الأمام، وأنعم النظر في تلك الآثار، فتبيَّن له أنها آثار حوافر صغيرة الحجم، وأن رذاذ الثلج الذي يغطيها كان خفيفاً جدّاً.. باختصار، كانت آثار جواده ذاته!.. وإذاً فقد أتمَّ في سيره دائرة كاملة!

وغمغم يقول: «لقد هلكت!».. ولكي لا يستسلم لخوفه، راح ـ مرة أخرى ـ يدفع جواده في عنف، حاثّاً إياه على الإسراع، وهو لا يفتأ ـ بين لحظة وأخرى ـ يحدق بعينيه خلال عباب الثلج الأبيض، الذي كان يموج أمامه. وما لبث أن خُيِّل إليه أنَّه يبصر بقعاً سوداء تلوح له، حتى إذا أنعم النظر فيها، إذا بها تتلاشى وتختفي.. ثم خُيِّل إليه بعد ذلك أنه سمع صوتاً حسبه نباح كلب أو عواء ذئب، إلاّ أن الصوت كان شديد الخفوت حتى أنه لم يستطع أن يتأكد مما إذا كان قد سمع صوتاً حقّاً، أو كان ذلك مجرد وهم منه. فتوقف عن السير وأرهف سمعه.

فجأة، دوّت في أذنيه صرخة رهيبة مفزعة، وخيل إليه أنَّ كل شيء يضطرب ويرتعد من تحته. فتشبَّث بناصية الجواد، وإن كان قد وجدها هي الأخرى ترتعد، في حين أنَّ الصرخة راحت تزداد حدة

ونفاذاً.. ولبضع لحظات لم يتسن لڤاسيلي أن يكوّن فكرة عن حقيقة الأمر.. كل ما حدث هو أن الجواد سيطرت عليه فكرة أن يرفع من حالته المعنوية، أو أن يصهل في طلب النجدة، فصهل صهيلاً مرتفعاً بصوته الأجشّ. فما تبيَّن ڤاسيلي الأمر حتى استرد أنفاسه، وقال لاهثاً: «لقد أفزعني الجواد، عليه لعنة الله!». إلاّ أنه ـ برغم إدراكه حقيقة الأمر الذي أفزعه ـ لم يستطع أن يخلّص نفسه ممّا سيطر عليه من الفزع، فقال في نفسه: «يجب أن أفكر بعض الوقت في هدوء، وأن أدخل الطمأنينة إلى نفسي».. ولكنه ـ على الرغم مما بذل من الجهد ـ لم يصل إلى أي نتيجة، إذ فشل في السيطرة على نفسه، ولم يستطع أن يتوقّف عن دفع الجواد دفعاً عنيفاً، وحثّه على الإسراع، غير منتبه إلى أنه أصبح الآن يسير في اتجاه الريح، بعد أن كان يسير في الاتجاه المعاكس لها.. وكان جسده يرتعد وينبض كله بالألم، ولا سيما نصفه الأسفل الملاصق للسرج، حيث كان رداؤه غير محكم.. في حين كانت يداه وقدماه ترتجف بعنف، وكانت أنفاسه تخرج في لهاث، وقد شعر الآن شعوراً مؤكداً أنه هالك لا محالة في خضم ذلك الطوفان المخيف من الثلج، وأنه ما من شيء ينقذه.

*

على حين غرّة ندّت عن الجواد أنة عالية، إذ إنه اصطدم في كومة من الثلج، ثم ما لبث ـ وهو يحاول أن يتخلص منها ـ أن غاص حتى خاصرتيه في لجتها.. فقفز ڤاسيلي من فوقه، وأزاح ـ وهو يفعل ذلك ـ حلقات الركاب التي كانت قدماه متشبثتين بها، والسرج الذي كان جالساً عليه، فما إن استقر على الأرض حتى بادر الجواد إلى تصحيح الاتجاه لنفسه، وغطس في كومة الثلج غطسة، ثم أخرى، ثم اختفى وهو يصهل صهيلاً مرتفعاً، وقد جرَّ خلفه الغرارة وعدة السرج، وترك ڤاسيلي واقفاً تحت وابل الثلج.. فما إن رآه هذا الأخير يبتعد

عنه حتى أسرع خلفه يحاول أن يمسك به، إلاّ أن الثلج كان شديد العمق، في حين كان ثوبه الفرو ثقيلاً جدّاً. ومن ثم فقد راحت رجلاه تغوصان حتى ركبتيه. فما تقدم عشرين خطوة حتى كانت أنفاسه قد تقطّعت، ولم يجد بدّاً من أن يتوقّف عن المسير.

وحينئذ راح يفكر في نفسه قائلاً: «أخشابي، وكباشي التي أعدّها للجزّار، والأرض التي أؤجرها، والحانوت، والفندق، والدار ذات السطح الحديدي، والمخزن.. هل أترك هذا كله؟.. وولدي الصغير هل أتركه؟.. هل ينتهي بي الأمر هكذا؟ كلاّ، كلاّ.. لا يمكن أن يحدث هذا!».

ولسبب ما، برزت أمامه - في تلك اللحظة - صورة دغل «الأفسنتين»، وهو يميل تحت وطأة الريح. ولاحت في مخيّلته صورته هو ذاته، وهو يسير نحو ذلك الدغل مرتين.. وقد سيطر عليه خوف عظيم، حتى لقد وجد مشقة عظيمة في أن يصدّق ما حدث. وراح يقول لنفسه: «لا بد أن يكون كل هذا حلماً!».. وإذ استقر في ذهنه هذا الوهم، حاول أن يفيق من حلمه المزعوم.. إلاّ أنه لم يقدّر له أن يفيق.. فقد كان ثلج حقيقي ذلك الذي راح يصفع وجهه، ويتراكم على كل جسده، ويجعل يده - التي فقد قفازها - ترتعد.. وقد كان قفر حقيقي ذلك الذي وجد نفسه فيه وحيداً، والذي كان عليه أن ينتظر فيه موتاً سريعاً لا نجاة له منه.. فصرخ قائلاً: «يا ربَّ السماء!.. يا أبانا القديس نيكولا، يا من علّمتنا الصبر والاحتمال!».. ثم طافت بمخيلته صورة باهتة لصلاة الشكر التي أُقيمت بالأمس، ولأيقونة القديس بوجهه الأسمر وثوبه الذهبي، وللشموع التي اشتراها وأشعلها أمام الأيقونة لحظة، ثم استردّها واحتفظ بها..

وراح يتضرَّع إلى القديس صانع العجائب أن ينقذه من مصيره الرهيب، واعداً إيّاه في مقابل ذلك بأن يرفع إليه صلاة شكر، وأن

يوقد أمام أيقونته عدداً كبيراً من الشموع.. ومع ذلك فقد كان الشك يمزِّق قلبه، موقناً أن هذا القديس بوجهه الأسمر، وثوبه الذهبي، والشموع المضاءة، وصلوات الشكر المرفوعة، والكاهن الذي يقف أمام الهيكل، برغم ما كان لهم في الكنيسة من مقام رفيع ومكانة مرموقة، إلاّ أنهم لم يكونوا يملكون ـ في هذا القفر ـ أن يصنعوا من أجله شيئاً.. وأحس ـ في هذه اللحظة ـ بأنه لا صلة على الإطلاق بين الشموع وصلوات الشكر وبين ما هو فيه من محنة قاسية.. ومع ذلك فقد راح يغمغم قائلاً في نفسه: «كلاّ، لا ينبغي أن أقنط أبداً.. وما عليَّ إلاّ أن أتبع آثار الجواد قبل أن يغطيها الثلج ويمحو معالمها، ولا بد أنها ستقودني إلى مكان ما».. ولم يسعه إلاّ الإسراع إلى درجة تقترب من الجري، وهو لا يفتأ يتبيَّن آثار حوافر الجواد بين أكوام الثلج، فعضَّ ـ آخر الأمر ـ على شفته وهو يئنُّ قائلاً: «لقد ضعت!».

وما كاد يتم هذا القول، حتى وقع بصره على شيء قاتم أمامه.. وكان هذا الشيء هو «براوني»!.. ولم يكن «براوني» وحده، بل كذلك عريش العربة، والمنديل أيضاً.. فقد كان الجواد واقفاً بجوار العربة، وسرجه لا يزال متدلِّياً تحت خاصرتيه.. إلاّ أنه كان ـ في هذه المرة ـ في وضع يختلف عن وضعه السابق، إذ كان واقفاً تحت العريش مباشرة، ورأسه ـ الذي كان لا يفتأ يهزه بين لحظة وأخرى ـ مشدود نحو الأرض تحت وطأة الرسن الذي التفَّ حول رسغه.. وتبيَّن ڤاسيلي أنه غاص في الخندق ذاته الذي كان يرقد فيه نيكيتا، وأن الجواد كان يتجه به نحو موضع العربة، وأنه ـ في اللحظة التي قفز فيها من فوقه ـ كان على خمسين خطوة منها فقط!

9

تقدم ڤاسيلي نحو العربة، واستند إليها، ثم وقف طويلاً دون حراك، وهو يحاول أن يدخل السكينة إلى نفسه، وأن يستردّ أنفاسه. ولم يكن ثمة ما يمكن رؤيته من نيكيتا، في موضعه الأول الذي كان فيه. على أنه كان ثمة شيء ممدّد في داخل العربة، يغطّيه الثلج. وقد حدس ڤاسيلي أن هذا هو خادمه، فتلاشت المخاوف عنه، وإن ظل الفزع كامناً في قلبه من عودة المحنة المرعبة التي قاساها وهو على ظهر الجواد، ولا سيما حين وجد نفسه وحيداً في ذلك القفر الذي تتلاطم فيه أمواج الثلج. وفكّر في نفسه قائلاً إن هذا الفزع لا ينبغي أن يعود مهما يكلّفه الأمر. ومن أجل ذلك، كان عليه أن يشغل أفكاره بأي أمر.. فنصب قامته مولياً ظهره للريح. وفكّ أزرار ثوبه الفرو، حتى إذا هدأ روعه وانتظمت أنفاسه، بعض الشيء، راح ينفض الثلج عن حذائه وعن قفاز يده اليسرى، إذ كان قفاز اليمين قد ضاع.. وشدّ حزامه على خاصرتيه شدّاً وثيقاً.. ثم راح ـ بعد ذلك ـ يحاول أن يشغل نفسه في شيء ما. وكان أول ما خطر بباله أن يفعله هو أن يطلق قائمة الجواد من الرسن العالق بها، حتى إذا انتهى من ذلك ربط الجواد في حرف لوحة العربة الأمامية، حيث كان مربوطاً من قبل. وإذ استدار ليسوّي حزام الذيل، ويضبط وضع الغرارة والسرج على ظهره، أبصر شيئاً ما يتحرك في العربة، ثم وقعت عيناه على رأس نيكيتا تبرز من تحت الثلج الذي كان يغطيه. وكان يحاول ـ وقد تجمَّد من الصقيع ـ أن ينهض قليلاً، وقد أتى بإشارة غريبة بيده، ملوِّحاً بها أمام وجهه كأنما يهش ذبابة.. وإذ فعل ذلك بدا لڤاسيلي أنه يقول شيئاً.. وخُيِّل إليه أنه ينطق باسم ڤاسيلي، فترك الغرارة غير

معتدلة، واقترب من العربة، وسأله قائلاً: «كيف حالك الآن؟.. ماذا تحاول أن تقول؟». فأجاب نيكيتا بصعوبة، وهو يلهث، قائلاً بكلمات متقطِّعة: «فقط إنني.. إنني أموت.. أعط أجرتي للصبي، أو للزوجة.. سيّان!».. فسأله ڤاسيلي قائلاً: «أنت إذاً تجمّدت من البرد؟». فأجابه نيكيتا بصوت مختنق: «نعم.. وأنا أموت.. أنا أعلم ذلك!». وصمت قليلاً، ثم أضاف قائلاً وهو لا يزال يلوّح بيده أمام وجهه كأنما يهش ذبابة: «سامحني من أجل الله!».

وعندئذ وقف ڤاسيلي نحو نصف دقيقة دون أن يبدي حركة أو ينطق حرفاً، ثم تحفَّز فجأة، وبالأسلوب الحاسم ذاته ـ الذي اعتاد أن يتّبعه حين كان يضع يده على صفقة مكسبة ـ خطا خطوة إلى الخلف، وثنى كميّ ردائه، وراح يجرف الثلج بكلتا يديه من فوق نيكيتا ومن داخل العربة، حتى إذا انتهى من ذلك فكّ حزامه، وفتح ثوبه الفرو، ثم سحب نيكيتا ـ جاعلاً إياه في وضع مستقيم ـ وتمدَّد فوقه بحيث غطّاه تماماً، لا بثوبه فحسب، وإنما بجسده الدافئ الحار.. وقد حشر أطراف ردائه ـ بين جسد نيكيتا وجدار العربة ـ وشد ذيل سترته بين كاحليه، وظلَّ هكذا منبطحاً، ورأسه مسند إلى لوحة العربة الأمامية، وأذناه مغلقتان لا تسمعان حركات الجواد ولا ولولة الريح، إذ وضع كل انتباهه في الإنصات إلى تنفُّس نيكيتا.. وقد ظل نيكيتا، مدة طويلة، لا تصدر عنه أي حركة ولا نأمة. ثم ندّت عنه أنة عميقة، وتحرّك حركة واهنة. فقال له ڤاسيلي: «ها أنت حي، فكيف تتكلم ـ مع ذلك ـ عن الموت؟.. ما عليك إلاّ أن تنام في هدوء، وأن تدفأ شيئاً فشيئاً. ونحن..».

إلاّ أنه، لفرط دهشته، وجد نفسه عاجزاً عن أن يقول أكثر من ذلك، وقد راحت الدموع تنهمر من عينيه، وفكه الأسفل يرتعد.. فتوقف لحظة، وازدرد قطعة من الثلج انحشرت في فمه، وفكر في

نفسه قائلاً: «لقد وهنت واضطربت أعصابي بدرجة سخيفة!». إلاّ أنه ـ مع ذلك ـ لم يستشعر في هذا الضعف أي ألم، بل ـ على العكس ـ شعر بسعادة لم يشعر بمثلها على الإطلاق من قبل.. فقال لنفسه، وقد سيطر عليه انفعال شديد: «نعم، سوف ندبِّر الأمر على أحسن وجه!».. ثم استلقى ـ بعد ذلك ـ وقتاً طويلاً في سكون، وهو لا يفعل شيئاً إلاّ أن يمسح عينيه في فراء ثوبه ويثني طرف كمه الأيمن الذي كانت الريح تطيح به بين لحظة وأخرى.. إلاّ أنه شعر أخيراً بأنه بحاجة إلى من يشاركه في فرحه، فنادى خادمه الراقد تحته قائلاً: «نيكيتا!».. فجاءه الصوت من تحته مغمغماً: «إنني الآن أفضل حالاً.. لقد تدفأت!».. فأجابه ڤاسيلي قائلاً: «نيكيتا، يا صديقي، لا بد أنك تجمّدت من البرد. وأنا..!».

ومرة أخرى، راحت وجنتا ڤاسيلي تختلجان، وامتلأت عيناه بالدموع، حتى عجز عن أن يقول شيئاً آخر.. ففكّر قائلاً في نفسه: «كلاّ، إن الأمر في غاية السوء.. برغم أني أعلم ما أعلم..». ثم بقي ساكتاً.. وظل راقداً هناك. وبدا له أن الدفء ينتقل إليه من نيكيتا الراقد تحته، ومن ثوب الفراء الذي فوقه.. إلاّ أن يديه اللتين كان ممسكاً بهما أطراف ثوبه، وهو يطويه حول نيكيتا، وقدميه اللتين كانتا معرضتين لهبوب الريح، فبدأ يشعر بهما مثلجتين، ويده اليمنى التي كانت بغير قفاز، أصبحت كلها مخدرة.. ومع ذلك، فإنه لم يفكر قط في يديه أو قدميه، وإنما انحصر كل تفكيره في الكيفية التي يبعث بها الدفء في جسد الخادم الذي كان مستلقياً تحته.

*

أدار ڤاسيلي عينيه أكثر من مرة ناحية الجواد، وأبصره وقد انكشف ظهره، إذ كانت الغرارة قد سقطت عنه واستقرت فوق الثلج.. وشعر أن من الواجب عليه أن يقوم ويعيد وضع الغرارة فوق

ظهره، إلاّ أنه لم يشأ أن يترك نيكيتا لحظة واحدة، فيفقد بذلك شعور الفرح العجيب الذي كان مسيطراً في هذه اللحظة عليه.. أمّا مخاوفه فقد ذهبت كلها عنه. وحينئذ قال لنفسه مزهوّاً بالجهد الذي يبذله لتدفئة نيكيتا: «وحق السماء، لن أغلب على أمري!».. قال ذلك بنغمة الخيلاء عينها التي اعتاد أن يتكلم بها عن صفقاته، ومبيعاته، ومشترياته.

وظل راقداً هكذا ساعة، ثم ثانية، ثم ثالثة.. إلاّ أنه لم يشعر بمرور الوقت. وتراقصت ـ في أول الأمر ـ أمام عينيه صور غامضة للعاصفة، وعريش العربة، والجواد تحت سرجه المرتفع.. ثم تلاشت هذه الصور، وحلّت محلّها ذكريات ـ مختلطة ببعضها ـ عن العيد، وزوجته، والمأمور، وصندوق الشموع. ولكنه تمثّل ـ تحت صندوق الشموع ـ نيكيتا راقداً!

ولم يلبث أن تعاقبت أمامه صور الفلاحين وهم يتعاملون معه، والجدران البيضاء لمنزله ذي السقف الحديدي.. ومرة أخرى، تمثّل تحت صورة هذه الجدران نيكيتا راقداً!.. ثم اختلط كل شيء، وتداخل كل شيء في غيره من الأشياء، حتى بدت الصور أمام عينيه كألوان قوس قزح، وقد غاص في لجة من النور الأبيض.. ثم استغرق ڤاسيلي في النوم.. ونام وقتاً طويلاً بغير أحلام، إلاّ أنه ـ قبل الفجر ـ لاحت له بعض رؤى النوم، فتمثَّل نفسه واقفاً عند صندوق الشموع. وكانت الأم «تيخونوڤا» تطلب منه شمعة بخمسة كوبيكات لتشعلها في العيد، فحاول أن يأخذ الشمعة من الصندوق ويعطيها إياها، إلاّ أن يديه ظلتا ملتصقتين في جيبي سترته..

وحاول ڤاسيلي أن يسير إلى الناحية الأخرى من الصندوق، إلاّ أن قدميه رفضتا أي حركة.. وفجأة، لم يعد الصندوق صندوقاً على الإطلاق، وإنّما انقلب إلى فراش.. وفوق ذلك الفراش رأى نفسه

راقداً ووجهه إلى أسفل. وخُيِّل إليه أن ذلك الفراش هو فراشه الذي بمنزله، وأنه راقد عليه، وليس بوسعه أن ينهض.. مع أنه كان يشعر بضرورة نهوضه، إذ إن المأمور «إيڤان ماتڤيتش»، كان آتياً ليقابله، كما كان عليه أن يذهب مع «إيڤان» لشراء بعض الأخشاب، أو لأمر آخر لا يعلم ما هو.. وقد ظل يسأل زوجته قائلاً: «ألم يأت بعد، يا ميكولوڤنا؟».. وظلت هي تجيبه: «كلاّ.. لمّا يأت بعد!». ثم استطاع أن يسمع صوت عربة بالخارج.. فلا شك أنه هو.. ولكن العربة مرت ولم تقف.. فسأل زوجته مرة أخرى، قائلاً: «ألم يأت بعد؟». ومرة أخرى أجابته قائلة: «كلاّ. لم يأت بعد!».

وهكذا ظل نائماً على الفراش، غير قادر على النهوض، وظل ينتظر وينتظر.. وكان الانتظار ـ في الوقت ذاته ـ مؤلماً ومفرحاً..

فجأة، بلغ ما اعتراه من الفرح ذروته: فقد جاء من كان ينتظره.. ولكنه لم يكن «إيڤان ماتڤيتش»، ولم يكن أي شخص آخر.. ومع ذلك فقد كان هو الذي ينتظره.. وقد دخل ذلك الرجل، وناداه.. وأهاب به ـ مرة أخرى ـ أن يذهب ويرقد فوق نيكيتا.. وكان ڤاسيلي مسروراً بأن هذا الرجل قد جاء، فصاح في غمرة فرحه: «نعم. سأذهب!».. إلاّ أنَّ هذه الصيحة أيقظته.

نعم. لقد استيقظ.. إلاّ أنه استيقظ رجلاً مختلفاً كل الاختلاف عن الرجل الذي كانه حين استغرق في النوم.. وقد حاول أن ينهض فلم يستطع.. حاول أن يحرِّك يده، فلم يستطع.. حاول أن يحرِّك قدمه، فلم يستطع.. ثم حاول أن يدير رأسه، إلاّ أنه عجز عن تحريكه أيضاً.. وقد أثار ذلك دهشته، ولكنه لم يسبب له أي انزعاج أو اضطراب.. وفي هذه اللحظة، تذكَّر أن نيكيتا يرقد تحته، وأنَّ نيكيتا يزداد دفئاً، وأنه يعود إلى الحياة.. وقد خُيِّل إليه أنه هو نيكيتا، وأن نيكيتا هو، وأن حياته لم تعد في داخله، وإنَّما في داخل نيكيتا.. وقد

أرهف أذنيه حتى أمكنه أن يسمع صوت تنفُّس.. نعم. كان ذلك هو التنفُّس الضعيف العميق الذي يصدر عن نيكيتا. فصاح في نفسه في انتصار: «نيكيتا حيّ.. وكذلك أنا حيّ!».. ثم بدأ يفكّر في أمواله، ومتجره، ومنزله، ومبيعاته ومشترواته، وملايين ميرونوف.. ثم لم يستطع أن يفهم كيف أن ذلك الرجل ـ الذي يسميه الناس ڤاسيلي بريخانوف ـ يجد سروره في مثل هذه الأشياء.. وراح يقول في نفسه: «إنَّ هذا الرجل الذي يدعى ڤاسيلي بريخانوف لا يمكن أن يكون قد عرف ما هو أعظم الأشياء على الإطلاق.. لا يمكن أن يكون قد عرف ما أعرفه أنا.. نعم، إنني أعرف ذلك معرفة أكيدة الآن.. أخيراً، أنا أعرف!!».

ومرة أخرى سمع الرجل يناديه.. الرجل نفسه الذي كان يناديه من قبل.. وكان كيانه كله غارقاً في السعادة وحنان الحب، حين أجاب قائلاً: «أنا آت، أنا آت!».. وقد شعر حينئذ أنه ـ أخيراً ـ أصبح حرّاً، وأنه ما من شيء يمكنه أن يقيّده بعد ذلك. وفعلاً، فإنَّ شيئاً آخر غير هذا لم يره أو يسمعه أو يحسه ڤاسيلي أندريتش في هذا العالم.

ومن حوله كانت العاصفة تدوّي، ودوّامات الثلج تدور في طيات الأعاصير وتغطي أردية ڤاسيلي أندريتش، الذي كان قد أصبح جثة هامدة، والجواد الذي كان يرتجف، والعربة التي كان قد اختفى معظمها الآن.. وقد تمدَّد في داخلها نيكيتا وقد ارتدّت إليه الحياة، وهو مستلق تحت جثة سيده، الذي كان قد مات!

10

أفاق نيكيتا قبيل بزوغ الفجر، وكان الذي أيقظه هو الصقيع الذي تسرّب تحت ظهره.. وكان يحلم بأنه خارج من الطاحونة بحمل من الدقيق يخصّ سيده، وبدلاً من أن يتخذ طريق الجسر المرفوع فوق النهر، خاض الماء خوضاً.. وفي القاع، التصقت قدماه التصاقاً شديداً، فلم يتمكّن من نقلهما خطوة واحدة. ووجد نفسه ـ وقد ناء بحمله ـ وهو يحاول أن يرفعه، ويجتهد في أن ينصب ظهره.. إلاّ أن الحمل مع ذلك لم يتحرك ـ لدهشته ـ وإنما لصق بظهره، فلم يستطع أن يحرّكه أو ينسلّ من تحته.. وشعر أنه يوشك أن يكسر حقويه، وأنه شديد البرودة، حتى لقد أثلج ظهره.. وراح يفكر في أنه ينبغي بأي ثمن أن يخرج من تحته. ووجد نفسه يصرخ قائلاً: «قف مكانك!»، للشخص الذي كان يتسبَّب في أن يكسر الحمل ظهره. ومع ذلك، فقد ظل الحمل يزداد برودة أكثر فأكثر.. وفجأة، سمع شيئاً ما يفرقع فرقعة مدوّية، فاستيقظ يقظة تامة وتذكر ما حدث.. كان ذلك الحمل المثلج هو سيده الميت المتجمّد من البرد.. وتلك الفرقعة المدوّية كان سببها «براوني»، وقد راح يضرب حوافره في العربة!

صاح نيكيتا منادياً سيده: «أندريتش.. أندريتش!» وإن كان قد أدرك الحقيقة حقّاً نصف إدراك. وراح يحاول أن يرفع ظهره بمشقة.. إلاّ أن أندريتش لم يحر جواباً، وقد كان جسده بارداً ومتصلّباً وثقيلاً كثقل الحديد.. ففكر نيكيتا في نفسه قائلاً: «لا شك أنه مات!».. وأدار رأسه، وأزاح الثلج عن وجهه، وفتح عينيه.. كان الضوء قد غدا ساطعاً، والريح لا تزال تدوّي بين ذراعي عريش العربة،

ووابل الثلج يتساقط كما كان.. إلاّ أنه لم يعد يلطم جنبات العربة، وإنما راح ينزلق في سكون فوقها وفوق الجواد. وكان هذا الأخير متجمِّداً، ولم يعد يسمع منه حتى صوت تنفُّسه.. ففكر نيكيتا في نفسه مرة أخرى قائلاً: «لا بد أن «براوني» تجمَّد هو الآخر!».. ولا شك في أن تلكما الخبطتين العاليتين على العربة، اللتين أيقظتاه، كانتا آخر جهد بذله الجواد ـ الذي أصبح الآن ميتاً متجمِّداً ـ كي يظلّ واقفاً على قوائمه.

وحينئذ هتف نيكيتا: «يا إلّهي، يا إلّهنا الحبيب الذي في السموات، لا بد أنك ستدعوني أنا أيضاً.. فإن كان كذلك فلتكن مشيئتك، فلسوف يكون قاسياً أن يؤخذ اثنان منّا وأن يترك الثالث.. فليأت الموت حين يشاء!». وسحب يده مرة أخرى، وأغلق عينيه واستغرق في النوم، مقتنعاً تمام الاقتناع بأنه ـ في هذه المرة ـ قد مات حقّاً!

في اليوم التالي عند الظهر جاء بعض الفلاحين وحفروا في الثلج، ليخرجوا ڤاسيلي ونيكيتا، على بعد سبعين ياردة فقط من الطريق، وعلى مسيرة فرسخ من القرية.. كان الثلج قد تراكم فوق العربة حتى غطّاها تماماً، إلاّ أن العريش ـ ومن فوقه المنديل ـ ظلاّ ظاهرين.. أمّا «براوني» ـ وكان قد دفن إلى خاصرتيه في الثلج ـ فقد بدا ككتلة متجمِّدة، وخطمه ـ من أثر الموت ـ مزموم بشدّة، ورقبته متصلِّبة، ومنخراه مجلّلان بقطع الجليد، وعيناه مغلقتان بالثلج، وقد هطل منهما ذوبه كأنه الدموع المتجمِّدة.. وكان ضمر ضموراً مروِّعاً في تلك الليلة، حتى لم يبق منه غير جلد وعظم.

أمّا ڤاسيلي فقد كان كذلك متيبِّساً كجيفة جافة، وحينما سحبوه من قدميه تدحرجت جثته من فوق نيكيتا ككتلة صلبة.. وكانت عيناه جاحظتين، وفمه المفتوح قليلاً تحت شاربيه المتهدِّلين كان ممتلئاً بالثلج.

ولم يوجد حيّاً غير نيكيتا، وإن كان قد تجمَّد ـ بفعل الصقيع ـ من رأسه إلى قدميه.. إلاّ أنه، حينما استرد وعيه، لم يقتنع بأنه لم يمت، وأن كل ما كان يحدث له لم يكن في العالم الآخر.. وكان شعوره الأول ـ حين سمع صياح الفلاحين فوقه ـ وهم يحفرون لإخراج العربة، ثم وهم يدحرجون ڤاسيلي المتصلِّب من فوقه، أن هذا الصياح إنَّما يصدر عنهم في العالم الآخر، وإن كانوا يصيحون في هذا العالم، ولهم أجساد هذه الدنيا!

ولمّا أدرك أخيراً أنه في هذا العالم فعلاً، شعر بالكآبة أكثر مما شعر بالسرور، ولا سيما حين أحسَّ بأن أصابع يديه كلتيهما متجمِّدة.

وقد ظل راقداً في المستشفى زهاء شهرين، حيث وجدوا أنه لا بد من بتر ثلاثة من أصابعه.. إلاّ أن الأصابع الأخرى شفيت، فأمكنه أن يواصل العمل ثانية، وأن يعيش عشرين سنة أخرى.. واشتغل ـ في أول الأمر ـ عاملاً، حتى إذا تقدَّم في السن عمل حارساً.. ولم يمت إلاّ في هذا العام، وقد مات في بيته، تحت أيقونات القديسين، وشمعة مضاءة في يده، كما كان يتمنى على الدوام.. وقبل موته، ودّع زوجته العجوز، وغفر لها علاقتها بصانع البراميل.. كما ودّع ولده وأحفاده.. ومات سعيداً أعظم سعادة، إذ كان يعتقد أن موته سيوفِّر على ولده وزوجة ولده أحد الأفواه التي تلتهم الطعام، وأنه في هذه المرة سينتقل حقّاً من تلك الحياة الشاقة التي ما فتئت متاعبها تثقل على كاهله يوماً بعد يوم، إلى الحياة الأخرى التي كان يتضاعف إغراؤها له في كل عام من الأعوام، بل في كل ساعة من ساعات حياته.

أتراه الآن في حال أفضل أم أسوأ بعد انتقاله إلى العالم الآخر؟.. وهل كان مخدوعاً أم أنه وجد حقّاً ما كان يتوقّعه ويهفو إليه؟

لن نلبث أن نعرف ذلك جميعاً!

الفهرس